الله غالب

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلِّ على سيدنا محمد

المرأة في المغرب والأندلس في عصر المرابطين

(٤٥٣-٥٤١هـ/ ١٠٦١-١١٤٦م)

دراسة تاريخية حضارية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة

إعداد الباحثة

سعاد بنت عبدالله بن عبدالعزيز اليحيان

للتواصل

اللّٰہ غالب

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية العلوم الاجتماعية

قسم التاريخ والحضارة

المرأة في المغرب والأندلس في عصر المرابطين
(٤٥٣-٥٤١هـ/ ١٠٦١-١١٤٦م)
دراسة تاريخية حضارية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة

إعداد الباحثة

سعاد بنت عبدالله بن عبدالعزيز اليحيان

إشراف

الأستاذ الدكتور/ حمد بن صالح السحيباني

العام الجامعي

١٤٣٥-١٤٣٦هـ

الله غالب

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry of Higher Education
Al-Imam Muhammad Ibn Saud Islamic University
COLLEGE OF SOCIAL SCIENCES IN RIYADH

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية العلوم الاجتماعية بالرياض

الكلية/ كلية العلوم الاجتماعية

القسم/ التاريخ والحضارة **المرحلة/الماجستير**

اسم الطالبة/ سعاد بنت عبدالله اليحيان

عنوان الرسالة/ " المرأة في المغرب والأندلس في عصر المرابطين (٤٥٣- ٥٤١هـ / (١٠٦١- ١١٤٦م) : دراسة تاريخية حضارية "

المشرف على الرسالة

الاسم/أ.د. حمد بن صالح السحيباني

أعضاء لجنة المناقشة

١- الاسم : أ د/ حمد بن صالح السحيباني

التوقيع

٢- الاسم : د/ عبدالرحمن بن سليمان العجلان

التوقيع

٣- الاسم : د/ بدرية بنت عبدالعزيز العوهلي

التوقيع

تاريخ المناقشة يوم الأحد الموافق: ١٤٣٦/٧/٧هـ ٢٠١٥/٤/٢٦م

اللہ غالب



ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. أما بعد:

فإن موضوع البحث هو: "المرأة في المغرب والأندلس في عصر المرابطين (٤٥٣هـ-٥٤١هـ/١٠٦١-١١٤٦م)".

وقد سرت في هذا البحث وفق خطة اقتضتها طبيعة الدراسة، حيث جاءت الخطة مقسمة إلى خمسة فصول، مسبوقة بمقدمة احتوت تعريفًا بالموضوع وبيان أهميته، مع ذكر الدواعي والأسباب التي أدت إلى كتابته، وتوضيح المادة العلمية، وإبراز المصادر، وأهم الصعوبات التي قابلت الباحثة، ثم الشكر، وبعده يأتي التمهيد الذي كان الحديث فيه عن التطور السياسي للدولة المرابطية في الأندلس.

وكان الفصل الأول خاصًّا بالعوامل المؤثرة في نشاط المرأة في المغرب والأندلس، ويتكون من خمسة مباحث؛ هي: الدين، ثقافة المرأة، القرب من رجال الدولة، الأعراف والتقاليد، أثر المجتمعات المجاورة.

أما الفصل الثاني فقد تناولت فيه التقاليد المتعلقة بالمرأة في المغرب والأندلس في عصر المرابطين، وتم تقسيمه إلى خمسة مباحث: الأول جاء خاصًّا بفئات النساء، وقد ضمنت هذا المبحث الحديث عن نساء الخاصة، ونساء الحاضرة، ونساء البادية، والجواري، والنساء غير المسلمات، أما المبحث الثاني فقد كان عن عادات الزواج، في حين جاء المبحث الثالث عن اللباس والزينة، وكان المبحث الرابع عن انتساب الرجال إلى أمهاتهم، والمبحث الخامس عن مشكلات المرأة الاجتماعية.

وجاء الفصل الثالث خاصًّا بدراسة أثر المرأة في الحياة السياسية والإدارية، وقد تضمن ثلاثة مباحث؛ هي: مشاركة المرأة السياسية، ومشاركة المرأة الإدارية، ومشاركة المرأة في الجهاد.

أما الفصل الرابع فقد كان مختصًّا بدراسة أثر المرأة في الحياة العلمية والأدبية، وقد تضمن أربعة مباحث؛ هي: جهود المرأة في طلب العلم، وجهودها في التدريس، وجهودها في الرواية والتأليف، ومشاركة المرأة في الجانب الأدبي.

واختص الفصل الخامس بدراسة أثر المرأة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، حيث قسمت الفصل إلى مبحثين اثنين: أولهما كان عن مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية، ويتركز الحديث فيه عن ثلاثة أمور؛ هي: مكانة المرأة الاجتماعية عند السلاطين والحكام، وجهودها في النشاط الاجتماعي والعمل الخيري، ومشاركتها في الحياة العامة، وفي المبحث الثاني ألقيت الضوء على مشاركة المرأة في الحياة الاقتصادية، وجاء الحديث فيه عن ثلاثة أمور؛ هي: مشاركتها في التجارة، والزراعة، وفي الحرف والصناعة.

ثم جاءت الخاتمة لخصت فيها أبرز النتائج التي توصلت إليها، وذيلت البحث بعدد من الملاحق والخرائط، ثم ختمت البحث بفهرس المصادر والمراجع، وأخيرًا بفهرس للموضوعات.

Research Summary In English Language

Suad Abdullah Abdulaziz ALyahyan

Supervisor: Dr. / Hamad Saleh AL-Suhaibani

Praise be to Allah, peace and blessings be upon his prophets and messengers, our Prophet Muhammad, and his family and all his companions, and who followed them in truth until the Day of Judgment and then:

The research topic is "Women in Morocco and Andalusia in the era of Stationed (453 H - 541 H / 1061- 1146)".

I have followed in this research according to plan necessitated by the nature of the study, however, it was divided into five chapters preceded by an introduction contains a definition of the subject and its importance, together with the reasons and the causes that led me to write it , and to clarify the international material, and to highlight the sources, as well as the most important difficulties that met or interviewed the researcher, then Thanksgiving, and after that comes the preface which was talking about the political development of the State Stationing in Andalusia.

The First chapter specially focuses on factors affecting the activity of women in Morocco and Andalusia, which consists of five sections: Religion, Culture of women, proximity to the State officials, Customs & Traditions, and the impact of neighboring

communities.

The Second chapter dealt with the traditions relating to women in Morocco and Andalusia in the era of Stationed have been divided into five sections: the first section was specialized for categories of women where I was spoke about a definite groups of women (privative women, prosperity women who have social strata and privilege, desert women, slaves, and non-Muslim women), while the second section was about marriage customs, while the third section came about the dress and adornment, and the fourth section for men enrollment to their mothers, and the fifth section topic was on the social problems of women.

The third chapter was concerning about the effects of women in political and administrative life, which included three sections, namely: women's political participation, and the administrative participation of women, and women's participation in jihad.

The fourth chapter was competent to examine the impact of women in the scientific and literary life, which included four sections of topics, namely: women's efforts in the demanding of science, her efforts in teaching, her efforts in the novel and authorship, and the participation of women in the literary side.

Chapter V study concentrated in the impact of women in social and economic life, this section divided in to two sections of two: The first was about women's participation in social life, and this concentrated about three things : women's social position to the sultans and the rulers, and her efforts in social activity and

charity work, as well as her participation in public life, and in the second section I have thrown light on women's participation in economic life, and concentrated about three things, namely: women's participation in trade, agriculture, and in careers and industry, and then the conclusion summarized the main results reached I have reached thereof , and I have appended the research with a number of appendices and maps then I have closed the research study with the index of sources and references, and finally the index of Topics

مقـــدمة

الحمد لله الذي أشرقت بنور وجهه السموات والأرض، الحمد لله الذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وأصلي وأسلم على الرحمة المهداة إلى العالمين، نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

أما بعد:

فقد شهد القرن الخامس الهجري قيام دولة إسلامية جديدة في المغرب والأندلس، عرفت باسم دولة المرابطين (٤٥٣- ٥٤١هـ) (١٠٦١- ١١٤٦م)(١)، وقد قامت هذه الدولة على أسس دينية؛ ولهذا حظيت بقبول الناس لها، وكان لقيامها أثر مهم في التاريخ الإسلامي بصفة عامة، وتاريخ المغرب والأندلس بصفة خاصة؛ فقد تمكنت من نشر الإسلام في مناطق واسعة من الصحراء الإفريقية، ونشر الثقافة الإسلامية بين القبائل البربرية المختلفة، ثم لم تلبث أن توسعت صوب الشمال، فحكمت شمالي بلاد المغرب الأقصى(*)، وقد اتخذت من فاس عاصمة لها، ثم انتقلت العاصمة إلى مراكش(٢).

أما نشأة هذه الدولة، فإنها تعود إلى جهود يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي كان رجلاً صالحًا متحمسًا للإسلام، عاملاً على نشره، مهتما بأحكامه، وقد رحل عن بلاده لأداء فريضة الحج وزيارة المدينة النبوية سنة ٤٢٧هـ(٣)، وفي طريق عودته إلى بلاده مرّ بمدينة القيروان، وقد كانت

---

(١) ابن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد بن عمر، الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٨٣م، ج٨، ص٣٢٧،السلاوي: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٧٩م، ج١،ص ١٩ــ٢٠.

(*) انظر: الخريطة التي تبين امتداد حدود الدولة المرابطية في المغرب والأندلس في ملاحق هذه الدراسة،(١:ص٢٠١).

(٢) ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار ابن حزم، ٢٠٠٣م، ج٤، ٤٦٣.

(٣) ذكر حسن محمود "أن أقوال المؤرخين قد تباينت حول رحلة يحيى بن إبراهيم للحج؛ فقد ذكر كل من ابن عذاري والنويري أنه خرج سنة ٤٤٥هـ، أما الرواية الثانية فقد ذكر صاحب "الحلل الموشية" والقلقشندي أن ذلك كان سنة ٤٤٠هـ، والرواية الثالثة يذهب فيها ابن أبي زرع إلى أن الرحلة تمت عام ٤٢٧هـ أو ٤٢٩هـ، وهي أقرب الروايات؛ لأن كتب التراجم والطبقات تجمع على أن أبا عمران الفاسي قد توفي عام ٤٣٠هـ، فلابد أن تكون الرحلة قد تمت قبل هذا التاريخ، وإلا لما استطاع أن يحضر مجالس أبي عمران الفاسي ويتتلمذ عليه، وفي هذه الحالة تصبح رواية ابن أبي =

مركز إفريقية العلمي في ذلك الوقت، وهناك التقى بالشيخ الصالح أبي عمران الفاسي، وكان من فقهاء المذهب المالكي [1]، وانضم لحلقات دروسه، ولما رأى أبو عمران ميل يحيى للعلم سأله عن اسمه واسم قبيلته ووطنه، فأجاب أنه يحيى بن إبراهيم الجدالي من جدالة، وقد عجب أبو عمران حين راء ان يحيى بن إبراهيم ، لا يعرف من مبادئ الإسلام إلا القليل، ولا يحفظ من كتاب الله ولا من سنة نبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم إلا القليل جدًّا، رغم أنه أمير قومه، وقال فيه: "إنه صحيح النية والعقيدة واليقين، جاهل بما يصلح دينه"[2]، وأرسل معه كتاباً إلى تلميذ من تلاميذة يدعى أبو محمد واجاج اللمطي، فلما مثل لديه يحي قرأ كتاب الشيخ أبي عمران الفاسي على تلاميذة، فاستجاب للدعوة الشيخ عبدالله بن ياسين الجزولي الفقيه العالم، وذهب مع يحي الجدالي إلى بلاده ، فبنى لهم رباطًا اتخذه مكانًا لعبادتهم وتعليمهم، يعلم الناس فيه أمور دينهم، ويحثهم على نبذ البدع والخرافات، وسرعان ما تجمعت حولهما طائفة من تلاميذ عبدالله، وخاصة من جدالة ومسوفة ولمتونة، وأخذت بالزيادة حتى بلغت ألفًا من الرجال قاموا على نشر مبادئ الإسلام وتسموا بالمرابطين[3]؛ لأنهم كانوا يلزمون الرباط[4]؛ وهكذا عقد عبدالله بن ياسين لواء الجهاد ليحيى بن عمر بن إبراهيم، وسماه أمير المسلمين.

زرع أقرب هذه الروايات إلى الحقيقة. (حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٠٨-١٠٩).

(١) أبو عمران الفاسي: هو موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي القيرواني، ولد سنة ٣٦٨هـ، أصله من مدينة فاس، ونزل في القيروان، وهو من بيت مشهور بالعلم والنباهة، رحل للمشرق وحج ودخل العراق فسمع من أبي الفتح بن أبي الفوارس، له كتاب التعليق على المدونة إلا أنه لم يكمله، توفي بالقيروان في رمضان سنة ٤٣٠هـ. (انظر: محمد بن محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩، ج١، ص١٠٦).

(٢) ابن أبي دينار: أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ١٣٨٦م، ص١٠٢.

(٣) ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم المرابطين، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ج ٤،ص١٠.

(٤) الرباط: مكان منعزل على أطراف دولة الإسلام، ويكون على الحدود يحرسه من يسمون بالمرابطين في سبيل الله.(انظر:ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار المعرفة ،لبنان ،١٩٧٠م ، مادة (ربط)، ج١٧، ص١٥٦١).

وقد استشهد يحيى بن عمر في إحدى الغزوات، فولّى عبدالله بن ياسين أبا بكر شقيق يحيى بن عمر ليقود المرابطين في سنة ٤٤٧هـ[1]، وعين لقيادة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين[2] خير الأمراء المرابطين، وتواصلت فتوحات المرابطين حتى بلغت بلاد السوس[3].

وقد قامت دولة المرابطين على أساس ديني، وكان هدفها نشر الدعوة لا ملك البلاد والعباد، حيث يذكر ابن الخطيب[4] " أن عهد ابن تاشفين هو بداية تحول دولة المرابطين إلى دولة سياسية، وأنه أول سلطان بربري يحكم المغرب، ويكوّن جيشًا قويًّا من معظم قبائل المغرب على مذهب أهل السنة والجماعة "[5].

وكانت نهاية دولة المرابطين سنة ٥٤١هـ حينما دخل الموحدون مدينة مراكش بقيادة عبد المؤمن بن علي (٥٢٤هـ/٥٥٨هـ)، حيث لم يبق منهم سوى فلول قليلة تمكن الموحدون من القضاء عليها لاحقًا[6].

---

(١) ابن ابي دينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس،ص١٠٣.

(٢) يوسف بن تاشفين: هو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن ورتانطق بن منصور بن مصالة بن أمية الصنهاجي اللمتوني،كنيته أبو يعقوب، ولد ببلاد الصحراء سنة ٤٠٠هـ،كان أسمر اللون نقيه، معتدل القامة، نحيف الجسم، خفيف العارضين، رقيق الصوت، أكحل العينين، أقنى الأنف، وكان بطلًا، مهابًا، حازمًا، عادلًا، صالحًا، جودًا، كريمًا، توفي بشهر محرم سنة٥٠٠هـ وعمره مئة سنة. (انظر: ابن أبي زرع: أبو الحسن علي بن عبدالله الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق: عبدالوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٩م، ط٢، ص١٧٢_١٧٣).

(٣) بلاد السوس: هي المنطقة الواقعة وراء جبال الأطلس إلى جهة الجنوب، المقابلة لبلاد حاحا، أي في أقصى المغرب، تبتدئ غربًا من المحيط، وتنتهي جنوبًا في رمال الصحراء. (انظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م، ط٢، ج١، ص١١٣). والسوس إقليم واسع خصب يتخلله واد عظيم يسمى وادي سوس، تكثر فيه المزارع والأشجار والنخيل، وبإقليم السوس مدن كبيرة؛ منها ترودانت قاعدة السوس، ينقسم هذا الإقليم إلى قسمين: السوس الأقصى؛ وهو الإقليم الواسع الذي يشمل الأطلس الكبير والصغير ويمتد جنوبا حتى رمال الصحراء. والسوس الأدنى: ويقع شمال السوس الأقصى حتى نهر أم الربيع. (انظر: أحمد مختار العبادي- محمد إبراهيم الكتاني، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤م، ص١).

(٤) لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عنان، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ١٩٧٤م، ج٤، ص٣٤٨_٣٤٩.

(٥) حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص١٣٠.

(٦) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٢٤٦٥.

ولقد تبوأت المرأة مكانة مرموقة في بلاد المغرب والأندلس منذ أن دخلها الإسلام، حيث أصبح للمرأة إسهامات واضحة في كثير من المجالات السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية، بالإضافة إلى وظيفتها الأولى وهي تربية النشء [(١)].

ويدرك من يتتبع تاريخ المرابطين تأثر وضع المرأة في بلاد المغرب والأندلس آنذاك بعدة عوامل وأسباب دينية واجتماعية، كان لها الأثر القوي على واقع المرأة آنذاك؛ حيث إن تلك العوامل كان لها تأثيرها الواضح على المرأة الأم والبنت والزوجة، منطلقة في ذلك من حقوقها الشرعية التي عززها كونُ تلك الدولة قامت على أسس دينية إصلاحية، وكان لبعض الأعراف والتقاليد الاجتماعية السائدة آنذاك أيضًا تأثيرها الواضح القوي[(٢)]،_كما سنرى ذلك_ .

ولقد أسهمت نساء المرابطين في مجالات عدة: سياسية، وعلمية، وأدبية، واجتماعية، فعندما نقف على اعمالها التي حاولت من خلالها ان تخدم دولتها بها، ولو كان ذلك على حساب نفسها ،فنحن نجد فانو بنت عمر[(٣)]؛ التي قاتلت الموحدين وقامت بدور عظيم في الدفاع عن الدولة المرابطية وقد أثارة شجاعتها إعجاب الموحدين[(٤)].

ومنهن كذلك زينب بنت إسحاق النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين؛ وهي ابنة تاجر كبير من القيروان، نشأت في جو متحضر فاكتسبت الدهاء والكياسة والحنكة؛ مما جعلها تتفوق على الرجال وتفرض شخصيتها ونفوذها في شؤون السياسة والحكم[(٥)]؛ التي كانت مستشارة اعظم سلاطين المرابطين يوسف بن تاشفين، فقد كان يأخذ بآرائها [(٦)].

---

(١) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٣٥٢.

(٢) البيذق: أبو بكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧١م، ص٢١_٢٢.

(٣) المصدر السابق: ص ٦٤.

(٤) ابن عذاري، ج ٤، ص٢٠.

(٥) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٧٠.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٩٩.

كما كانت ذات سلطات ادارية خولتها في عزل بعض فقهاء المرابطين، فقد ذُكِرَ أن القاضي أبا محمد عبد العزيز السوسي[١] قد امتحن على يديها وسيق إليها مكبلاً، وكان لها عزم وحزم، وكان القاضي له أدب فبلغ زينب أنه مدح حواء امرأة الأمير سير بن أبي بكر، وفضلها على سائر النساء بالجمال والكمال، فأمرت بعزله عن القضاء، فوصل إلى أغمات، واستأذن عليها فدخل الباب وأعلمها به خادمها، فقالت له: قل له امضِ إلى التي مدحتها تردك إلى القضاء[٢].

وبلغ من نفوذ بعض الأميرات المرابطيات أنْ قصدهن الشعراء للمدح، وتوجه إليهن الشعراء يلتمسون شفاعتهن؛ فقد كتب الشاعر ابن خفاجة[٣] إلى الأميرة مريم بنت الأمير أبي بكر [٤] قصيدة طويلة يتشفّع بها إلى زوجها الأمير أبي طاهر تميم.

---

(١) أبو محمد السوسي: هو عبدالعزيز التونسي الزاهد، أخذ عن أبي عمران الفاسي الفقيه، وأبي إسحاق التونسي وغيرهما، مال إلى الزهد والتقشف، سكن مالقة وغيرها من بلاد الأندلس، واستقر أخيرا بأغمات، ودرس الناس الفقة توفي بأغمات سنة ٤٨٦هـ. (انظر: ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبدالملك، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩م، ج٢، ص٥٤٩).

(٢) القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: سعيد أعراب، الرباط، ١٩٨٦م، ج٨، ص١٦٨.

(٣) ابن خفاجة: هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله بن خفاجة الجعواري الأندلسي، ولد سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، في بلدة جزيرة شقر من أعمال بلنسية إحدى عواصم الأندلس، عاش في أيام ملوك الطوائف إبان دولة المرابطين، شاعر غزل، من الكتاب البلغاء، غلب على شعره وصف الرياض والمناظر الطبيعية، توفي في بلدة شقر سنة (٥٣٣هـ/١١٣٨م).(انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج ١، ص١٦٥).

(٤) الأميرة مريم زوج الأمير أبي طاهر تميم، وكانت كثيرة الخير، وتحفظ جملة وافرة من الشعر، وتثيب عليه، ويذكر الشاعر اسمها في هذا البيت:

وكفى اجتماع مكانة وصيانة ... أني علقت بذمة من مريم

(انظر: ابن خفاجة أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح، ديوان ابن خفاجة الأندلسي، المطبعة الخاصة بجمعية المعارف، مصر، ١٣٨٦م، ص١١٤-١١٥)، بينما نجد أن ابن عبدالملك المراكشي يطلق عليها اسم زينب، وقد استشهد ابن عبدالملك بأربعة أبيات من قصيدة ابن خفاجة، على أنه في مدح من سماها زينب، والواضح أنه لم يقف على القصيدة بتمامها، كما أن الأبيات عنده غير متتابعة. (انظر: ابن عبدالملك المراكشي: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٤م،السفر الثامن، ق٢، ص٤٩٨)، كذلك ورد اسم مريم بنت إبراهيم مقترناً باسم السلطان أبي الطاهر بن تميم. =

أما النساء اللاتي كان لهن إسهام في المجالات العلمية والأدبية، برزت منهن فاطمة بنت الفقيه أبي علي الصدفي [1]؛ إذ كانت تحفظ القرآن، إلى جانب اهتمامها بمطالعة الكتب.

وكانت أم هاني[2] ذات شأن في حلقات العلم؛ فقد كانت من أهل الفهم والعقل، وأوردها المقري بكنية (أم الهناء) من غير اسم[3]، في حين أكد ابن عبدالملك المراكشي أن اسمها هو: أمة الرحمن، وكنيتها: أم هاني؛ معتمدًا في ذلك على ما وجده في تأليف لها في الأدعية وقف عليه بنفسه[4]، ولقد كانت أمة الرحمن- أو أم الهناء- مثال المرأة الأندلسية المرابطية المثقفة، حيث تميزت بالصلاح والعفة؛ فهي من بيت دين وعلم، وكانت صاحبة عقل راجح[6].

(انظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص٢٠١)، ويرجح أن اسمها مريم وليس زينب. (انظر: هامش المحقق ، محمد بن شريفة،رقم(١١٢٥)، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٩٨).

(١) فاطمة بنت أبي علي حسين بن محمد بن حيوة الصدفي ابن سكرة، كانت في مرسية، تركها أبوها حين خرج غازيًا إلى كتندة للغزوة التي استشهد بها، قد قاربت الفطام، وأوصى ألا يجمع عليها فقده وفطامها، نشأت صالحة زاهدة، تحفظ القرآن وتقوم عليه وتذكر كثيرا من الحديث في الأدعية وغيرها، كانت حسنة الخط. (انظر: ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٨٩).

(٢) أم هاني: هي أمة الرحمن بنت عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن غالب بن تمام بن عبدالرؤوف بن عبدالله بن تمام بن خالد بن خاف المحاربي، سكنت غرناطة، وقال فيها ابن الأبار: عندما ولي أبوها القضاء بالمرية دخل داره وعيناه تدمعان وجدا لمفارقة الأهل أنشدته ابنته أم الهناء متمثلة: يا عين صار الدمع عندك عادة تبكين في فرح وفي أحزان. (انظر: ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١٦٧)، أخذت عن أبيها وأخذ عنها، كانت من أهل الفهم والعقل، جيدة الخط، حاضرة النادرة سريعة التمثيل، كانت من المنجبات، تزوجت أبا علي الحسن بن محمد فولدت له أبا جعفر أحمد مصنف الجمل والتفصيل في تدبير الصحة في الإقامة، وخلفه عليها أبو عبدالرحمن محمد بن طاهر فولدت له أباجعفر عبدالحق. (انظر ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٧٧).

(٣) المقري: أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م ج٤، ص٢٩٢.

(٤) ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٧٧.

(٦) المصدر السابق: السفر الثامن،ق٢،ص٤٧٧.

وكذلك برزت طونة بنت عبدالعزيز(١) التي أخذت عن أبي عمر بن عبدالبر- حافظ المغرب والأندلس- كثيرًا من كتبه وتآليفه، وقرأت على يد أبي عمر المقرئ، وحضرت مجالسه(٢).

ومن عالمات الأندلس في ذلك العصر العروضية(٣) مولاة أبي المطرف عبدالرحمن الكاتب، وأخذت عن مولاها عبدالرحمن النحو واللغة، ولكنها فاقته في ذلك وبرعت في العروض، وكانت تحفظ الكامل للمبرد، والنوادر لأبي علي القالي، وتشرحهما(٤).

واشتهرت بعض النساء اللاتي تتلمذ عليهن طلبة العلم؛ فقد روى القاسم بن محمد بن سليمان الأنصاري الأوسي القرطبي(٥)، أنه أخذ عن أم العفاف نزهة بنت أبي الحسين سليمان اللخمي القراءات، وتلا عليها حفيدها محمد بن أحمد بن يحيى بن أبي القاسم سيد الناس(٦).

---

(١) طونة بنت عبدالعزيز بن موسى بن طاهر بن مناع، وتكنى بحبيبة، ولدت سنة ٤٣٧هـ، وهي زوج أبي القاسم بن مدير الخطيب المقرئ، أخذت عن أبي عمر بن عبدالبر، وسمع زوجها أبو القاسم بقراءتها عليه، كانت حسنة الخط، فاضلة، دينة، توفيت سنة ٥٠٦هـ. (انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج٢، ص٩٩٧).

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٩٩٦-٩٩٧.

(٣) العروضية: هي إشراق السويداء، سكنت بلنسية، أخذت عن مولاها أبي مطرف العربية واللغة والآداب أيام إقامته بقرطبة، ثم انتقلت بانتقاله عنها، وكانت قد فاقته في كثير مما أخذته عنه، وكان لها تقدم في العلم بالعروض وبالعروضية كانت تشتهر، توفيت بدانية عند أسماء بنت مجاهد زوج رئيس بلنسية. (انظر: ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٨٠).

(٤) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص١٧١.

(٥) القاسم بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان الأوسي القرطبي، روى عن جده لأمه أبي القاسم بن غالب الشراط، له من التصانيف ما ورد من الأمر في شرب الخمر، غرائب أخبار المسندين ومناقب آثار المهتدين، أخبار صلحاء الأندلس، خرج من قرطبة لما استولى عليها النصارى، ونزل بمالقة وولي خطابتها الى أن مات سنة ٦٤٢هـ. (انظر: ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، التكملة لكتاب الصلة، المطبعة الشرقية، الجزائر، ١٩١٩م، ق١، ص١٨٩).

(٦) محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن يحيى بن محمد بن أبي القاسم سيد الناس، يكنى أبا الفضل، إشبيلي، ولد سنة ٥٩٧هـ، سكن شريش مدة وبجاية، واستوطن آخر أيامه تونس، كان حافظا للقرآن، وكان ذا حظ من التفسير وراوية الحديث، توفي سنة ٦٥٩هـ. (انظر: ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق٢، ص٦٥٤-٦٥٥).

ومن الشاعرات في الأندلس في هذا العصر حمدة بنت زياد[١]، وعاصرت حمدةَ- أو قاربت عصرها- الشاعرةُ نزهون بنت القلاعي الغرناطية [٢]، وهي من شهيرات عصر المرابطين بالأندلس، حيث عرفت نزهون بنت القلاعي بخفة الروح وحفظ الشعر والمعرفة بضرب الأمثال، مع جمال فائق[٣]، كما كانت لها مساجلات مع الشاعر الوشاح ابن قُزْمَان[٤] شاعر عصر المرابطين.

وأسهمت المرأة في المغرب والأندلس أيضًا في الحياة العلمية؛ حيث برز بعضهن في هذا الميدان، فشد الرجال إليهن الرحال لحضور حلقاتهن العلمية، وقد بلغت الحرة حواء بنت تاشفين[٥] مكانة عالية بين نساء جيلها، وكانت أديبة شاعرة جليلة ماهرة، وكانت ذات نباهة، واشتهرت كذلك بالصلاح والإنفاق على الفقراء[٦]، وأشار ابن رشد الجد إلى أنها ساعدت في إصلاح مسجد بلنسية[٧].

---

(١) حمدة بنت زياد بن بقي العوفي (ت ق ٦هـ) المؤدب من أهل وادي آش، روى عنها أبو القاسم محمد بن علي بن البراق، وهي إحدى المتأدبات المتصرفات المتعففات. (انظر: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٤٨٩).

(٢) نزهون: هي نزهة بنت القليعي أبي بكر محمد بن أحمد بن خلف بن عبدالملك بن غالب الغساني، غرناطية، كانت أديبة، شاعرة، سريعة الجواب، صاحبة فكاهة ودعابة، أخذت عن أبي بكر المخزومي الأعمى. (انظر: ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٩٣).

عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٩٣).

(٣) جلال الدين السيوطي: عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضري السيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٨٤-٨٥.

(٤) ابن قزمان: أبو بكر محمد بن عيسى بن عبدالملك بن عيسى بن قزمان، ولد سنة ٤٨٠هـ، إمام الزجالين بالأندلس، كان أول شأنه مشتغلاً بالنظم المعرب، فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره، كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم، فصار إمام أهل الزجل المنظوم، بكلام عامة الأندلس، توفي سنة٥٥٥هـ. (انظر: ابن سعيد الأندلسي علي بن موسى بن محمد بن عبدالملك الغرناطي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م، ط٤، ج١، ص١٠٠).

(٥) الحرة حواء: هي بنت أخي يوسف بن تاشفين أمير المسلمين لأمه، وزوج الأمير سير بن أبي بكر الذي كان له فضل في تمهيد الأندلس للمرابطين، وكانت هذه الحرة حواء أديبة شاعرة جليلة ماهرة ذات نباهة، كان لها مجلس للكتبة والشعراء تحاضرهم فيه وتستمع إلى أحاديثهم في الشعر وتنتقد عليهم ومن أعلام هذا المجلس مالك بن وهب وابن القصير وابن المرخي. (انظر: ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٩٧).

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٥٦-٥٧.

(٧) ابن رشد الجد: محمد بن أحمد بن أحمد بن محمد بن رشد، مسائل أبي الوليد ابن رشد الجد، تحقيق محمد الحبيب، =

وكانت تميمة بنت يوسف[1] راجحة العقل ، وتحفظ الشعر، وتجيده، وتتخذ الكتاب وتحاسبهم[2].

أهمية الموضوع:

تأتي أهمية هذا الموضوع من أهمية تاريخ بلاد المغرب والأندلس إبان حكم دولة المرابطين؛ إذ يعد حلقة مهمة في سلسلة التاريخ الإسلامي، حيث إن تلك الدولة وحدت بلاد المغرب والأندلس تحت مظلة دولة إسلامية واحدة.

وكانت لها عطاءات كثيرة في الميادين الحضارية، ولعل من تلك العطاءات مساهمة المرأة في بناء المجتمع والدولة آنذاك، حيث كان لها إسهامات متعددة في النواحي الإدارية والسياسية والعلمية والاجتماعية وغيرها.

ويدرك من يستقرئ تاريخ المرابطين أن المرأة المغربية والأندلسية وجهودها المتعددة شكلت حيزًا مهمًّا في تاريخ المغرب والأندلس آنذاك.

الحدود الزمانية والمكانية لهذه الدراسة:

إن الحدود الزمانية لدراسة المرأة في المغرب والأندلس مرتبطة بالعصر المرابطي زمانيًّا في المدة (٤٥٣-٥٤١هـ/١٠٦١-١١٤٦م)، وستلتزم الباحثة بذلك، مع ملاحظة أن الموضوعات الحضارية- ومنها المرأة- ليست كالحوادث التاريخية: لها بداية ونهاية تلتزم فيها بتوقيت محدد قاطع، فنحن نجد أن المرأة في عصر المرابطين عاصرت ملوك الطوائف، كما شهدت أيضًا قيام دولة الموحدين.

دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م، ج١، ص١٢٢.

(١) تميمة بنت يوسف بن تاشفين، أخت علي بن يوسف، تكنى أم طلحة، كانت كاملة الحسن، راجحة العقل، مشهورة بالأدب والكرم، سكنت مدينة فاس. (انظر: ابن القاضي: أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي الفاسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٣م، ج١، ص ١٧٣-١٧٤).

(٢) المصدر السابق: ج١، ١٧٣-١٧٤.

أما الحدود المكانية لهذه الدراسة فسوف تشمل ما حكمته دولة المرابطين من بلاد المغرب والأندلس،، من تونس شرقًا إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) غربًا، وفيما بين نهر التاجة في قلب الأندلس شمالاً حتى جنوبي بلاد المغرب[1].

وفي ختام هذا التعريف بالموضوع وأهميته، فإن الباحثة تأمل أن تجيب هذه الدراسة على بعض الأسئلة؛ ومنها:

- ما العوامل المؤثرة على نشاط المرأة المرابطية في المغرب والأندلس؟
- ما أنماط حياة المرأة المرابطية الاجتماعية في ظل دولة المرابطين؟
- ما الأدوار التي أدتها المرأة المرابطية على الصعيد السياسي للدولة؟ وهل صحيح أنها كانت سببًا رئيسيًّا في سقوط دولة المرابطين؟
- ما البصمة التي تركتها المرأة في مجال العلوم والأدب؟
- ما الأعمال والأنشطة التي مارستها المرأة في عصرها ومردودها الحضاري؟

أسباب اختيار الموضوع:

١) أن المرأة في المجتمع الإسلامي حظيت بمكانة وتقدير، كما أن لها حقوقًا وعليها واجبات حفظها لها الشرع الحنيف، والمرأة في ظل دولة المرابطين تمتعت بتلك المكانة، ومما ساعدها على ذلك قيام تلك الدولة على أسس دينية، وهذا مما جعلها تشغل حيزًا مهمًّا من تاريخ المرابطين؛ وهذه المكانة التي وصلت إليها ينبغي إبرازها في دراسة علمية مستقلة.

٢) كون دولة المرابطين ضمت مجتمعات متباينة من حيث تأثير الدين، والمجتمع، والبيئة؛ إذ عاشت المرأة المرابطية متأثرة بتلك المؤثرات الدينية والاجتماعية.

٣) أن واقع المرأة في ظل حكم المرابطين قد اعتراه التشويه، كما ألصقت به بعض التهم من قبل بعض المؤرخين، وسوف تحاول هذه الدراسة- إن شاء الله- بحث حقيقة هذه التهم ومعرفة الواقع الصحيح وإثباته في ثناياها.

---

(١) محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول، عصر المرابطين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٥٥.

٤) أن هذا الموضوع لم يفرد من قبل الباحثين- حسب علم الباحثة- بدراسة علمية مستقلة، بل جاء الحديث عنه في ثنايا كتابات بعض الكتاب ولم يحظ بدراسة مستقلة.

أهداف الدراسة:

١) دراسة التقاليد المتعلقة بالمرأة في المغرب والأندلس في عصر المرابطين.

٢) إبراز مكانة المرأة الاجتماعية وجهودها في هذا الميدان في عصر المرابطين بالمغرب والأندلس.

٣) الكشف عن جهود المرأة في عهد المرابطين في الميادين السياسية والإدارية.

٤) معرفة مكانة المرأة العلمية وإسهاماتها في هذا المجال.

٥) الكشف عن أثر المرأة في الحياة الاقتصادية.

منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على تطبيق قواعد منهج البحث التاريخي في جميع مراحل البحث، بدءًا من جمع المادة العلمية من المصادر والمراجع بجميع أنواعها، ثم تبويبها، وتصنيفها على فصول الرسالة ومباحثها، حسب الخطة المعتمدة.

ثم تأتي مرحلة دراسة النصوص التي يتم جمعها وتطبيق النقد التاريخي عليها، ومقارنة الروايات التاريخية بعضها ببعض، والترجيح بينها، واختيار الرواية الأصح في حالة التعارض.

ثم تأتي المرحلة الأخيرة؛ وهي مرحلة صياغة البحث بأسلوب علمي صحيح وبلغة سليمة، مع تطبيق مصطلحات الكتابة، والاهتمام بالتوثيق، وشرح المصطلحات، والتعريف بالأماكن والأعلام في حواشي البحث.

الدراسات السابقة:

توجهت أنظار كثير من طلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ إلى تسجيل موضوعاتهم في الجوانب الحضارية من التاريخ الإسلامي على مختلف العصور عمومًا، لكن عندما نقف على المواضيع الحضارية في دولة المرابطين خاصة نجدها أقل من غيرها بسبب تشتتها في مصادر كثيرة.

وقد شد انتباهي عدم التطرق لدراسة أحوال المرأة المرابطية مع أنها كانت تمثل فئة اجتماعية لا يستهان بها في ذلك العصر.

وبعد الاطلاع على قاعدة معلومات الرسائل الجامعية، والاتصال ببعض الأساتذة المختصين، وعدد من الجامعات للاستفسار عن الموضوع، تبين أن الموضوع لم يدرس دراسة علمية مستقلة إلى الآن، وكل ما سبق من دراسات عبارة عن بحوث موجزة، أو دراسات تصب في قالب أدبي فقط.

أما أهم تلك الدراسات فهي:

١- (**دور المرأة العربية الأندلسية في الحياة العامة من الفتح حتى نهاية الخلافة الأموية**) للباحثة/ فائزة حمزة عباس؛ وهي في الأصل رسالة ماجستير من جامعة الموصل، كلية الآداب، ١٩٨٩م.

٢- (**دور المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى نهاية الدولة الأموية**) للباحثة/ راوية عبدالحميد حسنين شافع؛ وهي في الأصل رسالة ماجستير، من جامعة الإسكندرية، كلية الآداب قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية، ١٩٩٥م.

وهاتان الرسالتان تحدثتا عن مدة زمنية تسبق موضوع بحثنا بنحو قرن من الزمان، اختلفت فيه أوضاع المرأة عما كانت عليه في عصر الخلافة الأموية، وهي أيضًا خاصة بالمرأة بالأندلس بينما يعالج موضوعنا المرأة بالمغرب والأندلس.

٣- (**المرأة في تاريخ الأندلس**) للدكتورة/ عائدة خالد؛ وهي في الأصل رسالة دكتوراه من جامعة بيروت، وتشمل الدراسة ثلاثة أبواب:

الباب الأول: دور المرأة في المجتمع الأندلسي.

الباب الثاني: دور المرأة في الحياة السياسية.

الباب الثالث: دور المرأة في الحياة الأدبية والعلمية والفنية.

وهي دراسة عامة عن المرأة بالأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الأندلس؛ أي تتحدث عن نحو ثمانية قرون، بينما تتناول دراستنا المرأة في الأندلس في عصر المرابطين؛ أي: أن إطارنا الزمني في الأندلس يمتد من ٤٧٩هـ إلى ٥٤١هـ.

ودراستنا تعنى بالمرأة في المغرب إلى جانب الأندلس؛ مما يتبين أنه يوجد اختلاف واضح بين تلك الدراسة ودراستنا.

٤- كتاب (المغرب والأندلس في عصر المرابطين)، تأليف: الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش، جامعة مكناسة؛ ويتناول هذا الكتاب الأسرة في عصر المرابطين، وجاء حديثه عن المرأة مختصرًا؛ حيث لم يتحدث عنها إلا بإشارات مقتضبة في ثنايا حديثه عن الزواج وتربية الأطفال والمهر؛ لذا فليس بين موضوعنا وهذا الكتاب أيّ تشابه.

٥- كتاب (الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس.. عصر المرابطين والموحدين): تأليف: الدكتور حسن علي حسن، جامعة القاهرة، ويتناول هذا الكتاب الحضارة الإسلامية في عصري المرابطين والموحدين، وقد كان نصيب المرأة منه لا يتجاوز عشر صفحات، حيث ركز على كثير من الجوانب السياسية والحضارية في عصري المرابطين والموحدين، ولم يعط المرأة حقها في الدراسة في هذين العصرين.

التعريف بأهم المصادر:

لا شك أن لكل عمل علمي طبيعته التي تفرضها وجهتُهُ الدراسية وميدان العمل؛ لذا فإن لكل موضوع مصادر ومنابع معينة ومحددة تمليها طبيعة ذلك الموضوع، وموضوع دراسة الجوانب الحضارية عمومًا يفرض على الباحث أن يلتقي بالكثير من المصادر المتخصصة في التاريخ والسياسية والاقتصاد والاجتماع وجميع العلوم المختلفة، والكتابة عن المرأة المرابطية في المغرب والأندلس تتطلب جهدًا كبيرًا؛ إذ لابد من الرجوع إلى عدد كبير من المصادر الأصلية لفترة البحث، إضافة لذلك فإن هذه المصادر لم يكن تركيزها على شيء يخص موضوع المرأة، إنما كان مجمل الحديث منصبًا على رجال ذلك العصر، ولم تكن المرأة قد خصت لها مؤلفات من مؤرخي تلك الفترة.

ومن المصادر التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة:

كتب التاريخ العام والمحلي:

كان للمصادر التاريخية الأثر الأعظم في بناء هذه الدراسة، فمن خلالها استطعنا أن نقف على أخبار النساء في عصر المرابطين، والتي جاءت مقتضبة في كتب التراجم وغيرها من المصادر.

فمن المصادر التي أفادتنا: كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لعبدالواحد المراكشي (ت٦٤٧هـ/١٢٤٩م)، وكتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين" لأبي بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيذق (عاش في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، وكذلك اعتمدت في أغلب فصول الرسالة على كتاب "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذاري المراكشي (ت حوالي٧١٢هـ/١٣١٢م) في القسم الخاص بالمرابطين وهو الجزء الرابع، وكتاب "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" لابن أبي زرع (ت٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)، وكتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" لابن الخطيب الأندلسي (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)،وكتاب "أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام" لابن الخطيب الأندلسي، بقسميه: الثاني المختص بتاريخ الأندلس، والثالث المتعلق بتاريخ المغرب، وكتاب "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" لمؤلف مجهول (عاش في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، وكذلك كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" لابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)،وكتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب" لشهاب الدين المقري (ت١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)،وغيرها من المصادر التاريخية التي اعتمدت عليها في فصول الرسالة.

كتب التراجم والطبقات:

أفادت كتب التراجم والطبقات هذه الدراسة في عدة جوانب، خاصة أنها متخصصة في جمع الأخبار عن مسيرة حياة الأفراد، فاستفادت منها الدراسة في محاولة استقراء بعض ما يخص المرأة المرابطية؛ كالتعليم والتدريس.

ومنها: كتاب "المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي" لابن الأبار (ت٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م)، وكتاب "الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة" لابن عبدالملك المراكشي (ت٧٠٣هـ/١٣٠٣م) الذي طبعت أكثر أسفاره حتى الآن، وقد أثرى البحث كثيرًا فقد تميز بذكر جملة من النساء اللائي عشن في ذلك العصر، وعرض لبعض إسهاماتهن الفكرية.

المصادر الأدبية:

منها كتاب "قلائد العقيان ومحاسن الأعيان" لابن خاقان (٥٢٩هـ/١١٣٥م)، ورسائل ابن الخصال (ت٥٤٠هـ/ ١١٤٦م)، وكتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م)،وكتاب "المُغرب في حلى المَغرب" لابن سعيد (ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، وكذلك اعتمدت على بعض الدواوين الشعرية؛ مثل "ديوان ابن خفاجة الأندلسي" لأبي إسحاق إبراهيم بن خفاجة (ت٥٣٣هـ/ ١١٣٨م).

المصادر الفقهية:

لقد اعتمدت الدراسة على مصادر فقهية مختلفة تنوعت بين كتب النوازل والحسبة؛ وأهمها:

أ) كتب النوازل أو الأحكام أو المسائل أو الفتاوى:

وهي أهم القضايا والوقائع التي يفصل فيها القضاة وفقًا للشريعة الإسلامية، وبإمكان الباحث أن يستفيد منها؛ لما تحويه من معلومات مهمة عن جوانب الحياة الاجتماعية؛ وتبعًا لذلك فقد استفادت منها الدراسة بقراءة نص النازلة وأخذ الشاهد؛ ومن أهم هذه المصادر: كتاب "ديوان الأحكام الكبرى" أو "الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام" لعيسى ابن سهل الأسدي (ت٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م)[1]، و"فتاوى ابن رشد الجد" (ت٥٢٠هـ/ ١١٢٦م)[2]

---

[1] ابن سهل: عيسى بن سهل بن عبدالله الأسدي، يكنى أبا الأصبغ، ولد بجيان ٤١٣هـ، قصد ابن سهل غرناطة وقرطبة من أجل طلب العلم، كما جاز البحر إلى سبتة سنة ٤٧٠هـ، حيث درس الفقه فيها، ويعد ابن سهل من جلة الفقهاء وكبار العلماء، حافظا للرأي ذاكرا للمسائل، عارفا بالنوازل، بدأ تأليف كتابه "ديوان الأحكام الكبرى" سنة ٤٧٢هـ، وانتهى منه وهو بسبتة سنة ٤٧٩هـ، كما عاد إلى الأندلس سنة ٤٨١هـ، بصحبة جيوش المرابطين، لمحاربة النصارى المعتصمين بحصن لييط، عينه يوسف بن تاشفين على قضاء غرناطة، توفي سنة ٤٨٦هـ. (انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج٢، ص٦٣٥).

[2] ابن رشد الجد: محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد المالكي، قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة بالمسجد الجامع، يكنى أبا الوليد، ولد سنة ٤٥٠هـ، كان فقيها، عالما، حافظا للفقه، مقدما فيه على جميع أهل عصره، عارفًا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه، بصيرا بأقوالهم واتفاقهم، واختلافهم، من أهل الرياسة في العلم والبراعة، والفهم مع الدين، من تواليفة: كتاب المقدمات لأوائل كتب المدونة، كتاب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه، والتعليل، إلى غير ذلك من تواليفه، تقلد قضاء قرطبة، وسار فيه بأحسن سيرة، وأقوم طريقة، ثم استعفى عنه فأعفي، توفي سنة ٥٢٠هـ. (انظر: المصدر السابق: ج٣، ص٨٣٩-٨٤٠).

،وكتاب "مذهب الحكام في نوازل الأحكام" للقاضي عياض السبتي (ت٥٤٤هـ/١١٤٩)[١].

كذلك حاولت أن أسُدّ نقص غيب نوازل ابن الحاج القرطبي (ت ٥٢٩هـ/١١٣٤م)[٢]؛ نظرًا لعدم توافره مطبوعًا؛ وذلك بالرجوع إلى كتاب "جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام" للبرزلي أبي القاسم بن أحمد البلوي (ت٨٤١هـ/ ١٤٣٨م)[٣] ، ورجعت أيضًا إلى كتاب "المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب" للونشريسي (ت ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)[٤] الذي حوى كثيرًا من فتاوى علماء عصر دراستنا[٥].

---

(١) القاضي عياض: أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، من أهل سبتة، قدم الأندلس طالبا للعلم، وعني بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم، وجمع من الحديث كثيرا، وله عنايه كثيرة به، وهو من أهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهم، واستقضى ببلدة مدة طويلة، حمدت سيرته فيها، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة، فلم يطل أمده بها، توفي بمراكش، سنة ٥٤٤هـ. (انظر: المصدر السابق: ج٢، ص٦٦٠_٦٦١).

(٢) ابن الحاج: أبو عبدالله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم بن لب التجيبي، ولد سنة ٤٥٨هـ، قاضي الجماعة بقرطبة، كان من جلة الفقهاء، وكبار العلماء، تقلد القضاء بقرطبة مرتين، وكان له مجلس بالمسجد الجامع بقرطبة يسمع الناس فيه، تميزت فتاواه "نوازل الأحكام أو الفصول المقتضبة من الأحكام المنتخبة" بالتنوع، فضلا عن معاصرته لكبار العلماء كابن رشد، قتل ظلما بالمسجد الجامع بقرطبة يوم الجمعة، وهو ساجد، سنة ٥٢٩هـ. (انظر: المصدر السابق: ج٣، ص٨٤٤_٨٤٥).

(٣) يعتبر كتاب "جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام"- المعروف بفتاوى البرزلي، لصاحبه الإمام والفقية أبي القاسم بن أحمد (ت٨٤١هـ)- من كتب الفتاوى غزيرة الفائدة، ظل مصدرا من المصادر المعتمدة للكثير من كتب الفقة والفتاوى، وهي مسائل اختصرها كما صرح بذلك في مقدمته من نوازل ابن رشد، وابن الحاج، وغيرهم من فقهاء المذهب المالكي، مع حرصه الشديد على ذكر المصادر التي نقل منها بأسلوب رصين ويقع الكتاب في سبعة أجزاء.

(٤) الونشريسي: هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني، ولد بجبال ونشريس سنة ٨٣٤هـ، نشأ بمدينة تلمسان، حيث درس على يد مجموعة من العلماء، ويعد كتابه "المعيار المعرب" من أشهر كتب المالكية، طبع في ثلاثة عشر جزءا، ويذكر المؤلف في بداية الكتاب أنه جمع في كتابه أجوبة المتأخرين والمعاصرين من علماء إفريقية والأندلس، توفي بتلمسان، سنة ٩١٤هـ. (انظر: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ج١، ص٢٧٤).

(٥) رغم تأخر الونشريسي عن فترة البحث تكمن أهمية العودة إليه لاعتماده في فتاويه على بعض المفتين الذين عاصروا الحقبة المرابطية؛ كابن سهل، وابن الحاج، وابن رشد، وغيرهم.

ب) كتب الحسبة:

وهي مجموعة ما طبقه المحتسبون في المجتمع ودونوه في كتب مختلفة؛ وفيها إشارات كثيرة عن جوانب الحياة الاجتماعية لذلك العصر؛ وأهمها: كتاب "رسالة في القضاء والحسبة" لمحمد بن أحمد بن عبدالله التجيبي المعروف بابن عبدون (من أهل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي).

المعاجم الجغرافية والرحلات:

أفادتنا كتب الجغرافيا بمعلومات عما ورد في الدراسة من أماكن مست الحاجة للتعريف بها وتحديد مواقعها؛ منها: كتاب "المسالك والممالك" للبكري (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، وكتاب "صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس" مأخوذ من كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للشريف الإدريسي (توفي نحو ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)، وكتاب "صفة جزيرة الأندلس"، منتخب من كتاب "الروض المعطار في خبر الأقطار" للحميري (توفي نحو ٧٢٧هـ/١٣٢٦م).

فصول الرسالة:

سرت في هذا البحث وفق خطة اقتضتها طبيعة الدراسة؛ فجاءت مقسمة إلى خمسة فصول مسبوقة بتمهيد، متبوعة بخاتمة، ثم ملاحق البحث:

فأما **التمهيد** فكان أشبه بالعتبة التي سألج منها إلى محاور البحث، وكان الحديث فيه عن التطور السياسي للدولة المرابطية في الأندلس، وقد سلطت الضوء على الجانب السياسي الذي شهدته بلاد الأندلس في عصر المرابطين، وأبرز الصراعات التي حدثت في تلك الفترة، وبدون هذا التعريف المختصر تبقى خلفيات كثيرة من الأحداث والقضايا التي أثرت على المرأة غير واضحة من جهة، ومن جهة أخرى فهي تعطي صورة عما كان يمر به المجتمع الأندلسي في عصر المرابطين.

وبعد التمهيد شرعت في فصول الرسالة الخمسة:

فكان **الفصل الأول** خاصًّا بالعوامل المؤثرة في نشاط المرأة في المغرب والأندلس، واقتضت المنهجية تقسيم هذا الفصل إلى خمسة مباحث؛ وهي: الدين، وثقافة المرأة، والقرب من رجال الدولة، والأعراف والتقاليد، وأثر المجتمعات المجاورة.

أما **الفصل الثاني** فقد تناولت فيه التقاليد المتعلقة بالمرأة في المغرب والأندلس في عصر المرابطين، واقتضت الدقة في هذا الفصل تقسيمه إلى خمسة مباحث؛ أولها: فئات النساء، وقد ضمنت هذا المبحث الحديث عن نساء الخاصة، ونساء الحاضرة، ونساء البادية، والجواري، والنساء غير المسلمات. أما المبحث الثاني فقد كان عن عادات الزواج، في حين جاء البحث الثالث عن اللباس والزينة، وكان المبحث الرابع عن انتساب الرجال إلى أمهاتهم، والمبحث الخامس عن مشكلات المرأة الاجتماعية.

وجاء **الفصل الثالث** خاصًّا بدراسة أثر المرأة في الحياة السياسية والإدارية، وقد تضمن ثلاثة مباحث؛ هي: مشاركة المرأة السياسية، ومشاركة المرأة الإدارية، ومشاركة المرأة في الجهاد.

أما **الفصل الرابع** فقد كان مختصًّا بدراسة أثر المرأة في الحياة العلمية والأدبية، وقد تضمن أربعة مباحث؛ هي: جهود المرأة في طلب العلم، وجهودها في التدريس، وجهودها في الرواية والتأليف، ومشاركة المرأة في الجانب الأدبي.

واختص **الفصل الخامس** بدراسة أثر المرأة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، حيث قسمت الفصل إلى مبحثين اثنين؛ أولهما: كان عن مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية، ويتركز الحديث فيه عن ثلاثة أمور؛ هي: مكانة المرأة الاجتماعية عند السلاطين والحكام، وجهودها في النشاط الاجتماعي والعمل الخيري، ومشاركتها في الحياة العامة.

وفي المبحث الثاني من هذا الفصل ألقيت الضوء على مشاركة المرأة في الحياة الاقتصادية، ويتركز الحديث فيه عن ثلاثة أمور؛ هي: مشاركتها في التجارة، ومشاركتها في الزراعة، ومشاركتها في الحرف والصناعة.

ثم جاءت **الخاتمة** لخصت فيها أبرز النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة.

وذيلت البحث بعدد من **الملاحق والخرائط** التي أرى أنها تخدم الموضوع.

ثم ختمت البحث بفهرس للمصادر والمراجع، وأخيرًا بفهرس للموضوعات.

وكان من **أبرز الصعوبات** التي واجهتها خلال البحث، والتي- بحمدلله- لم تقف عائقًا أمام هذه الدراسة: ندرة المصادر التي تكلمت عن المرأة بحد ذاتها، وتبعثر المعلومات المتعلقة عنها بين نصوص المصادر، وهو ما يتطلب بذل مجهود كبير لجمعها وصياغتها.

وقد حاولت بذل قصارى جهدي في استقراء وتكوين صورة لكل ما يخص المرأة المرابطية في المغرب والأندلس، من خلال ما توافر لدي من مادة علمية، وأتمنى أن أكون قد وفقت في إعطاء صورة واضحة للمرأة في ذلك العصر.

وبعد.. فلم يكن لهذا العمل أن يرى النور لولا فضل الله تعالى وتوفيقه، ثم جهود من قام بمساندتي؛ فقد كان هؤلاء كالنور الذي أضاء طريقي طول فترة الدراسة، بما قدموه لي من دعم؛ وعلى رأسهم والداي أمد الله في عمريهما، وزوجي حفظه الله، كما أشكر سعادة الأستاذ الدكتور حمد بن صالح السحيباني المشرف على هذه الرسالة بما قدمه لي من توجيه وإشراف؛ فقد كان كالسراج الذي أضاء لي الطريق ليقودني منذ البداية موجهًا ومشرفًا على هذا البحث، وأتوجه بجزيل الشكر إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلة بكلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ والحضارة.

وقد كانت هذه الدراسة جهد المقل، واجتهاد من يُتوقع خطؤه قبل صوابه، فأسأل الله أن أكون وُفقت فيها، لتكون بذلك هدية متواضعة أقدمها لكل امرأة مسلمة شعرت في لحظة من اللحظات أن المرأة في المجتمع الإسلامي كانت مهمشة، ليس لها حظ من المشاركة في جميع نواحي الحياة، حيث وضعتْها هذه الدراسة أمام تجربة ناجحة.. متوجةً ذلك كله بشكر الله أولًا وآخرًا على عونه وتوفيقه، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد
التطور السياسي لدولة المرابطية في الأندلس

بعد تولي يوسف بن تاشفين زمام الأمر لدولة المرابطين أخذ على عاتقه توحيد بلاد المغرب الممزقة وإعادة القبائل في المغرب للإسلام الحق. وفي هذه الفترة كانت دولة الإسلام في الأندلس تمر بمرحلة دقيقة وخطرة على وجودها؛ إذ أصابها ما أصاب بلاد المغرب من التشرذم والتفرق، ولكن بصورة أكبر وأخطر، وهذه المرحلة المعروفة تاريخيًّا بعصر ملوك الطوائف(1)، والتي تحولت فيها دولة الإسلام في الأندلس لعدة دويلات صغيرة، على رأس كل دويلة منها أسرة حاكمة يتوارث أبناؤها الحكم والرياسة(2)، وكانت السمة الغالبة لملوك الطوائف

---

(١) "اصطلح المؤرخون على تسمية هذا العصر بعصر ملوك الطوائف؛ كابن عذاري في البيان المغرب، (ج٣، ص٢١٩)، ولسان الدين ابن الخطيب: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد في أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من كلام، (تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٨٧م، القسم الثاني، ص٢٢٤)، كما أطلق عليه بعض المؤرخين (عصر الفتنة)؛ كابن بسام: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، (تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م، ق٣، ج١، ص٢٥)، وابن عذاري في البيان المغرب، (ج٣، ص١٩٤)، وابن بلقين الأمير عبدالله بن بلقين بن زيري، التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة المعروف بمذكرات الأمير عبدالله، (تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، ١٩٩٨م، ص٥٦-٥٨)، و(عصر الفرق) كابن الكردبوس: أبو مروان عبدالملك بن الكردبوس التوزري، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، (تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٧١م، ص٧٨)". (انظر: الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم عصر ملوك الطوائف أنموذجًا (دراسة تاريخية تحليلية)، الدكتور حمد بن صالح السحيباني، الرياض، ٢٠٠٢م، ص٤٧).

(٢) بلغ عدد هذه الدول زهاء ثلاث وعشرين دولة منها:

١) منطقة قرطبة، ويحكمها بنو جهور (٤٢٢-٤٦٠هـ/١٠٣٠-١٠٦٨م).

٢) منطقة طليطلة، ويحكمها بنو ذي النون (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٧٥م).

٣) منطقة إشبيلية، ويحكمها بنو عباد (٤١٤-٤٨٤هـ/١٠٢٣-١٠٩١م).

٤) منطقة غرناطة، ويحكمها بنو زيري (٤٠٣-٤٨٣هـ/١٠١٢-١٠٩٠م).

٥) منطقة بلنسية، ويحكمها العامريون (٤١٢-٤٧٨هـ/١٠٢١-١٠٨٥م).

٦) منطقة سرقسطة، ويحكمها بنو هود (٤١٠-٥٣٦هـ/١٠١٩-١١٤١م).

=

هي ضعف الوازع الديني والانغماس في الترف والفساد(١)، إضافة إلى ذلك كثرة الخلافات بين ملوكهم؛ مما أدى لكثرة القتال الداخلي بينهم(٢)؛ وهذا أدى بدوره إلى نتيجة في غاية الخطورة؛ وهي تسلط النصارى على مسلمي الأندلس، واتساع رقعتهم على حساب دولة الإسلام هناك؛ مما دفع ملوك الطوائف إلى تقديم الأموال للفونسو السادس(٣) الذي كان يخطط لاسترداد الأندلس من المسلمين(٤)، وقد حقق الفونسو السادس قفزة كبيرة في مشروعه عندما استولى على مدينة طليطلة؛ وذلك سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م(٥)، وعندها توجهت القلوب والأنظار كلها نحو المغرب حيث كانت دولة المرابطين.

فقد استغاث أهل الأندلس وملوكها أيضًا بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي أرعبته الأخبار القادمة من هناك عن وضع الإسلام وتسلط النصارى على المسلمين، فجمع يوسف الفقهاء ومشايخ المرابطين واستشارهم في ذلك، فأجابوه جميعًا بوجوب نصرة المسلمين(٦)،

---

٧) منطقة بطليوس، ويحكمها بنو الأفطس (٤٢١-٤٨٧هـ/١٠٣٠-١٠٩٤م).

بالإضافة إلى هذه الدول الرئيسة فقد كان هناك الكثير من المدن والأقاليم التي أعلنت استقلالها. (انظر: المرجع السابق: ص١٠-١١).

(١) ابن بلقين، التبيان، ص١١٦.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٤٤.

(٣) ألفونسو السادس: حكم بين سنتي (١٠٦٥-١١٠٩م) عاصر هذا الملك عهد الطوائف وبداية عصر المرابطين، استطاع أن يدفع بالخطر النصراني ضد المسلمين حينما احتل مدينة طليطلة سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م).(انظر: محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس دول الطوائف، ص٨٧-٩٠).

(٤) "سميت بحرب الاسترداد؛ لأنها تهدف إلى استرداد الأندلس من المسلمين، وقد بدأت هذه الحرب مع بداية ضعف الأندلس، فقد انحسر المد الإسلامي عن جنوبي فرنسا وتراجع إلى ما وراء البرتات لشبه جزيرة أيبيريا، وكانت هذه الحرب تشتد حينًا وتخمد حينًا آخر حسب الظروف السياسية للأندلس المسلمة، وفي القرن الحادي عشر دخلت حرب الاسترداد في دور جديد من أدوارها على يد الملك سانشو، فقد وحد الدويلات النصرانية عن طريق المصاهرة، وبدأ يشن الحرب بقوة وتنظيم، ويعتبر بحق باعث حرب الاسترداد التي استمرت قوية على يد ابنه فرديناند حتى وفاته(٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م)، وتعثرت بعد وفاته بسبب انقسام دولته بين أبنائه، ولكن قويت مع ابنه ألفونسو السادس". (انظر: سعدون عباس، دولة المرابطين في المغرب والأندلس (عهد يوسف بن تاشفين)، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٨م، ص٥٩-٦٠).

(٥) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص٨٤.

(٦) مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامة، ط١، دار الرشاد الحديثة، =

وبالفعل عبر يوسف بن تاشفين بجيوشه البحر متجهة إلى الأندلس من أجل إنقاذ المسلمين.

وفي يوم ١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ[1]، كانت بلاد الأندلس تنتظر حدثاً في غاية الاهمية ؛ هي معركة الزلاقة[2]؛ فقد كانت واحدة من اعظم المعارك الحاسمة بين الإسلام والنصرانية، المسلمون من أندلسيين ومغاربة تحت قيادة يوسف بن تاشفين، والنصارى تحت قيادة ألفونسو السادس، وكانت معركة قاسية، ثبت كلا الفريقين في القتال، لكن انتهت المعركة بنصر خالد للمسلمين على النصارى، وذلك كله بفضل الله عز وجل، ثم القيادة البارعة الحكيمة ليوسف بن تاشفين.

وبعد أن قام يوسف بن تاشفين بمهمته العظيمة في نجدة المسلمين بالأندلس عاد إلى بلاده، ولكنه ما لبث أن جاءته رسائل استغاثة من أهل الأندلس خاصة من أهل بلنسية ومرسية ولورقة الذين وقعوا تحت تهديد النصارى، وعلم المسلمون بالأندلس أنه لا ناصر لهم ولا منقذ لهم بعد الله عز وجل إلا يوسف بن تاشفين، فأرسلوا إليه يستصرخونه لنصرتهم، وهم يعلمون أنه لن يتخلف أبدًا عن نجدتهم[3] .

الرباط، ١٩٧٩م، ص٣٢.

(١) تباينت الروايات التاريخية في تحديد تاريخ موقعة الزلاقة، فيقول ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م، ج٢، ص٤٨٤): إنها كانت يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٤٧٩هـ، ويتفق ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٤٤٥، معه في السنة ولكنه يقول: إنها كانت في أوائل رمضان، ويقول المراكشي (محيي الدين أبو محمد عبدالواحد بن علي التميمي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٨م، ص٩٣): إنها كانت في ١٣ رمضان سنة ٤٨٠هـ، ويقول ابن خلدون في ديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص١٨٦: إنها كانت سنة ٤٨١هـ، ولكن ورد في الأنيس المطرب (ص٩٦) والحلل الموشية (ص٤٠-٤١): أنها كانت يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ، وهذا اليوم يوافق ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦م، وهو التاريخ الذي تضعه الرواية النصرانية للموقعة، وهو بذلك أصح الروايات. (انظر: محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، دول الطوائف، ص ٣٢٣-٣٢٤).

(٢) بطحاء الزلاقة: من إقليم بطليوس من غربي الأندلس، وفيها كانت الواقعة الشهيرة للمسلمين على الطاغية أذفونش بن فردلند. (انظر: الحميري: محمد بن عبدالمنعم الصنهاجي الحميري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مطبعة بيروت، ١٩٨٩م، ص٢٨٧-٢٨٨).

(٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٩٢.

وبالفعل، عاد يوسف بن تاشفين بجيوشه للأندلس في شهر ربيع الأول سنة ٤٨١هـ[١]، وأرسل إلى ملوك الطوائف يطلب منهم الاستعداد للجهاد، وكان الهدف من ذلك: التصدي لتهديدات النصارى في الأندلس، ولكن اختلاف أمراء الطوائف فيما بينهم وكثرة شكواهم من بعضهم البعض[٢]، وتعاوُنُ بعضهم في السر مع ألفونسو السادس من أجل إفشال هذه الحملة[٣]-وقد أغضب يوسف بن تاشفين هذا الواقع لدى هؤلاء الأمراء الذين يفترض فيهم أن يكونوا أكثر الناس غيرة على المسلمين وحرماتهم، وقرر العودة إلى بلاد المغرب، ولكنه كان يتطلع لأمر في غاية الأهمية، فقد اطلع أكثر فأكثر على أحوال الأندلس وأمرائها، فقرر القيام بأعظم أعماله على الإطلاق؛ وهو إسقاط دول ملوك الطوائف الهزيلة وتوحيد الأندلس تحت راية واحدة قوية، تمامًا مثلما فعل من قبل ببلاد المغرب الممزقة[٤].

وفي سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م[٥] عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس لتحقيق غرضه، لكنه اتجه أولاً إلى طليطلة الحاضرة الجديدة لمملكة قشتالة النصرانية[٦]، فلما سدد اليها ضرباته عاد نحو

---

(١) ابن ابي زرع ، الأنيس المطرب ، ص١٩٣.

(٢) ابن بلقين، التبيان، ص١٠٧-١١٣.

(٣) فابن الرشيق صاحب مرسية قدم معونته للنصارى أثناء حصار لييط ،و ابن بلقين اشار صراحة إلى اتصاله بالفونسو ودفعه الأموال له. (انظر: ابن بلقين، التبيان، ص١١٢-١٢٥).

(٤) سعدون عباس، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، ص١٦٢-١٦٣.

(٥) السلاوي ، الاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى،ج١، ص١٢٠.

(٦) قشتالة: كانت في أصلها تلك القلاع المقامة لحماية مملكة ليون من هجمات المسلمين، وقد عرفت أيضًا في المصادر الإسبانية بـ ETLL؛ أي: القلاع، ولقد صارت هذه القلاع مملكة مستقلة بعد اتحادها في القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي (أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٧٨-٢٠٩)، وفي النصف الأول من القرن التالي أصبحت قشتالة تابعة لملك نافار سانشو الثالث (المسمي بالكبير)، فمنحها لابنه فرناندو الذي ضم إليها مملكة ليون بعد وفاة أبيه سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٥م، فاتحدت بذلك قشتالة وليون في مملكة واحدة، ثم إن فرناندو قسم هذه المملكة قبل وفاته بين أبنائه، فلما توفي سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م، تنازع هؤلاء الأبناء فيما بينهم، وأسفر ذلك النزاع عن ولاية ألفونسو السادس لعرش تلك المملكة سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م، وهو الذي انتزع طليطلة من المسلمين فجعلها عاصمة لمملكته. (انظر: عنان: دول الطوائف، ص٣٧٧-٣٧٨).

الجنوب[١]، وبدأ بمملكة غرناطة[٢] فاستولى عليها سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م[٣]، وبعدها استكملت القوات المرابطية إخضاع بقية أراضي هذه المملكة.

ثم عاد بعدها يوسف بن تاشفين إلى مراكش[٤]، وأخذ يستعد للاستيلاء على مملكة إشبيلية[٥]؛ حيث وزع قواته على عدد من قواده، وأمرهم بقصد المدن المهمة منها[٦]، فهجم عليها في سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م[٧]، فما زالت المدن التابعة لها تتهاوى تحت ضرباتهم[٨] حتى اشتد الحصار على إشبيلية، فسقطت في قبضتهم سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م[٩].

وبعد دخول المرابطين لإشبيلية وجهوا فرقهم العسكرية إلى عدد من حكام الطوائف في الأندلس من أجل القضاء عليهم والاستيلاء على أراضيهم[١٠].

ولم يتعرض المرابطون لحاكم بطليوس المتوكل على الله ابن الأفطس[١١]، لكن سرعان ما تبدل موقف المرابطين منه[١٢]، وقرروا القضاء عليه حيث سيطروا على جميع ما تحت يده من

(١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٩٣.

(٢) كانت أسرة بني زيري بن مناد الصنهاجية تحكم هذه المملكة، وكان آخر حكامها عبدالله بن بلقين الذي استسلم للمرابطين ولمعرفة أخباره وأخبار أسرته. (انظر: ابن بلقين، التبيان، ص١٦-١٧٧).

(٣) ابن ابي زرع ، الأنيس المطرب، ص١٩٤.

(٤) المصدر السابق: ص١٩٥.

(٥) كان بنو عباد العرب اللخميون يحكمون هذه المملكة، وقد انتهى حكمهم بقبض المرابطين على آخرهم أبي القاسم محمد بن عباد الملقب بالمعتمد على الله. (انظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق٢، ص١٥٢-١٦٤).

(٦) ابن ابي زرع ، الانيس المطرب، ص١٩٥.

(٧) المصدر السابق : ص ١٩٥.

(٨) المصدر السابق: ص ١٩٥.

(٩) ابن بلقين، التبيان، ص ١٧٠.

(١٠) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٩٧.

(١١) المتوكل على الله بن الأفطس هو: عمرو بن محمد بن عبدالله بن محمد بن مسلمة، كان الحاكم الرابع لبطليوس من أسرته، وقد تولى الحكم فيها سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م، وأسرته بنو الأفطس يعودون في نسبهم إلى قبيلة مكناسة البربرية. (انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق٢، ج٢، ص٦٤٢١).

(١٢) فقد تبين للمرابطين أن ابن الأفطس كان يداريهم ويتظاهر بموالاتهم، فلما تحالف مع نصارى قشتالة، وسلمهم بعض المدن الإسلامية قضى عليه المرابطون في سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م. (انظر: ابن بلقين، التبيان، ص١٧٢).

بلاد[1].

وبهذا سيطر يوسف بن تاشفين عسكريًّا على اجزاء كبيرة من الأندلس، واستقبلت الأندلس عهدًا جديدًا من القوة والوحدة، انقمع فيه النصارى وتحطمت قواهم لفترة.

وفي ١ محرم سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م[2]، توفي يوسف بن تاشفين رحمه الله بعد أن نظم شؤون الأندلس وعمل على توحيدها، ورفع شأن المسلمين فيها.

وخلفه ابنه علي بن يوسف[3]، فأصبحت الأندلس شغله الشاغل، فقد عبر إليها وأخذ البيعة من أهلها بعد توليه الحكم[4]، كما عبر إليها عدة مرات؛ وذلك إما من أجل الجهاد والتصدي للنصارى[5]، أو من أجل حل الخلافات التي وقعت بين المسلمين في الأندلس، ففي سنة ٥١٥هـ[6] وقعت ثورة كبيرة في قرطبة بين أهلها ومن كان فيها من المرابطين، استدعى هذا الخلاف عبور علي بن يوسف إلى الأندلس من أجل معالجة الأمر[7].

وتمكن علي بن يوسف أيضًا من ضم سرقسطة[8] إلى سلطة المرابطين مستغلًّا الظروف

---

(١) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة،، ج٤، ص٦٤.

(٢)ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٩٨.

(٣) علي بن يوسف: هو أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني، كنيته أبو الحسن، أمه أم ولد رومية اسمها قمر، وتسمى أيضًا فاض الحسن، ولد بسبتة سنة ٤٧٧هـ، بويع له بعد وفاة أبيه بمراكش في محرم سنة ٥٠٠هـ، وكان عمرة ٢٣ سنة، توفي سنة ٥٣٧هـ بمراكش. (انظر: المصدر السابق، ص١٩٨_١٩٩).

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٤٧.

(٥) فقد عبر علي بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة ٥٠٣هـ من أجل الجهاد فقصد طليطلة ونزل على أبوابها، كما نزل على طلبيرة وافتتحها عنوة، وفي سنة ٥١١هـ فتح مدينة قلمرية ودوخ بلاد النصارى. (انظر: مجهول، الحلل الموشية، ص ٦٢-٦٣).

(٦) المصدر السابق: ص٦٣-٦٤.

(٧) ويذكر ابن الأثير أن من أسباب هذه الثورة أنه في عيد الأضحى خرج أهل قرطبة للاحتفال بتلك المناسبة فانتهز أحد عبيد أبي بكر يحيى بن رواده والي المدينة من قبل المرابطين فرصة خروج الرجال والنساء إلى ظاهر المدينة للنزهة، فمد يده إلى امرأة وأمسكها فاستغاثت فأغاثها الناس، فوقعت الفتنة بين الحامية المرابطية بقرطبة وبين الأهالي. (انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٢٩٠).

(٨) سرقسطة Zaragoza: تقع على الضفة اليمنى لنهر أبرو في الشمال الشرقي من الأندلس، وكانت قاعدة الثغر الأعلى. (انظر: الإدريسي: أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن إدريس الشريفي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، لندن، ١٩٨٣م، ص١٩٠).

التي كانت تمر بها من مقتل حاكمها المستعين بالله بن هود[١] سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م، واتصال ابنه عماد الدولة عبدالملك بالنصارى، فقام المرابطون على إثر ذلك بالاستيلاء على بلاده في آخر تلك السنة[٢].

أما موقف سلاطين المرابطين تجاه النصارى وممالكهم في شبه جزيرة إيبيريا[٣]، فقد كانوا في سجال معهم،كما استطاع المرابطون من هزيمتهم في معارك عدة ادت الى صدع قوى هذه الممالك، ولاسيما في موقعة أقليش ضد مملكة قشتالة سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م[٤]، وموقعة أفراغة

(١) المستعين بالله: هو أبو جعفر أحمد بن المؤتمن، وهو الحاكم الرابع من بني هود الذين حكموا سرقسطة في عصر الطوائف، وكانت ولايته عليها من سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، حتى قتل عام ٥٠٣هـ/١١١٠م، وبنو هود هؤلاء يعودون في نسبهم إلى قبيلة جذام العربية. (انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٥٤-٥٥).

(٢) المصدر السابق: ج٤، ص٥٢-٥٣.

(٣) الممالك النصرانية: أقامها النصارى في شبه الجزيرة الألبيرية وقد عملت جميعا من أجل القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس، وكانت تتكون من:

١) مملكة قشتالة: قد سبق لنا التعريف بها في، ص٢٣-٢٤,

٢) مملكة أرغون: أصلها رقعة ضيقة من باب شيزرو في جبال البرتات نحو الجنوب بحذاء نافار الواقعة إلى القرب منها، وقد ظهرت بشكل إمارة صغيرة في أواخر عصر الولاة في الأندلس، وكانت أرغون في أوائل القرن الخامس الهجري- الحادي عشر الميلادي ضمن مملكة نافار، حيث قسم سانشو الكبير مملكته هذه قبل وفاته عام ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م بين أبنائه الأربعة، وخص ابنه غير الشرعي راميرو بارغون، وقد نشط في مد سلطانه على ما حوله من بلاد، ثم تولى حكمها بعد وفاته عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م ابنه سانشو الذي اتسعت أرغون في عهده اتساعًا كبيرًا، ثم خلفه بعد وفاته ابنه بيدرو الأول، ولما توفي حكم مملكة أرغون ألفونسو الأول المحارب. (انظر: عنان، دول الطوائف، ص٣٧٨-٣٧٩).

٣) مملكة برشلونة (قطالونيا): كانت أول ثغر يفقده المسلمون في شمال شبه الجزيرة، وقد استولى عليها شارلمان (كارل الأكبر) في سنة ١٩٥هـ/٨٠١م أيام الحكم بن هشام، وجعلها قاعدة الثغر القوطي، أعلنت استقلالها بعد ضعف مملكة الفرنج، وحكمها رامون برنجير الكبير من سنة ١٠٣٥م إلى سنة ١٠٧٦م، واتسعت رقعة هذه الإمارة في عهده، كما كان أمراء بني هود يحصلون على معاونة منها. (انظر: عنان، دول الطوائف، ص٤٠٧-٤٠٨).

٤) البرتغال: أصبح الشطر الشمالي من غربي الأندلس المنتزع من المسلمين والتابع لمملكة قشتالة ولاية خاصة باسم البرتغال في عهد فرناندو الأول، وقد اشتقت تسميته من مدينة بورتو كالي Perotocal القائمة عند مصب نهر دويرة. (انظر: عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص٥٢٢-٥٢٥)، (وانظر أيضًا: جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين والموحدين (٤٨٣هـ/١٠٩٠م-٦٤٠هـ-١٢٤٢م)، محمد إبراهيم أبا الخيل، دار أصداء المجتمع، بريدة، ١٩٩٨م، ص٤٠-٤١).

(٤) أقليش: هي مدينة تقع في شرق طليطلة، وعندها المعركة التي وقعت بين المرابطين بقيادة أخي الأمير علي بن =

ضد مملكة أراغوان سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م[١].

كذلك استطاع المرابطون إنقاذ جزر الأندلس الشرقيه (البليار)[٢] من الهجوم الذي تعرضت له سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م[٣] من جانب الأساطيل النصرانية، التي احتلتها [٤]، لكن استطاع المرابطون إنقاذها حيث دخلها المرابطين سنة ٥٠٩هـ/١١١٦م[٥].

لكن نجد في المقابل أن شر هذه الممالك ضد المرابطين يستمر، حيث وجهت ضربات قاصمة للمدن والحصون الإسلامية؛ فقامت مملكة قشتالة بشن غارات على قرطبة وإشبيلية[٦]، كما احتلت مملكة أراغون عددًا من الحصون والمدن في شمال شرقي الأندلس[٧]، حيث سقطت سرقسطة في قبضتها عام ٥١٢هـ/ ١١١٨م[٨]، وأصبحت عاصمة لهذه المملكة النصرانية[٩]، وقد يعود السبب في تلك الهزائم أن أهل الأندلس لم يتعاونوا مع سلاطين المرابطين بشيء من الإخلاص ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك خطر أخذ يهدد المرابطين في موطنهم؛ وهو

يوسف بن تاشفين أبي الطاهر تميم، وبين نصارى قشتالة بقيادة ابن ألفونسو السادس شانجه، انتهت بانتصار المرابطين، ومقتل شانجه. (انظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص٢١٥).

(١) أفراغة: مدينة بغربي لاردة شرقي الأندلس، وعندها وقعت المعركة التي انتصر فيها المرابطون على ابن رذمير الفرنجي والذي مات مفجوعًا بعد عشرين يومًا من هذه الهزيمة. (انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٢٨٧).

(٢) البليار paleares: هي مجموعة من الجزر في غربي بحر الروم تؤلف بعضها مع بعضٍ أرخبيلاً متسعًا تصل إلى ٤٩٠٠كم، وأهمها خمس جزر؛ هي: ميورقة، ومنورقة، وفرمنتيرة، وقبريرة، ويابسة، وكانت تعرف عند المسلمين باسم الجزائر الشرقية، أما اسم البليار فالذي أطلقه عليها اليونانيون ثم سايرهم في ذلك الرومان. (انظر: جزر الأندلس المنسية- التاريخ الإسلامي لجزر البليار (٨٩هـ-٦٨٥م=٧٠٨هـ-١٢٨٧م)، عصام سالم سيسالم، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م، ص١٥-١٦).

(٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص٢٠٥.

(٤) سيسالم، جزر الأندلس، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٥) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص٢٠٥.

(٦) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٤٥٢.

(٧) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص٢٠٥_٢٠٦.

(٨) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١١٧-١١٩.

(٩) محمد عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ص٩٢-٩٣.

ظهور الموحدين[1] ، بزعامة محمد بن تومرت[2] الذي بدأ دعوته ضد المرابطين، واجتهد في تشويه سمعتهم واتهامهم بالمروق عن الدين؛ وأدى ذلك إلى ظهور ثورات في المغرب والأندلس[3]؛ كل هذه الأمور جعلت زمام الأمور يفلت من أيدي المرابطين.

وفي سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٣م توفي علي بن يوسف، وخلفه ابنه تاشفين بن علي[4] الذي تولى مقاليد الحكم في وقت حرج؛ حيث كانت الدولة المرابطية تعاني مرحلة حافلة بالمشاكل والمصاعب، سواء في الأندلس أو المغرب[5]، فقد استفحل أمر الموحدين بقيادة عبدالمؤمن ابن علي[6]؛ مما اضطر المرابطين إلى توجيه كل قواهم إلى صراع الموحدين في المغرب دفاعًا عن دولتهم، وبهذا كانت الأندلس عرضة لهجمات من قبل القشتاليين الذين أخذوا يوجهون الضربات القاصمة للحاميات المرابطية بالأندلس[7].

(١) سبب تسميتهم بذلك: أن محمد بن تومرت جعل من أهم أسس حركته الاعتقاد برأي المعتزلة ومن على منهجهم من الجهمية في نفي صفات الله عز وجل والذي يعد عندهم توحيدًا، فبسبب هذا الاعتقاد أطلق على جماعة الموحدين، أما من خالفهم فمجسم؛ ولذا وصم المرابطين بالمجسمين مع أنهم مالكية على عقيدة أهل السنة والجماعة، وبجانب زعمه النسب العلوي والمهدية فقد ادعى العصمة، واستحل دماء من خالفه. (انظر: حمد صالح السحيباني، الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت، مجلة جامعة الإمام، عدد٦، محرم، ١٤١٣، ص٥٥٦-٥٦٩).

(٢) محمد بن تومرت: هو محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان، من قبيلة هرغة من المصامدة البربر، ولد بموضع يسمى تومكران، درس في المغرب والأندلس، ثم طلب العلم في المشرق الإسلامي، وفي سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م عاد إلى المغرب، فما زال يتنقل بين مدنها، حتى تجمع حوله عدد كبير من الأتباع، ادعى أنه من نسل الحسن بن علي- رضي الله عنهما- وأنه المهدي المنتظر، فلقب بالمهدي، لقيه بذلك عشرة من أصحابه ساعة مبايعتهم له، توفي سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م، وعمره ٥٠ سنة. (انظر: البيذق، أخبار المهدي، ص١١-٤٣، ابن القطان، نظم الجمان، ص٦١، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٥٦٩-٥٧٨).

(٣) ابن القطان، نظم الجمان، ص٨٧-٨٨.

(٤) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص٢٠٨.

(٥) مجهول، الحلل الموشية، ص١٢١-١٢٤.

(٦) عبدالمؤمن بن علي: يرجع إلى قبيلة كومية من البربر البتر الذين منهم زناتة، ومنهم من يصل نسبه إلى قيس بن عيلان العدنانيين، كان لقاؤه بابن تومرت لأول مرة في بجاية، فلازمه حتى وفاته، ثم بويع له بالخلافة على الموحدين من بعده. (انظر: ابن خلدون، العبر، ج٦، ص١٦٦-١٦٧).

(٧) مجهول، الحلل الموشية، ص٩٢.

وفي خضم هذه الأحداث والمعارك الدائرة في الأندلس بين تاشفين بن علي والنصارى، حاول تاشفين أيضًا التصدي للموحدين في المغرب؛ حيث لاحقهم في تلمسان(1)، لكن قوات الموحدين بقيادة أبي حفص(2) تمكنت من إلحاق هزيمة ساحقة بالجيش المرابطي، ففر الأمير تاشفين ناجيًا بنفسه في جنح الليل، غير أنه سقط من حافة عميقة لم ينتبه إليها وهو على ظهر فرسه، فتردَّى قتيلًا(3).

وبعد وفاة تاشفين بن علي سنة (٥٣٩هـ/١١٤٥م) بويع ابنه إبراهيم، وكان شابًّا صغيرًا، بقي مدة ثم نقض بيعته عمه إسحاق بن علي، ونشب الصراع بينهما(4)، وأدى ذلك إلى اندلا ع الثورات في المدن الأندلسية ضد المرابطين.

وفي تلك الأثناء زحفت جيوش الموحدين إلى مراكش سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م(5)، وضربت عليها حصارًا مريرًا انتهى باقتحام المدينة، ودخل الموحدون مراكش وقبضوا على أميرها أبي إسحاق إبراهيم بن تاشفين، وقتلوه ومن معه من أعيان دولته؛ وبذلك كانت نهاية دولة المرابطين(6).

تلك هي أهم معالم التاريخ السياسي لدولة المرابطين في المغرب والأندلس، فما دور المرأة المرابطية داخل نسيج هذه الدولة خاصة بعد ضم الأندلس لمظلة الدولة المرابطية؟ هذا ما نطمح إلى دراسته في بحثنا بإذن الله، ومنه نستمد العون، ونرجو التوفيق والسداد.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص١٠٣

(٢) أبو حفص: عمر بن يحيى الهنتاني، المعروف بعمر ينتي، كان اسمه فصكة فسماه ابن تومرت عمر، وكان من أقرب أعوان ابن تومرت إليه، ثم كان من بين من عقدوا الأمر بعد ذلك لعبدالمؤمن بن علي، استولى للموحدين على كثير من بلاد الأندلس، كما شارك في أعمال حربية أخرى، وهو جد الحفصيين الذين توطدت دولتهم بعد ذلك في إفريقية، توفي بالطاعون سنة ٥٧١هـ. (انظر: ابن القطان، نظم الجمان، ص١٢٧-١٢٨).

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص١٠٣-١٠٤.

(٤) مجهول، الحلل الموشية، ص١٠٠-١٠٢.

(٥) مجهول، الحلل الموشية، ص١٠٢.

(٦) (انظر: البيذق، أخبار المهدي، ص١٠٥، ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٢٢-٢٣، مجهول، الحلل الموشية، ص١٣٤-١٣٥).

الفصل الأول
العوامل المؤثرة في نشاط المرأة في المغرب والأندلس

المبحث الأول: الدين.

المبحث الثاني: ثقافة المرأة.

المبحث الثالث: القرب من رجال الدولة.

المبحث الرابع: الأعراف والتقاليد.

المبحث الخامس: أثر المجتمعات المجاورة.

-المبحث الأول: الدين.

لقد قامت الدولة المرابطية- كما تقدم- على أسس دينية وفق المذهب المالكي؛ إذ قام عبدالله بن ياسين في بداية دعوته بتعريف النَّاس بالعقيدة الإسلامية الصحيحة؛ على منهج أهل السنة والجماعة، واهتم بتنقية العقيدة من الشرك والبدع التي خالطت عقائد المُلَثَّمين[1] في تلك الفترة، واهتم بتعليم النَّاس امور دينهم، وحارب البدع و العادات السيئة التي تعارض الدين من الزواج بأكثر من أربع، وغير ذلك من الأعراف والتقاليد النابعة من الجهل والتخلف، وبذل جهدًا في بيان أصول الإسلام لِلنَّاس، وحاول جاهدًا أن يربطهم بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وأوضح لِلنَّاس ضرورة الالتزام بالسنة، وأنَّها هي المبينة للقرآن الكريم، بل هي شرح وتفصيل للقرآن العظيم، وبذلك يكون ابن ياسين شرع في وضع الاسس الشرعية لدولة المرابطين [2].

كذلك كانت دعوة المرابطين تقوم ايضا على الحث على طلب العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لكونهما مدخلاً ضروريًّا للتبليغ وتربية النشء، فقد حث الفقهاء الأُمراء على التعلم والدعوة ؛ إذ كان أساس دعوة المرابطين العلم، وعليه قامت دولتهم، وكانت نزعة عبدالله بن ياسين إلى علوم الدين أقوى منها إلى أي علم آخر[3]، فغلب هذا الميل على الدولة ومن ثم كان تقديمها للفقهاء، واختصاصها لهم دون غيرهم من العلماء[4]، وعلى الرغم من توافد العلماء في مختلف نواحي العلوم خاصة بعد ضم الأندلس للمغرب، إلا أن علوم الدين كانت

---

(١) الملثمون: هم مجموعة من القبائل التي سكنت في الصحراء أطلق عليهم اسم قبائل الملثمين؛ لاتخاذ رجالهم اللثام شعارًا يميزهم عن سائر قبائل المغرب، استطاعت هذه القبائل بعد أن تم تحالفها أن ترفع لواء مذهب الإمام مالك في أقاصي الصحراء وأن تخرج من ديارها مجاهدة عاملة على إحياء الإسلام ونشر لوائه. (انظر: الاستقصا، السلاوي، ج٢، ص٤-٥).

(٢) حسين مؤنس، موسوعة تاريخ الأندلس- تاريخ وفكر وحضارة وتراث- مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٦م، ط٢، ص٦٠-٦٦.

(٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٥٧.

(٤) مجهول، الحلل الموشية، ص٧٩.

هي محور اهتمام أمراء المرابطين[1].

ومما لا شك فيه أن الوسط الديني والتربية الدينية التي تربى فيها مجتمع الملثمين، قد ترك آثاره على المرأة المرابطية؛ إذ نجد عددًا كبيراً، من النساء الصالحات، على الرغم مما وصمت به النساء في هذا العهد من سفور وانحلال أخلاقي وغيره، حيث قال المراكشي: "وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر ومأخور"[2]؛ فزينب[3] بنت عباد بن سرحان[4] كانت دينة فاضلة كثيرة الأوراد صوامة قوامة، كما كانت ورقاء بنت ينتان[5] صالحة حافظة للقرآن.

بل نجد أن بعضهن احترن الزهد في الحياة والانقطاع إلى العبادة وهن في ريعان شبابهن، ولا يعزى هذا السلوك إلا للبيئة الدينية والتربية الصالحة التي نشأت عليها المرأة المرابطية في بيوت غلب عليها الصلاح، بالإضافة إلى أن استقامة النساء يعود فضله- بعد الله- إلى تحصيلهن العلمي خاصة الديني منه.

فقد اشتهرت بعض النساء اللائي تتلمذ عليهن طلبة العلم؛ فقد روى القاسم بن محمد الأنصاري الأوسي القرطبي أنه أخذ عن أمه أم الفتح فاطمة بنت أبي القاسم الشراط[6]، كما تلا محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي القاسم سيد الناس على جدته أم أبيه العفاف

---

(١) عصمت عبداللطيف دندش، الأندلس في نهاية عصر المرابطين ومستهل عصر الموحدين (عصر الطوائف الثاني)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م، ص٣٥٢.

(٢) المعجب، ص١٢٧-١٢٨.

(٣) زينب بنت سرحان بن مسلم بن سيد الناس المعافري، شاطبية، روت عن أبيها، توفيت في حدود سنة ٥٨٠هـ. (انظر: ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٨٥).

(٤) عباد بن سرحان بن مسلم ابن سيد الناس المعافري، من أهل شاطبة، يكنى أبا الحسن، ولد سنة ٤٦٤هـ، سكن بمدينة فاس، روى ببلده عن أبي الحسن طاهر بن مفوز وغيره، رحل إلى المشرق وحج، أجاز له أبو عبيدالله الحميدي، توفي بالعدوة، سنة ٥٤٣هـ. (انظر: ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج٢، ص٣٨٦).

(٥) ورقاء بنت ينتان، طليطلية، سكنت فاس، كانت أديبة شاعرة، صالحة، حافظة للقرآن، بارعة الخط، وحجت وتوفيت بعد الأربعين وخمسمئة (انظر: ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٩٤).

(٦) أم الفتح: فاطمة بنت أبي القاسم عبدالرحمن بن محمد بن غالب الأنصاري الشراط، قرطبية، تلت على أبيها القرآن، وحدث عنها ابنها أبو القاسم، توفيت سنة ٥١٣هـ. (انظر: ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٩٠).

نزهة بنت أبي الحسين سليمان اللخمي القراءات، وقرأ عليها جملة من الكتب ولازمها ستة أعوام ونصفًا(١).

كما نسمع عن امرأة أخرى تدعي ريحانة قرأت على يد أبي عمر المقرئ وحضرت مجالسه(٢).

وهكذا نجد أن التعليم الديني كان له أثره على المرأة حيث فتح لها أبوابًا، من حيث مشاركتها في المجتمع والعمل فيه للمساعدة.

فنجدهن قد روين الحديث والقرآن على الشيوخ؛ مثل طونة بنت عبدالعزيز التي أخذت عن أبي عمر بن عبدالبر كثيرًا من كتبه وتواليفه(٣)، وعن العذري الدلائي(٤)، ثم زوجها نفسه(٥).

وهذا ما دفع الرجال لأخذ العلوم والمعرفة الدينية منهن(٦).

"وهذه كلها تقوم حجة على نجاح المشروع الدعوي المرابطي الذي قام على دعوة عبدالله بن ياسين في المغرب"(٧).

---

(١) ابن عبدالملك المراكشي ، الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق١، ص٦٥٣-٦٥٤.

(٢) الضبي، بغية الملتمس، ج٢، ص٥٣٨.

(٣) الحافظ ابن عبد البر: هو يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر بن عاصم النمري، إمام عصره، ولد في قرطبة سنة ٣٦٨هـ، بها طلب العلم وتفقه، لزم أبا عمر أحمد بن عبدالملك الفقيه الإشبيلي، وكتب بين يديه، ألف في الموطأ كتبًا مفيدة منها: كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد؛ وهو كتاب لم يتقدمه أحد إلى مثله، كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار، وكتاب الاستيعاب في أسماء الصحابة، وكتاب جامع بيان العلم وفضله، وغير ذلك من تواليفه، تحول في شرق الأندلس، فسكن دانية، ثم بلنسية، وتوفي في شاطبة سنة ٤٦٣هـ. (انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج٣، ص٩٧٣-٩٧٤).

(٤) الدلائي: هو أحمد بن عمر بن أنس بن دلهاث بن أنس بن فلهدان بن قطبة العذرى، يعرف بابن الدلائي، يكنى أبا العباس، من أهل المرية، ولد سنة ٣٩٣هـ، رحل إلى المشرق مع أبويه سنة ٤٠٧هـ، وأخذ من علماء الحجاز، وصحب الشيخ الحافظ أبو ذر الهروى، كان معتنيا بالحديث ونقله وروايته وضبطه، سمع الناس منه كثيرا، وحدث عنه من كبار العلماء أبو عمر بن عبدالبر، توفي بالمرية سنة ٤٧٨هـ. (انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج١، ص١١٥-١١٦).

(٥) المصدر السابق: ج٣، ص٩٩٦-٩٩٧.

(٦) دندش، الأندلس في نهاية عصر المرابطين ومستهل عصر الموحدين، ص ٣٧١.

(٧) بوتشيش: إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع- الذهنيات- الأولياء)، دار الوفاء، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٥٥.

أما الحال في المجتمع الأندلسي في ظل دولة المرابطين، فهو يختلف عن المغرب اذ كان أقل تأثرًا بدعوة المرابطين الإصلاحية[1]؛ خاصة بإشبيلية حيث وصفها ابن عبدون بقولة :" وأقبح ما في مقابرها وبها يعاب على أهل بلدنا إشبيلية السكنى على ظهور الموتى لقوم يشربون الخمر، وربما يفسقون "[2].

كما ظهرت لنا بعض الأوساط البغاء، وسميت البغايا بالخراجيات ، وقد أشار إلى ذلك ابن عبدون بقوله: "يجب أن ينهى نساء دور الخراج عن كشف رؤوسهن خارج الفندق، والتحلي للنساء بزينتهن، وينهين عن السير بينهن، والفرح، ولو أذنوا على ذلك"[3]، وهذا النص يعكس لنا الصورة التي كانت عليها حال الخراجيات، حيث كان لهن أماكن خاصة في بعض الفنادق التي سميت بدور الخراج، وكن يقفن خارج الفندق بكامل زينتهن المبالغ فيها، متبرجات كاشفات عن شعورهن لإغراء الرجال.

كما أشار ابن عبدون أيضًا إلى نوع آخر من البغايا سماهن بالطرازات، ومنعهن من الدخول إلى الأسواق؛ لشهرتهن بممارسة البغاء، كما وصفهن بأقبح الأوصاف فيقول: "قطع الطرازات عن السوق واجب فإنما هي..."[4].

وما نلاحظه من نص ابن عبدون في الوصف السابق عن الخراجيات والطرازات يبين لنا تلك الفروق ما بين الوسط الديني في الأندلس والمغرب، حيث تدل النصوص السابقة على أنه وجد بالمجتمع الأندلسي في عصر المرابطين بعض التحلل الخلقي عند فئات قليلة من النساء، لكن الفقهاء في ذلك العصر تصدوا لتلك الظاهرة المرضية، فقد عمد ابن عبدون إلى محاربة هذه الظاهرة من أجل القضاء عليها، فدعا إلى مراقبة الأماكن المشتبه فيها؛ كالحمامات

---

(١) محمد الأمين بلغيث،دراسات في الغرب الإسلامي ، دار التنوير، الجزائر،٢٠٠٦م،ص٦٦.

(٢) ابن عبدون محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي، رسالة في القضاء والحسبة، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٢٦.

(٣) المصدر السابق: ص٥٠.

(٤) المصدر السابق: ص٥١.

والأجنة[١] التي اعتادت النساء الخروج إليها؛ وذلك بقوله: "يمنع النساء عن الغسل في الأجنة؛ فإنها أوكار للزنا"[٢]، كما منع النساء المسلمات من دخول الكنائس؛ حيث قال: "يجب أن يمنع النساء المسلمات دخول الكنائس المشنوعة[٣]؛ فإن القسيسين فسقة"[٤].

كما شدد ابن عبدون على ضرورة عزل الخراجيات عن باقي النساء؛ وذلك بقوله: "وينهين عن السير بينهن، ولو سمح لهن بذلك"[٥]، وقد يكون سبب حرص ابن عبدون عن عزلهن عن النساء حتى لا يكن سببًا في إغراء غيرهن من النساء والإيقاع بهن.

ويبدو أن تلك النماذج كان لها أسبابها؛ منها تأثير عصر ملوك الطوائف، وحياة الترف التي ظلت باقية في الأندلس حتى بعد مجيء المرابطين، كذلك احتكاك المسلمين المباشر مع النصارى.

ولعل من المناسب هنا أن نبين ما ذكره أحد الباحثين المحدثين من أن الفقهاء في تلك الفترة قد قللوا من شأن المرأة المرابطية، مما أثر سلبًا على نشاطها في المجتمع.

فعندما نقف على ما كتبه بوتشيش في كتابه (المغرب والأندلس في عصر المرابطين)، نجد أن اتهاماته التي وجهها لفقهاء المرابطين وأنهم كانوا السبب وراء انكماش دور المرأة في مجتمعها في تلك الفترة، هي تهم زائفة خاصة مع النصوص التي ذكرها في كتابه.

فيذكر بوتشيش بما نصه: "وبإلقاء نظرة على كتب الحسبة التي تكشف عن موقف الفقهاء من المرأة، يتبين الموقع الذي احتلته داخل المجتمع، فقد وصف ابن عبدون النساء بالغباوة وانعدام التفكير السليم؛ فالجهل والخطأ فيهن أكثر[٦]، كما لم يسمح باختلاطهن مع الرجال"[٧]؛ فنحن من خلال هذا النص نجد أن بوتشيش يتهم ابن عبدون بوصف النساء

(١) مفردها: جنة، وهي البستان، والعرب تسمي النخيل جنة، أو الحديقة ذات الشجر والنخل وغيرها. ابن منظور، لسان العرب ، مادة (جنن)، ج٧، ص٧٠٥.

(٢) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص٤٥.

(٣) أي المشبوهة.

(٤) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة ، ص٤٨.

(٥) المصدر السابق: ص٥١.

(٦) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة ، ص٤٦.

(٧) بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص٤٣.

بالغباوة في جميع أمور حياتها مما أدى إلى الإنقاص من مكانة المرأة المرابطية داخل مجتمعها.

لكن عندما نعود لنص ابن عبدون نجده يقول: "يجب ألا يترك أحد يتسور في شيء لا يحسنه، لاسيما صناعة الطب الذي فيه إتلاف المهج... ويوقف كل أحد على صناعته، لا يتسور فيها إلا بعلم، لا سيما النساء؛ فالجهل والخطأ فيهن أكثر"؛ فابن عبدون هنا لم يصف المرأة بالغباوة مطلقًا؛ إنما جاء تشديده على مسألة العلم والخبرة لأصحاب الصنعة، سواء كان رجلًا أو امرأة.

أما قضية اختلاط النساء بالرجال ومنع ابن عبدون النساء من ذلك، والتي استند عليها بوتشيش ليقول بأن المرأة مقيدة في مجتمعها من قبل الفقهاء[1]- فالله تعالى قد نهى عن كل طريق يؤدي إلى وقوع الفاحشة، فحرم خلوة الرجل بالأجنبية، كما نهى عن اختلاط النساء بالرجال؛ لما فيه من الفساد والانحلال، ومن الأدلة على ذلك: ما جاء في "سنن أبي دواد" في باب اعتزال النساء في المسجد عن الرجال: عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال الرسول: (**لو تركنا هذا الباب للنساء!**)؛ فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات[2]، وكان ذلك لئلا تختلط النساء بالرجال في الدخول والخروج.

كما جاء أيضا عن عبدالله بن مسلمة، عن مالك، عن يحيى بن سعيد، عن عمرة بنت عبدالرحمن؛ أنها أخبرته، أن عائشة زوج النبي قالت: لو أدرك رسول الله ما أحدث النساء لمنعهن المسجد؛ كما مُنِعَهُ نساءُ بني إسرائيل، قال يحيى: فقلت لعمرة: أَمُنِعَهُ نساءُ بني إسرائيل؟ قالت: نعم[3].

فابن عبدون لم يمنع اختلاط النساء بالرجال إلا خوفًا من الفساد وحمايةً للمرأة.

(١) بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ص٤٩.

(٢) أبو دواود سليمان بن الأشعث الأزدي، سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وشادي محسن ومحمد كامل، دار الرسالة العالمية، دمشق، ٢٠٠٩م، ج١،ص ٣٤٧.

(٣) المصدر السابق: ج١، ص٤٢٦.

كما جاء أيضًا في كتاب بوتشيش ما نصه: "لم يتعد الفقية أبو الوليد الباجي[1] عن النظرة الدونية للمرأة؛ إذ اعتبر طاعة النساء مما يفسد الدين والدنيا"[2]؛ فنحن عندما نقرأ النص الذي أورده هنا يتبادر إلى أذهاننا أن الفقيه أبا الوليد الباجي قد جعل من طاعة الرجل للمرأة عموما وفي جميع الظروف فسادًا في أمور الدين والدنيا، لكن عندما نرجع إلى النص الذي ذكره أبو الوليد الباجي في نصح أبنائه نجده يقول: "وإياكما والتنافس والتقاطع والتدابر والتحاسد وطاعة النساء في ذلك، فإنه مما يفسد دينكما ودنياكما"[3]؛ فالباجي ذكر بشكل واضح أن طاعة المرأة في أمر قد يؤدي إلى التفرقة بين الإخوة هو أمر مرفوض، كما أن الدين الإسلامي رفض ذلك، وجاءت الأحاديث التي تنهى عن قطع الرحم، ويكفينا من ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (**لا يدخل الجنة قاطع رحم**)[4].

لكن بوتشيش انتقى جزءًا من النص وهو: "طاعة النساء مما يفسد الدين والدنيا"[5]؛ ليجعله حكمًا مطلقًا، ويبني عليه حكمًا عامًّا، بينما جاء نص أبو الوليد الباجي في قضية معينة؛ وهي وصيته لأبنائه، ولم تكن مطلقة.

كما أشار في كتابه إلى ما نصه: "وذهب الفقيه أبو بكر الطرطوشي[6] أبعد من ذلك؛

(١) الباجي: هو سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي القرطبي الباجي، أصله من بطليوس، وانتقل آباؤه إلى باجة، ثم سكنوا قرطبة، واستقر أبو الوليد بشرقي الأندلس، نشأ في أسرة فقيرة، وأقبل على تلقي العلم بجد وعزم، رحل إلى المشرق فذهب إلى مكة، والعراق، والشام، ومصر، قصده طلاب العلم من المشرق والمغرب، له مؤلفات عديدة تدل على معرفته وسعة علمه، توفي بالمرية سنة ٤٧٤هـ. (انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج١، ص٣١٧-٣١٨).

(٢) بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص٤٣.

(٣) أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي، وصية أبي وليد الباجي لولديه، تحقيق إبراهيم عبدالمجيد، دار الثقافة، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٤٠.

(٤) أبو دواود الأزدي، سنن أبي داود، ج٣، ص١١٩.

(٥) بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص٤٣.

(٦) الطرطوشي: هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان الفهري، يعرف بابن أبي رندقة، كان فقيهًا إمامًا محدثًا عالما فاضلًا، ولد في طرطوشة والتي ينسب إليها، انتقل إلى سرقسطة، رحل إلى المشرق للحج وطلب العلم، كما قصد العراق والشام ومصر، ثم عاد إلى الأندلس، توفي سنة ٥٢٥هـ. (انظر: الضبي، بغية الملتمس، ج١، ص١٧٥-١٧٦).

حيث اعتبر عزاءهن بدعة[1]؛ إذ قال: يعزى الكبير والصغير، والرجل والمرأة، إلا أن تكون شابة فلا يعزيها إلا ذو رحم"[2]؛ فهنا يحاول بوتشيش أن يلمح إلى السبب الذي جعل الفقيه أبا بكر الطرطوشي يعتبر تقديم العزاء للمرأة بدعة، إنما جاء من باب التقليل من شأن المرأة.

والحقيقة أن نص الطرطوشي لا يوجد به ما ينقص من قدر المرأة، فالشرع فضل ترك تعزية الشابة من أجل حمايتها ولسد باب الفتنة، فالطرطوشي ذكر ذلك خوفًا عليها من الفتنة وسدًّا لذرائع الشيطان.

كما نجده أيضًا في موضع آخر من كتابه يتهم القضاة في عصر المرابطين بعدم إنصاف المرأة في حالة لجوئها إليهم، فيقول: "وفي الاتجاه نفسه عد أحد القضاة تدمية المرأة على زوجها مائلة إلى الضعف، ولا يقام عليه القول بها، والمقصود هنا: أن المرأة إذا زعمت أو ادعت أن زوجها قد ضربها أو أصابها بجرح نتج عنه دم، فإن ادعاءها لا يلتفت إليه ولا يصدق، بل يصدق قول زوجها"[3].

فالقاضي الذي أشار إليه هنا بوتشيش هو القاضي أبو القاسم سلمون بن علي (ت٧٦٧هـ)[4]، فهو إذن لا يمثل قضاة عصر الفترة المرابطية.

كما أن القضاء في دولة المرابطين قام على الأسس الإسلامية الصحيحة، وهذا ما ساعد المرأة المرابطية على الالتجاء إليه في حياتها، فنوازل ابن رشد وابن سهل وغيرهما من فقهاء تلك الفترة، تقف شاهدة على إنصافهم للمرأة، فكانت المرأة عندما تواجه خلافات مع زوجها أو تقع في خصومات مع أشقائها وغيرهم على ميراث[5]، تلجأ إلى القضاة من أجل أخذ

---

(١) بوتشيش، المغرب و الأندلس في عصر المرابطين، ص٤٣.

(٢) أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، الحوادث والبدع، تحقيق عبدالمجيد زكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م، ص٣٢٧.

(٣) بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص٤٣.

(٤) القاضي سلمون: هو سلمون بن علي بن عبدالله بن سلمون الكناني الغرناطي يكنى أبا القاسم، من أهل بلنسية، ولد سنة ٦٨٨هـ، كان فقيها جليلًا، موصوفًا بالفضل، بصيرًا بالأحكام، ولي القضاء بغرناطة، توفي سنة ٧٦٧هـ. (انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص٣٠٩-٣١٠).

(٥) أبو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبدالله الأسدي، الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام (ديوان الأحكام =

حقوقها الشرعية، لمعرفتها بأن القضاء المرابطي سوف ينصفها.

والحقيقة أن فقهاء عصر المرابطين لم يعيقوا نشاط المرأة داخل المجتمع فنحن نجد الكثير من النساء المرابطيات قد خضن معترك الحياة السياسية منها والدينية؛ كما نجد أن المرأة قد بلغت مكانة جليلة؛ مما دعا الكثيرين من الرجال العامة والخاصة إلى حضور حلقاتهن العلمية، بل نجد أن بعض الفقهاء يفتخر بأنه تلقى العلم على أيدي النساء(١).

وهكذا يبدو لنا أن عامل الدين أسهم إلى حد بعيد في إعطاء المرأة قدرًا كبيرًا من الحرية وفق ضوابط شرعية، مما جعلها مؤهلة لخوض غمار الحياة المرابطية، دون أن ننسى العوامل الأخرى؛ من ثقافة وعادات وتقاليد والاحتكاك بالمجتمعات المجاورة، وكذلك القرب من رجال الدولة، والتي قد أسهمت أيضًا -كما سنرى- في إكساب هذا الدور توهجه وفاعليته.

الكبرى) تحقيق يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٥٠٤.

(١) ابن بشكوال، الصلة، ج١، ص٢٦٦.

-المبحث الثاني: ثقافة المرأة.

إن من يستقرئ سريعًا تاريخ الدولة المرابطية بمختلف شؤونها يتبين له مدى النشاط والغنى الثقافي والفكري، وما يمكن أن يؤثره هذا في مكانة المرأة ووضعها في هذه الفترة من تاريخ دراستنا، ويساعدنا بالطبع على الوقوف على نشاطها ودورها والذي سوف نتطرق له بشيء من التفصيل في الفصول القادمة بإذن لله.

ونعني بالثقافة في اللغة:

"ثقف الشيء ثقفًا وثقافًا وثقوفة: أي حذق، ورجل ثقف: أي حاذق فهم"(١)؛ فالثقافة في اللغة جاءت بمعنى الحذق والفطنة وسرعة أخذ العلم وفهمه.

أما تعريف الثقافة اصطلاحًا:

فهي: "كل ما يتلقاه الفرد عن الجماعة من مظاهر الفنون والعلوم والمعارف والفلسفة والعقائد"(٢).

أما علماء الاجتماع فيرون أن ثقافة شعب من الشعوب تشتمل "كل ما صنعه وابتدعه من الأفكار والأشياء وطرائق العمل فيما يصنعه ويوجده؛ فالثقافة تشتمل على الفنون والمعتقدات والأعراف والاختراعات واللغة والتقنية والتقاليد"(٣).

وقد شهدت دولة المرابطين نهضة فكرية مزدهرة؛ ازدهرت فيها علوم الأدب واللغة والطب، ووفد طلاب العلم على المدن المغربية من كل مكان، وساعد على ذلك تشجيع سلاطين المرابطين للعلماء وطالبي العلم(٤).

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ثقف)، ج٦، ص٤٩٢-٤٩٣.

(٢) عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الاسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩م، ص٢٣.

(٣) أحمد فؤاد، أضواء على الثقافة الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٢.

كما عرفت الثقافة أيضا بأنها: مجموع الأفكار والعادات التي يكتسبها أي مجتمع من المجتمعات، ويشترك فيها أفراد، وتنتقل من جيل إلى جيل. (انظر: عبدالإله الملا، المدخل إلى الثقافة الإسلامية، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٩٨م، ص٩-١٠-١١).

(٤) دندش، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص٣٦٥.

وأصبحت مراكش وفاس وغيرهما من المدن المغربية من أهم المراكز العلمية التي يقصدها طلاب العلم من كل مكان(١).

ومما زاد من هذا الازدهار ووسع الاهتمام بالحياة الثقافية في الدولة المرابطية ضم الأندلس لها؛ إذ كان هذا الأمر حافزًا للمرابطين وللعلماء على الإبداع (٢)، ونحن لا ننسى أن الأساس الذي انطلقت منه دعوة الدولة المرابطية كان هو العلم؛ لذلك كان اهتمام سلاطينها بالعلم والعلماء ذا ميزة خاصة لاسيما في مجال الفقه الشرعي(٣)؛ والدليل على ذلك تلك النزعة الفقهية التي كان يتمتع بها عبدالله بن ياسين(٤)، لكن بعد ضم الاندلس شغف المرابطون بجميع أنواع العلم ، حيث نهلوا من العلوم المختلفة التي خلفها الطوائف ورائهم، كما شجعوا الأدب والعلوم بعد استقرار النظام واستتباب الأمن، ومن مظاهر ذلك اهتمامهم بالكُتَّاب والشعراء الذين خدموا ملوك الطوائف والاستعانة بمعظمهم(٥).

ويعكس لنا ذلك صريحا مدى اعجاب المرابطين بما خلفه ملوك الطوائف من ازدهار ،حيث اهتم يوسف بن تاشفين (٤٦٥هـ- ٥٠٠هـ) بالعلم والعلماء (٦)، ثم من بعده ابنه علي بن يوسف (٥٠٠هـ- ٥٣٧هـ) الذي شجع العلم والعلماء وكبار الفقهاء(٧)، كما كانت الأندلس في ذلك الوقت معروفة في أوج قوتها العلمية والحضارية في عهد ملوك الطوائف(٨)،

(١) عندما نقف على سيرة بعض الفقهاء والعلماء في ذلك العصر نجد ان الكثير منهم قد قصد مراكش لاخذ العلم ، فهذا الفقيه ابو العباس احمد بن عبدالرحمن يذكر رحلته الى مراكش وكيف كان الطلاب يحرصون على مرافقه العلماء. (انظر: ابن فرحون إبراهيم بن نور الدين أبو الحسن علي بن محمد بن أبي القاسم، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٧م، ص١١٨.

(٢) دندش، الحضارة الإسلامية في نهاية المرابطين ومستهل عصر الموحدين، ص٣٥٦.

(٣) القاضي عياض السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج٤، ص٥٣٣.

(٤) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٥٧.

(٥) ابن الأبار، التكملة، ص١٤٦.

(٦) حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص٤٣٨-٤٤٨.

(٧) ابن الأبار أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م، ط٢، ج٢، ص٢١٠.

(٨) حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص٤٣١.

فأعجب أمراء المرابطين بما شاهدوه وعاينوه بأنفسهم من عمران وثقافة وعلوم تطبيقية وغيرها[1]، فاستعان المرابطون بالعلماء والأدباء والفلاسفة والكتاب والفنانين والصناع من الأندلس؛ للاستفادة منهم بما فيه مصلحه لدولتهم[2].

حيث وفد عدد كبير من نوابغ الفكر الأندلسي على حاضرة الدولة المرابطية مراكش- منهم الطبيب أبو العلاء بن زهر[3]، والشاعر ابن خفاجة وغيرهما من كبار العلماء- وإذا كانت كفة الفقهاء والعلم الشرعي ترجح في بعض الأحيان، فربما لكون مؤسسوا الدولة كانوا من العلماء؛ فعبدالله بن ياسين كان فقيهًا وأسس دعوته على مبادئ الفقه المالكي، كما هو الحال بالنسبة ليوسف بن تاشفين الذي كان مالكي المذهب متحمسًا له، ومع ذلك عمل المرابطون على نشر العلم والمعرفة بمختلف أنواعها وفروعها، "حيث قاموا بتأسيس المدارس والمعاهد في كل بقعة من دولتهم، كما سعوا إلى إعلاء شأن اللغة العربية وإضفاء صبغتها على كل المؤسسات"[4].

وهكذا يبدو لنا أن عصر المرابطين كان عصرًا مزدهرًا بالعلم والعلماء، حيث ورثت دولة المرابطين تركة علمية كبيرة من الطوائف.

---

(١) المراكشي، المعجب، ص٩٧.

(٢) المصدر السابق: ص١١٥.

(٣) هو أبو العلاء زهر بن أبي مروان عبدالملك بن محمد بن مروان مشهور بالحذق والمعرفة وله علاجات مختارة تدل على قوته في صناعة الطب واطلاعه على دقائقها، وكانت له نوادر في مداواته المرضى ومعرفته لأحوالهم وما يجدونه من الآلام من غير أن يستخبرهم عن ذلك، بل بنظره إلى قواريرهم أو عندما يجس نبضهم، وقد عاش في دولة المرابطين وحظي في أيامهم ونال المنزلة الرفيعة والذكر والجميل، وكان قد اشتغل بصناعة الطب وهو صغير في أيام المعتضد بالله أبي عمرو عباد بن عباد، واشتغل أيضًا بعلم الأدب وهو حسن التصنيف جيد التأليف. (انظر: موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقة الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت١٩٨٩م، ص ٥١٧).

(٤) حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص٤٤١.

وكان لابد لهذا التطور العلمي بأنواعه المتعددة من أن يؤثر على ثقافة المرأة ونشاطها الفكري في كل المجالات، فلم تكن المرأة المرابطية بمنأى عن ساحة النشاط العلمي والثقافي في المجتمع المرابطي، فقد تلقت المرأة نصيبًا وافرًا من العلم والمعرفة.

فكان لازدهار العلوم الدينية في عصر المرابطين أثر كبير على النساء في ذلك العصر، فبرز عدد من الفقيهات المرابطيات اللواتي شاركن في ازدهار هذه العلوم.

كما أثرت الحركة الأدبية وخصوصًا الشعر منها على المرأة المرابطية، سواء في الأندلس أو في المغرب، فهي كانت إحدى وأهم الموضوعات الشعرية التي تناولها الشعراء من مديح ورثاء وغيرها(١)، ولعل امتداد نفوذ المرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية يُفسر اهتمام الشعراء في ذلك العصر بمدحها.

كذلك نلاحظ من قصائد رثاء المرأة ما يؤكد على أهمية المرأة كزوجة أولاً، ومن الشعراء الذين رثوا زوجاتهم: أبو إسحاق الإلبيري(٢)، والأعمى التطيلي(٣)، وابن حمديس(٤)، وابن الزقاق(٥)؛ ففي هذا المجتمع استطاعت المرأة أن يكون لها دور رئيس، فقد استحوذت على فكر الرجل وشغلت

---

(١) ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، ص٣٢١.

(٢) أبو إسحاق الإلبيري: إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي، واشتهر بالنسبة إلى إلبيرة، فقيل فيه أبو إسحاق الإلبيري ونسبته كتب التراجم إلى كل من إلبيرة، وغرناطة، وحصن العقاب، لكن الأصح أن أبا إسحاق من أهل حصن العقاب فيها ولد ونشأ ثم قصد إلبيرة، فتلقى مزيدًا من علومه وثقافته فيها، ولد أبو إسحاق سنة ٣٧٥هـ، توفي سنة ٤٦٠هـ. (انظر: أبو إسحاق الإلبيري، ديوان أبي إسحاق الإلبيري، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩١م، ص ٧-٨).

(٣) الأعمى التطيلي: أبو العباس أحمد بن عبدالله بن هريرة التطيلي، أحد شعراء الأندلس المشهورين، ووشاح بارع، ولد في تطيله منها أهله وإليها نسبه، ثم ارتحل أهله إلى إشبيلية فاستوطنها معهم، ولادته ووفاته في ظل دولة المرابطين، فقد توفي سنة ٥٢٥هـ. (انظر: أبو الحسن علي الأندلسي، رايات المبرزين، ص٢٢٤).

(٤) ابن حمديس: أبو محمد عبدالجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي، ولد في مدينة سرقوسة سنة ٤٤٧هـ، قال الشعر في صباه، انتقل في أيام اضطراب صقلية إلى إفريقية، ثم قصد الأندلس وصار في جملة شعراء المعتمد بن عباد إلى وفاته، ثم تنقل في بلاد المغرب وامتداد الجزائر الشرقية (ميورقة)، ثم استقر في بجاية، وكانت وفاته سنة ٥٢٧هـ. (انظر: أبو الحسن علي الأندلسي، رايات المبرزين، ص ٢٧٥-٢٧٦).

(٥) ابن الزقاق: أبو الحسن علي بن عطية بن مطرف اللخمي يعرف بابن الزقاق، وابن الحاج، أحد شعراء بلنسية، ومن شعراء الأندلس، ولد سنة ٤٩٠هـ وتوفي سنة ٥٣٠هـ. (انظر: أبو الحسن علي الأندلسي، رايات المبرزين: ص٢٠٩).

اهتمامه، وهذا الاهتمام بالتأكيد سيكسبها ثقافة أدبية تستطيع أن تشركها فيها.

وتؤكد أيضًا هذه النصوص الشعرية التي قالها الشعراء في رثاء نساء المرابطين أو مدحهن وذكر مكارمهن، على عدم صحة الاتهامات التي وجهت للمرأة المرابطية من قبل كتاب الموحدين؛ إذ اتهموها- بشكل عام- بالسفور والفساد وألصقوا هذا الوصف بجميع النساء في عصر المرابطين(١).

ومن النساء المرابطيات اللواتي عرفن واشتهرن في الثقافة والشعر والأدب الأميرة حواء بنت تاشفين كانت أديبة تجمع الشعراء والكتاب وكانت لها مجلس أدبي يحضره كبار العلماء(٢)، وكانت حواء بنت إبراهيم بن تيفلويت سيدة فاضلة كريمة تحاضر الأدباء(٣)، وغيرهما ممن اشتهرن بالأدب.

كما برز في ميدان النسخ عدد من النساء المرابطيات ناسخات ماهرات، فقد أخرج عصر المرابطين عددًا منهن، ممن جمعن إلى العلم والمعرفة البراعة في الخط والكتابة الحسنة، فطونة إحدى فقيهات النساء وكانت مع ذلك حسنة الخط(٤).

كما احترفت مئات من النساء نسخ المصاحف وكتب العبادات التي يكثر الإقبال عليها، وكن يبعنها فيما بعد إلى الوراقين؛ لما يمتزن به من إتقان كبير ومهارة في الكتابة(٥).

وهكذا يبدو لنا انشغال المرأة أيضًا بالحركة العلمية مما زاد من ثقافتها واحتكاكها بفقهاء ومثقفي عصرها؛ فانعكس ذلك إيجابيًّا عليها من ناحية التعلم والتفاعل مع المجتمع وقبول المجتمع المرابطي، وهذا دليل كبير على تقبل ثقافة النساء وفاعليتها في هذا المجتمع.

---

(١) البيذق، أخبار المهدي، ص٢١-٢٢، المراكشي، المعجب، ص١٢٨-١٢٩.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٥٧.

(٣)المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٩٤.

(٤) ابن بشكوال، الصلة، ج٢، ص٩٧٧.

(٥) محمد المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩١م، ص٢٣-٢٤.

-المبحث الثالث: القرب من رجال الدولة.

كان المجتمع المرابطي متأثرًا بأعراف المجتمعات الصحراوية وتقاليدها، إذ كان يعتمد على المرأة كثيرا في كثير من شؤون الحياة ومتطلباتها، وقد كانت تلك المسؤليات التي تقوم بها المرأة عاملًا مهمًّا أدى إلى قربها من رجال الدولة وحياتها في البلاط السلطاني، لاسيما أن أمراء المرابطين كانوا يقدرون المرأة إلى درجة تفوق غيرهم من المجتمعات أحيانًا(١)، فكما هو معروف قد أظهر المرابطون للمرأة كل احترام (٢)؛ فكان بعض قادتهم ينتسبون إلى أمهاتهم؛ كمحمد بن عائشة(٣)، وعبدالله بن فاطمة(٤).

(١) هذا التقدير يمكن لنا تلمسه عندما نقارن واقع المرأة المرابطية بالمرأة في عصر الموحدين والذي مكن المرأة من احتلال مكانة رفيعة في جميع مناحي الحياة الاجتماعية عامة والسياسية بشكل خاص حيث نجد أنه لم يكن للمرأة في المجتمع الموحدي نفوذ وسلطة في الشؤون السياسية بشكل واضح كما في عصر دولة المرابطين. (انظر: حسن علي، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص٣٦١).

(٢) تظهر لنا أهمية المرأة في حياة الرجل في عهد المرابطين مما روته المصادر عن أنه كان يُنسب إلى أُمّه، وليس إلى أبيه فيقول الناس: ابن فلانة لا ابن فلان، هذا ما أثبته صاحب كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، فقد جاء في كتابه قوله: "جميع الملثمين ينقادون لأمور نسائهم، ولا يُسمّون الرجل إلا بأمّه"، وإن كان هذا الانتساب إلى الأمهات من باب ما تمتعت به من مكانة اجتماعية. (انظر: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م، ج٢٤، ص ١٤٦).

(٣) ابن عائشة: أبو عبدالله محمد بن يوسف بن تاشفين، ونسبته إلى أمه عائشة من العادات الذائعة عند المرابطين. (انظر: النويري: نهاية الأرب، ج٢٤، ص٢٦٥) كان والده يوسف قد نصبه واليًا على مرسية. (انظر: ابن الأبار: المعجم، ص٥٤) فكانت له جهوده النشطة في ضم عدد من مدن شرقي الأندلس إلى الدولة المرابطية (انظر: ابن الكرديبوس، تاريخ الأندلس، ص١٠١-١٠٢)، ولقد بقي واليًا على مرسية إلى أن اشترك في جهاد نصارى برشلونة عام ٥٠٨هـ/١١١٤م فاعتل بصره على إثر ذلك، ثم لم يلبث أن فقد بصره تمامًا، فاستدعاه أخوه علي بن يوسف إليه في مراكش. (انظر: ابن الأبار: المعجم، ص٢٥٤).

(٤) ابن فاطمة: أبو محمد عبدالله بن فاطمة من أعظم قادة المرابطين وأشهر رجالاتهم في الأندلس، اشترك في الحملة التي أرسلها المرابطون إلى بلنسية؛ إذ إنه قاد جيشًا أمد به القائد مزدلي في سنة ٤٩٥هـ وفي سنة ٤٩٧هـ اشترك مع ابن الحاج في غزو طليطلة وطلبيرة، ثم ولي بلنسية وشرق الأندلس بعد ذلك، واستولى في نفس السنة على مملكة بني رزين الصغيرة، وفي سنة ٥٠١هـ اشترك في فتح أقليش، وفي سنة ٥٠٣هـ عزل عن بلنسية وولي على غرناطة ثم انتقل بعد ذلك إلى فاس بالمغرب عاملاً عليها في سنة ٥٠٤هـ، وفي سنة ٥٠٩هـ عاد إلى الأندلس عاملاً على إشبيلية فحكمها =

وهذا إذا اعتبرنا أن قربها من رجال الدولة جعلها تخوض في بعض الأمور والقضايا السياسية، بالإضافة إلى أنه مهد الأمر لها للقيام بأدوار أخرى على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي؛ ــكما سنرى لاحقًا إن شاء اللهــ.

وهنا لابد لنا أيضًا من إلقاء نظرة عامة على الحياة الاجتماعية لأمراء المرابطين ورجالات الدولة، ثم تصنيف النساء حسب ذلك الواقع، لنرى أثر قرب المرأة من رجال الدولة أو بعدها عنهم، إضافة إلى صقلها وإكسابها تلك الحنكة والمعرفة بخفايا أمور الدولة وتفاصيلها الصغيرة والكبيرة.

فعندما نلقى نظره على تاريخ المرابطين نجد أن بعد قيام يوسف بن تاشفين بتوحيد المغرب الأقصى، واستعمل من أجل هذا الهدف كافة الأسباب، سواء بإقامه الصلح بين القبائل المتناحرة، أو باستعمال القوة مع من خالفه [1]، جعل من دولة المرابطين ذات ثقل سياسي بالمغرب ، و الذي أدى فيما بعد إلى ضم الأندلس [2].

وبشكل كبير تأثرت دولة المرابطين بحضارة ملوك الطوائف[3]، كما أن سلاطين المرابطين ممن عرفو بانشغالهم بالجهاد كما وصفهم المراكشي بقوله: "رجال لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، إنما همّ أحدهم فرس يروضه، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبي دعوته"[4]، تغلبت عليهم الحياة الأندلسية بمتعها ومسراتها[5] .

حتى توفي في رمضان سنة ٥١١هـ. (انظر: الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ج١، ق٢، ص٣٣٢).

(١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٧٦ــ١٧٧.

(٢) محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس عصر المرابطين، ص٤١٥.

(٣) حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص٣٤٩-٣٥٠.

(٤) المعجب، ص١٦٣.

(٥) حيث اتخذ رجال الدولة والقادة القصور الحسان، وتفنن فنانو الأندلس في بنائها وزخرفتها، وتأنقوا بالملابس، واتخذوا مجالس من الشعراء والندماء، ومنحوهم العطايا الكبيرة. (انظر: المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق إبراهيم الإبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠م، ج٢، ص٢٠٩-٢١٠).

مما مهد لظهور التأثيرات الكثيرة الخارجية والداخلية على الحياة المرابطية وسياسة سلاطينها، ومن هذه التأثيرات: النساء المرابطيات الحرائر أو الجواري، أندلسيات أو مغربيات، من قبائل الملثمين وغيرهم.

فكما هو معروف، فإن حياة اللهو والمتع ستفتح المجال واسعًا أمام النساء للدخول فيها؛ لكون النساء أهم عناصر هذه الحياة، وخصوصًا الجواري منهن، بما يتصفن به من ثقافة وجمال وغيره، ولكن هذا لا يعني أن المرأة المرابطية لم تكن قريبة من رجالات الدولة الأوائل، بل كانت نساء صنهاجة ولمتونة وغيرها من قبائل الملثمين أكبر شاهد على قربهن من رجالات الدولة ولهن تلك الحظوة والمكانة العالية في قصورهم.

كل هذه الظروف مهدت الطريق لتأهيل المرأة لتكون قريبة من رجالات الدولة في كل شاردة وواردة في القضاء والسياسة والاقتصاد والتجارة وغيره من شؤون الحياة.

ويمكن أن نقسم النساء من حيث القرب من رجال الدولة بشكل عام إلى قسمين؛ هما: الحرائر والجواري:

أما الحرائر: فلن أتكلم هنا على مشاركة المرأة الحرة سياسيًّا في الحكم ودورها فيه، لكن سوف أتطرق إلى البيئة التي احتضنت هذه المرأة للقيام بهذا الدور؛ فالمصادر جميعها تذكر ما كان للأميرة زينب زوجة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من أثر بارز في تأكيد سلطة زوجها، بما امتلكته من حنكة وذكاء ودهاء(١)، وبما أمدته بأموالها لتكوين حرسه الخاص(٢)؛ فقد كانت بنت تاجر كبير من القيروان(٣)، نشأت في جو متحضر فاكتسبت الدهاء والكياسة والحنكة؛ مما جعلها تتفوق على الرجال وتفرض شخصيتها ونفوذها في شؤون السياسة والحكم، وهو ما عبر عنه ابن الأثير بقوله: "وكانت أحسن النساء، ولها الحكم في بلاده"(٤)، فقد أدَّت دور مستشار يوسف بن تاشفين الذي امتثل لنصائحها، وكلما بدت له مشكلة أو واجهته

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص٢٣٢-٢٣٣.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٢٢.

(٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٧٠_١٧١.

(٤) الكامل في التاريخ، ج ٩، ص٩٩.

صعوبات لجأ إليها لتقدِّمَ له المشورةَ والحل الممكنَ[1].

ولكن ما الذي أهلها وأعطاها هذه الخبرة والحنكة السياسية؟

يقول ابن عذاري: "وفي هذه السنة اتصل الخبر بالأمير يوسف أن ابن عمه الأمير أبا بكر بن عمر قد أخذ في الرجوع من الصحراء إلى بلاد المغرب، فاغتم لذلك غمًّا شديدًا وحزن حزنًا عظيمًا، وصعب عليه مفارقة الملك بعد أن ذاق حلاوته، ورتب فيه ما رتب من الأجناد، فعرفت زينب ذلك في وجهه فقالت له: "أراك مهمومًا مكروبًا من وصول ابن عمك إلى ملكه الذي ولاك عليه، والله لا ذاق أبو بكر طعمها أبدًا، فطب نفسًا وقر عينًا"[2]، فقال لها: "إنه استخلافه إلي من بين كل بنيه ويثق علي في هذه المملكة ولو كان غير ابن عمي لقاتلته"[3]، فقالت له: "أنا أدلك"، فقال: "ما ذلك يا زينب؟ فإني – والله– أعرفك ميمونة"، فقالت له: "إذا قدم عليك وبعث مقدمات رجاله إليك، فلا تخرج إليه، ولكن بادره بهدية جليلة فلا يقاتلك على الدنيا، فإن الرجل خير لا يستحل سفك دماء على أمرك، وتفوز بملكك إن شاء الله"[4]، فقال لها: "والله لا خالفتك في أمر تشيرين به أبدًا"[5]، فهي لولا أنها عرفت بصفات الأمير أبي بكر لما كانت قد نصحت يوسف بن تاشفين بما نصحته، وجرى ما جرى بينهما من تنازل أبي بكر ليوسف، فانتقالها من بلاط إلى بلاط سلطاني آخر أكسبها تلك المعرفة بأخلاقيات الأمراء وطباعهم، وبالتالي السيطرة على الكثير من مقاليد الحكم والتحكم فيه.

ويذكر قصة زينب الكثير من المؤرخين، ومنهم صاحب الاستقصا فقال: "كان الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني قد تزوج زينب بنت إسحاق النفزاوية، وكانت بارعة الجمال والحسن، وكانت مع ذلك حازمة لبيبة، ذات عقل رصين، ورأي متين، ومعرفة بإدارة الأمور، حتى كان يقال لها: الساحرة، فأقام الأمير أبو بكر عندها بأغمات، ثم اضطر للسفر إلى الصحراء فطلقها، وتزوجها يوسف بن تاشفين خليفته على بلاد المغرب، فكانت عنوان سعده والقائمة

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٢٤، السلاوي، الاستقصا، ج٢، ص٢١.

(٢) البيان المغرب، ج٤، ص٢٣-٢٤.

(٣) المصدر السابق: ج٤، ص٢٣.

(٤) المصدر السابق: ج٤، ص٢٤.

(٥) المصدر السابق: ج٤، ص٢٤.

بملكه والمدبرة لأمره، والفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب؛ ومن ذلك إشارتها عليه في أمر أبي بكر بن عمر وكيفية ملاقاته"[1].

والذي جعلني أورد هذه القصة هو أهمية الوقوف على سيرة زينب بنت إسحاق النفزاوية وحياتها التي أكسبتها تلك الخبرة في التعامل مع السلاطين والأمراء بحكم قربها المباشر من رجال الدولة، الأمر الذي أهلها لدور حاسم وكبير في نشأة وتطور الدولة المرابطية.

كما نصل أيضًا إلى أن هذه البيئة جعلت لأُمهات الأمراء وزوجاتهم دورًا مهمًا في سياسة الدولة، وذلك بالتأثير على آراء وليّ الأمر في شؤون الحكم.

أما **القسم الثاني من النساء فهن الجواري**، حيث تبين معظم المصادر أن الجواري كنّ يمثلن أهمية كبرى لدى الطبقات الاجتماعية العليا ورجال الدولة؛ وقد وهبن من الصفات الخاصة ما أهلهن لدور بارز في البلاط المرابطي وحياة مجتمع السياسة[2].

ويقصد بالجواري أو الإماء: النساء المملوكات اللائي يُبَعْنَ بيع العبيد[3].

وتنقسم الجواري إلى أنواع: جواري الخدمة، وجواري المنادمة والسمر، وجوارى المتعة؛ خاصة في القصور[4]، وهذا النوع من الجواري هو الذي كان له دور كبير وخطير من حيث قربه من رجال الدولة؛ وهو ما سوف أتطرق إليه في هذا المحور.

ولعل من المناسب أن نذكر أن الجواري قد تمتعن في ظلّ الإسلام ببعض الحقوق والامتيازات مقابل بعض الواجبات، وبالحقيقة فإنهن وإن كن يقمن بعملية ترفيه لأصحابهن من تسليةٍ وشعرٍ وعزفٍ وغناء، فما لبثت بعضهن أن صرن أمهات بعض الخلفاء، وأدرن دفة

(١) السلاوي، ج٢، ص٢٠-٢١.

(٢) (انظر: ابن حزم أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، مكتبة عرفة، دمشق، ١٩٩٧م، ص١٤١، السقطي أبو عبدالله محمد بن أبي محمد السقطي المالقي الأندلسي، رسالة في آداب الحسبة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٥م، ص٥٠-٥١، المقري، نفح الطيب، ج٣، ص١٧٩).

(٣) إبراهيم مصطفى- أحمد الزيات- حامد عبدالقادر- محمد النجار، مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ط٣، مادة (جرأ)، ج١، ص١٢٤.

(٤) السقطي، في آداب الحسبة، ص٤٩-٥٠.

الحكم[1]، فقد كانت قصور الأمراء والسلاطين مملوءة بالإماء[2]، ففي عهد المرابطين انتشرت الجواري بسبب كثرة الحروب والمعارك[3]، وأدى ذلك إلى أن تنوع الأولاد في البيت الواحد فكانوا اما أبناء نساء حرائر أو أبناء جواري، مما أدى إلى أن يشيع الحقد والنزاع بين الأبناء[4].

وممن كان لهن شأنٌ عظيم من النساء في أمور الدولة ، الجارية فاض الحسن زوجة يوسف بن تاشفين[5]؛ فهذه الجارية النصرانية التي ستصبح فيما بعد أم أمير المرابطين علي بن تاشفين، كان لها الدور الكبير في تعيين ابنها وليًّا للعهد؛ إذ قام يوسف بن تاشفين- بناءً على رغبتها ومشورتها- بعزل ابنه الأكبر أبي الطاهر تميم، وتعيين ولدها[6]، وبذلك نجد أنّ المرأة الأم- سواء كانت جارية أو حرة- قد تبوأت مكانًا ساميًا في حياة الرجل، كما نجد أن علي بن يوسف بن تاشفين يستخدم بعض المستشارين والحرس من النصارى في البلاط المرابطي[7]، وهذا يعكس لنا الأثر الذي تركته فاض الحسن في نفس ابنها الأمير علي، ؛ فحرص على طاعتها، ومن ذلك الانقياد إلى أوامرها، وقد ظهرت معالم ذلك واضحة على الحياة العامة.

---

(١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٩٨.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٢٢.

(٣) مجهول، الحلل الموشية، ص١٤-١٥.

(٤) يذكر ابن الخطيب في سبب عزل تاشفين بن علي بن يوسف فيقول: "كان لتاشفين على النصارى وقائع عظيمة بعد لها الصيت، وشاع الذكر حسبما يأتي في موضعه. قال: فكبر ذلك على أخيه سير ولي عهد أبيه، وفاوض أباه في ذلك، وقال له: إن الأمر الذي أهلتني إليه لا يحسن لي مع تاشفين، فإنه قد حمل الذكر والثناء دوني، وغطى على اسمي، وأمال إليه جميع أهل المملكة، فليس لي معه اسم ولا ذكر، فأرضاه بأن عزل تاشفين عن الأندلس... فقضى الله وفاة سير على الصورة القبيحة، وثكله أبوه واشتد جزعه عليه، وكان عظيم الإيثار والإرضاء لأمه قمر، وهي التي تسببت في عزل تاشفين وإخماله نظرا إلى ابنها". (انظر: الاحاطة في اخبار غرناطة، ج١، ص٤٦٠-٤٦١).

(٥) هي جارية رومية أم ولد سميت بمنوا وتعرف بأم الحسن. (انظر: ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج٢، ص٤٦٠)، كما جاء أن اسمها قمر وتسمى فاض الحسن. (انظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٩٨).

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٨٣.

(٧) مجهول، الحلل الموشية، ص٦١-٦٢.

ولعل ما أوردناه آنفًا يبين لنا مكانة المرأة الجارية بالنسبة لرجال الدولة.

وكذلك ظهرت طبقة من الجواري مثقفة شدت أنظار السلاطين ورجال الدولة والعلماء إليها وأخذوا بتقريبهن إليهم بغرض تعليم أبنائهم أو الاستفادة من علمهن[1]، وأعتقد أن ما جعل هؤلاء الجواري مثقفات متعلمات هو سعي تجّار الرّقيق- بهدف رفع أثمان الجواري- إلى تعليمهنّ القرآن واللغة والشّعر والأدب والغناء والخطّ والمنطق والحساب وغيرها من العلوم والفنون[2]، إضافة إلى أنهنّ عشن في كنف بيوت علم وثقافة وفكر، فنهلن منها كلٌّ حسب قدراتها ورغباتها، وخرجت بعضهنّ بأوفر حظّ[3].

ولعل لهذه الثّقافة الكبيرة الّتي حظيت بها الجواري أبلغ الأثر في استقدامهنّ لتعليم أبناء السلاطين وأكابر رجال الدّولة، وكنّ يحصلن على مكافآت سخيّة من مستخدميهنّ[4]، وكلّما ازداد علم الجارية وحفظها زاد الطّلب عليها وعلا شأنها بين الخاصّة والعامّة.

وقد أشار ابن حزم إلى تلك الفترة من حياته فقال: "ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري؛ لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب، وهن علمنني القرآن وروينني كثيرًا من الأشعار، ودربنني في الخط"[5].

ويتضح لنا مما سبق ما كان للمرأة المرابطية من احتكاك مباشر وقريب جدًّا من السلاطين ورجال الدولة والأدباء الذي أهلها لأداء أدوار كبيرة وخطيرة في تاريخ هذه الدولة وإنجازاتها.

---

(١) القاضي عياض أبي الفضل بن موسى اليحصبي السبتي، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تحقيق محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م، ص٢٧١.

(٢) السقطي، في آداب الحسبة، ص٣٨-٣٩.

(٣) ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق١، ص٤٨٠.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٩٣-٩٤.

(٥) ابن حزم، طوق الحمامة، ص١٤١.

-المبحث الرابع: الأعراف والتقاليد.

لكل مجتمع من المجتمعات عاداته وتقاليده التي استقاها من بيئته حيث تأصلت تلك العادات والتقاليد بين أفراده، ولم يكن المجتمع المرابطي بمنأى عن هذا، حيث كانت له أعرافه وتقاليده التي ورثها ممن سبقه، وربما كان بعضها غير منسجم مع تعاليم الإسلام وقيمه.

وإذا وقفنا على معنى العرف في اللغة:

فالعين والراء والفاء- كما يقول صاحب مقاييس اللغة- ترجع إلى أصلين صحيحين؛ يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلاً بعضه ببعض، والآخر على السكون والطمأنينة(١).

أما العرف في الاصطلاح فهو:

(ما استقر في النفوس، واستحلته العقول، وتلقته الطباع السليمة بالقبول بين جميع الناس، أو غالبهم في جميع البلاد، أو بعضها؛ من قول، أو فعل، مما لا ترده الشريعة، وأقرتهم عليها)(٢).

ونجد أيضًا أن العرف ارتبط بالعادات؛ والعادات هي: (ما استمر الناس عليه، وعادوا اليه مره بعد أخرى)(٣).

ومن المسلَّم به أن المظاهر الاجتماعية ، والعادات والأُعراف الاجتماعية في العصر المرابطي هي بالتأكيد نتاج فكر هذه الدولة، والأُساس الذي قامت عليه هو المنهج الإسلامي السني، دون أن نغفل بالطبع عادات القبيلة الصحراوية وأعرافها الخاصة بها والتي تُميز القبائل بعضها عن بعض وربما خالفت بعضها المنهج الإسلامي.

---

(١) أبو الحسين: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، من أئمة اللغة والأدب، أصله من قزوين، توفي في الري سنة ٣٩٥هـ، من مصنفاته: (المجمل)، (جامع التأويل)، (الصاحبي). (انظر: أبو منصور عبدالملك الثعالبي النيسابوري، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ط١، ج٣، ص٤٦٣).

(٢) السيد صالح عوض، اثر العرف في التشريع الاسلامي، دار الكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٥٧.

(٣) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٩٣.

وبالرغم من تأصل بعض العادات والتقاليد عند المرابطين، إلا أن الباحث يرى مظاهر الحياة اليومية في المجتمع المرابطي – من طعام ولباس واحتفالات ومواسم وعلوم– تتطور وتتشكل بناء على الحاجة من جهة، وما يناسب انتقال الدولة ورجالاتها من طور البداوة إلى طور الاستقرار والتحضر من جهة أخرى[1].

ويرى الكثير من الباحثين " أن المرابطين لم يستطيعوا مقاومة مباهج الحضارة الأندلسية بكل مظاهرها ومفاتنها، ولاسيما فن الغناء والموسيقى والطرب؛ إذ تبدل بلاط المرابطين من بلاط يتصف بالخشونة إلى بلاط متأنق"[2].

ولا يخفى علينا أن المرأة المرابطية كانت من كل ذلك عنصرًا فعالاً في هذه الحياة ، وبناء عليه حظيت بمكانة مختلفة من إعطائها حقوق التمليك والإرث والتجارة وغيرها.

ونحن هنا سنحاول أن نلقي نظرة عامة على العوامل التي أثرت في هذه الأعراف والتقاليد ثم أثرت على نشاط المرأة المرابطية؛ ومن أهمها ما يلي:

١– المجتمع المرابطي كغيره من المجتمعات عرف التفاوت بين فئاته على أساس الثروة والنفوذ[3]، وتبعًا لهذا الاختلاف نجد أن الأعراف والتقاليد بشكل عام تختلف من فئة اجتماعية إلى أخرى، فنجد على سبيل المثال أن الأعراف والتقاليد الخاصة بالزواج عند فئة الخاصة تختلف عنها في فئة العامة؛ من حيث الإسراف في تكاليف الزواج ومظاهر البذخ في حفلات الزواج[4].

(١) كذلك كانت الدولة تنقل أمراء الأندلس إلى المغرب وأمراء المغرب إلى الأندلس، وكان الأمير المنقول إلى المغرب يصحب بطانته وكتابه معه. انظر: مجهول، الحلل الموشية، ص٣٢، الفتح بن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيدالله القيسي الإشبيلي، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق حسين يوسف، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٩م، ج١، ص١١٧–١٢٣.

(٢) (انظر: سعدون عباس، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، ص١٦٩، بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس، ص٢٣، حمدي عبدالمنعم، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس، ص٣٤٠، حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص٤٢٢).

(٣) حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص٤٢٢.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٢، ص٥٠٢.

٢- كما كان لاختلاف المكان والبيئات أثره على الأعراف والتقاليد، فنجد أن الكثير من الأعراف والتقاليد التي كانت سائدة في المغرب تختلف عنها في الأندلس، كذلك الأعراف في المغرب نفسها تختلف من مدينة إلى أخرى، فعلى سبيل المثال تختلف العادات والتقاليد في مظاهر الزواج من مكان لآخر؛ ففي تلمسان عندما دخل ابن تومرت هذه المدينة عقب عودته من رحلته العلمية وجد بها عروسًا تزف لبعلها وهي راكبة على سرج، واللهو والمنكر أمامها، فكسر الدفوف واللهو وغير المنكر وأنزلها عن السرج[١]، أما في قرطبة فقد كان يتم الكثير من الأعراس في الشوارع وكان يتخلل هذه الاحتفالات كثير من مظاهر اللهو والمجون، وكانت الراقصات يرقصن في العرس حاسرات الرأس كاشفات عن شعورهنّ، والعروس تبدو في غاية الزينة على رأسها تاج[٢].

٣- كما أثرت ثقافة المجتمع المرابطي بشكل عام على الأعراف والتقاليد، "فنجد شيوع العرف في المجتمعات البدوية القبلية بشكل كبير، وذلك بسبب بعدها عن المراكز الحضارية، حيث تمركز الفقهاء وعلماء الدين في الحواضر وغابوا عن البوادي"[٣]؛ وهذا أدى إلى غياب الكثير من حقوق المرأة الشرعية في ظل سيطرة تلك الأعراف والتقاليد التي كانت سائدة في هذه القبائل، فلا غرابة أن نجد بعض الآباء قد عقدوا لبناتهن قبل بلوغهن[٤] أو أرغموا البنت على الزواج[٥] مع أنه مخالف للدين، بينما نجد أن العادات اقتضت في بعض المدن الأندلسية أن يأخذ الأب مشورة ابنته في الزواج[٦].

٤- كذلك نجد أن لثقافة المرأة بشكل خاص دورًا كبيرًا في هذه الأعراف والتقاليد ومدى تمسك المرأة بها، فنجد المرأة المرابطية الأندلسية بشكل خاص- نظرًا لما كانت تتمتع به من ثقافة ورثتها من أسلافها- تختلف في كثير من الأحيان عن المرأة بالمغرب، ومن ذلك خروج

---

(١) البيذق، أخبار المهدي، ص٢٠.

(٢) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص٥١.

(٣) بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس، ص١٦٥.

(٤) ابن رشد الجد، الفتاوى، ج٢، ص٦٢.

(٥) ابن الأبار، التكملة، ج١، ص٢٧.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص١٨-١٩.

الكثير منهن إلى مجالس العلم، وحضور مجالس الأدباء[1]؛ مخالفة بذلك الكثير من الأعراف والتقاليد السائدة[2].

٥- كما تأثر المرابطون بالمجتمعات المجاورة لهم فكان لاختلاط المرابطين بأهل الأندلس أثر كبير على الأعراف والتقاليد المتعلقة بالمرأة، فقد تأثرت المرأة المرابطية بالعادات والتقاليد الأندلسية بشكل واضح؛ ومن ذلك فتح الباب أمام المرأة المرابطية خاصة في مجالس الشعر؛ وذلك بخوضها في مواضيع حساسة؛ كالتعبير عن مشاعر العشق لديهن بشكل واضح وصريح[3]، وأدل مثال على ذلك الشاعرة نزهون القليعي فهي لم تقف عند التعبير عن الحب، وإنما وصفت لقاءها بمحبوبها بشكل صريح وجريء؛ إذ تقول:

لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت　　　عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد

أبصرت شمس الضحى في عاتقي قمر　　　بل ريم مجهولة في ساعدي أسد[4]

٦- كذلك كان لهذا الاختلاط والقرب من أهل الذمة- سواء كانوا نصارى أو يهودًا- أثر كبير على سلوكيات المرأة المرابطية والأندلسية خصوصًا، ومن مظاهر ذلك: خروج النساء إلى الكنائس مع صديقاتهن النصرانيات؛ ، لذلك نجد أن بعض الفقهاء شدد على منع النساء المسلمات من دخول الكنائس؛ حيث يقول ابن عبدون: "يجب أن يمنع النساء المسلمات دخول الكنائس المشنوعة فإن القسيسين فسقه زناة"[5].

٧- وبالإضافة إلى ما سبق، فقد كان هناك بعض النوازل التي تعرض لها المجتمع المرابطي؛ كالأوبئة والمجاعات وغيرها[6]، فرضت على الحياة الاجتماعية بعضًا من العادات والأعراف، ومن ذلك: اللجوء للصالحين والأولياء؛ لطلب العلاج أو من أجل توسيع الرزق[7].

---

(١) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج١، ص١٧٣-١٧٤.

(٢) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص٣٦٢.

(٣) السيوطي، نزهة الجلساء، ص٨٤-٨٥.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٢٩٨.

(٥) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص٤٨.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٤٥، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٠٩.

(٧)ابن الزيات: أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ط٢، ص١٢٣.ص٢٢٠.

فكانت من عادات بعض النساء في طلب العلاج الذهاب إلى هؤلاء الصالحين، ويتضح لنا ذلك من ترجمة ابن القاضي لأبي يغزى[1]، حيث قيل له: "إن فقهاء فاس ينكرون عليك لمس صدور النساء، فقال لهم: أليس يجوز عندهم أن يلمس الطبيب تلك المواضع لعلة؟ فهلا عدوني واحدًا من أطبائهم"[2]، كما جاءت إليه صبية بها علة لتستشفي بمسه لها[3]، ونستشف من ذلك مدى إقبال الناس عليه بمن في ذلك النساء. وهذا بلا شك جاء بتأثير النزعة الصوفية المنتشرة هناك والتي تجعل للأولياء والصالحين قداسة وقدرات غير صحيحة.

وهكذا يبدو لنا أن هذه العادات والتقاليد- خاصة المتعلقة بالمرأة المرابطية بشكل عام- يرجع بعضها إلى عادات اجتماعية قديمة توارثها المرابطين من أسلافهم، وبعضها ارتبط بالعصر المرابطي نفسه، وما مرت به الدولة المرابطية من ظروف وأزمات أعطتها صورتها النهائية، وهي على كل حال كان لها تأثيرها القوي والواضح على نشاط المرأة المرابطية كما بدا لنا من خلال هذا العرض.

---

(١) أبو يعزى: هو يلنور بن ميمون الصوفي، وقيل: ابن عبدالله الهزميري، يكنى أبا يعزى، كان شيخا صالحا، منقطعا عن الخلق، توفي سنة٥٧٢هـ، وكان عمره مئة وثلاثين سنة. (انظر: جذوة الاقتباس، ج٢، ص٥٦٣).

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٥٦٤.

(٣) ابن الزيات، التشوف، ص٢٢٠.

-المبحث الخامس: أثر المجتمعات المجاورة.

لمعرفة أثر المجتمعات المجاورة على الحياة المرابطية بشكل عام والمرأة بشكل خاص، لا بد لنا من معرفة الوضع السياسي في المغرب الأقصى والأندلس عند ظهور المرابطين أولاً، ومعرفة السياسة التي اتبعتها دولة المرابطين مع هذه المجتمعات؛ لأنها ستحدد نوعية الاحتكاك الاجتماعي والاقتصادي والتجاري وغيره، ثم نستكشف تأثير ذلك على المرأة بصفتها إحدى عناصر المجتمع المرابطي.

أما الوضع السياسي للمجتمعات المغربية المجاورة عند ظهور المرابطين:

ففي أوائل القرن الخامس الهجري كان المغرب الأقصى متعدد القوى وكثير الدعوات الدينية، وكانت الصراعات السياسية تهدد كيانه، فهو شبيه بالأندلس في عصر ملوك الطوائف؛ إذ كانت تتزعمه قوى وقبائل متنوعة سادت المغرب قبيل وصول المرابطين؛ وقد اتصفت هذه القبائل بشكل عام بالتناحر فيما بينها.

كذلك تفشى في أوساطها الكثير من البدع ، بل نجد أن فيهم من يدعى النبوة كما كان من أمر أحد أفراد قبائل برغواطة، والتي كان موطنهم في إقليم تامسنا من المغرب الأقصى(١)، - كما يذكر صاحب الاستقصا-: "قبائل شتى ليس يجمعهم أب واحد، وإنما هم أخلاط من البربر اجتمعوا إلى صالح بن طريف الذي ادعى النبوة سنة ١٢٥هـ في خلافة هشام بن عبدالملك بن مروان، وتسمى بصالح المؤمنين، وشرع لأتباعه الديانة التي أخذوها عنه"(٢)، وقاسى المغرب من هذه القبيلة حيث نجد أنها تدخل في صراعات مع حكام المغرب قبل مجيء المرابطين- كالأدارسة والأمويين والزناتيين- والذين ألحقو بها هزائم منكرة(٣)، وعندما قامت

---

(١) إقليم تامسنا (Tamasna): هو أحد أقاليم مملكة فاس، وتامسنا كلمة بربرية، بلهجة زناتة، تعني البسيط الخالي، أطلقت على المنطقة السهلية الممتدة على ساحل المحيط الأطلسي من الرباط إلى الدار البيضاء، وعلى وجه التحديد فإن حد تامسنا مدينة سلا أي الضفة الشمالية لنهر أبي رقراق، وحده الجنوبي آسفي، وقد عرفت هذه المنطقة بالشادية. (انظر: سحر السيد عبدالعزيز سالم، من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص٦٣).

(٢) السلاوي، ج٢، ص١٤.

(٣) (انظر:ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٧٢_١٧٣ ، البكري: أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي، المغرب =

دولة المرابطين استمرت محاولاتهم في القضاء عليهم[١].

و بالإضافة إلى برغواطة وانحرفها عن الاسلام ، نجد الكثير من فرق الشيعة والتي كانت تسكن جنوبي المغرب في أقصى بلاد السوس، وكانوا عبارة عن أقليّات مُبعثَرة[٢] ،وأن كان انتشارهم في مدينة ترودانت ونواحيها[٣] تحديدا.

وهكذا يبدو لنا كيف كان واقع بلاد المغرب الأقصى قبيل قيام دولة المرابطين؛ حيث كانت هذه المجتمعات تعاني التفكك السياسي وعدم الاستقرار الحضاري الذي يمكنها من تأسيس دولة قوية كدولة المرابطين، بل كانت قبائل مستقلة، كل أمير من أمرائها عمل على فرض سيطرته ،كما غرقت إماراتهم في الانحراف والفساد ، وكثرة الظلم، وانتشار العسف والجور[٤].

الوضع السياسي للمجتمعات الأندلسية عند ظهور المرابطين:

١) عصر ملوك الطوائف الأول (٤٢٢ – ٤٨٤ هـ):

أما بالنسبة لملوك الطوائف فهم من عصبيات مختلفة: عربًا وبربرًا ومولدين، يتنازعون فيما بينهم ويحارب بعضهم بعضًا، وكان يستنجد بعضهم بملوك النصارى على بعض، حتى إنهم مقابل هذا العون كانوا يدفعون الإتاوة إلى الملوك النصارى واستمر الوضع على هذه الحال حتى قضى يوسف بن تاشفين نهائيًّا على ملوك الطوائف سنة (٤٨٤هـ/١٠٧١م).

في ذكر بلاد إفريقية والمغرب جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٩م، ص١٢٢،)، (ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٤٣٣)، (السلاوي، الاستقصا، ج٢، ص١٨).

(١) كان قضاؤهم عليها كدولة لها مقومات الدولة، إلا أنهم لم يقضوا عليها كعصبية اجتماعية؛ بدليل أن برغواطة عادت إلى الظهور في عهد الموحدين. (انظر: سحر السيد ، برغواطة، ص٦٧).

(٢) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج١، ص٧٦.

(٣) مدينة ترودانت: مدينة عظيمة، من اعرق مدن المغرب بمنطقة السوس، تقع جنوب الاطلس الكبير، أسسها الأفارقة الأقدمون، بسط المرينيين نفوذهم عليها واتخذوها مركزا لاقامة نائب السلطان في هذا الاقليم، لكن سرعان ما تدهورت احوال المدينة حيث عمها الخراب لتصبح مركزا ثانويا، وأهل تارودانت اناس مسالمون لا يسيؤون الى جيرانهم. (انظر: الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج١، ص١١٧_١١٧).

(٤) البكري، المغرب، ص١٣٦-١٣٨.

ويصف لنا ابن الخطيب هذا الوضع السيئ بقوله: "ذهب أهل الأندلس من الانشقاق، والانشعاب والافتراق، إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار مع امتيازها بالمحل القريب، والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في الفروسية نسب، ولا في شروط الإمامة مكتسب، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار، وجبوا العمالات والأمصار، وجندوا الجنود، وقدموا القضاة، وانتحلوا الألقاب"(١).

وعلى الرغم من هذا التنازع فيما بينهم ومن قصر فترة حكم ملوك الطوائف، إلا أن التنافسات بين ملوك الطوائف انعكست إيجابًا على الحياة العلمية، حيث كان الأدب في ذروته، كما تنافسوا في مجالس الأدب، وفي تشجيع الشعراء والكتاب (٢).

وهكذا ازدهرت الحياة العلمية وتطورت تطورًا عظيمًا لتنافس الأمراء ، وبذلك أصبحت عواصم الأندلس في هذه الحقبة ملتقى للعلماء ، وكان ملوك الطوائف يستقدمون كبار علماء المشرق ويعقدون لهم مجالس للمناظرة(٣)، وبهذا ازدهرت دولهم ازدهارًا كبيرًا في الجانب العلمي في الوقت الذي تفرقت الأندلس إلى دويلات صغيرة في الميدان السياسي.

وجاء المرابطون ليرثوا ما خلفه ملوك الطوائف من حضارة غنية بالثقافة والأعراف الأندلسية أيضًا، التي أصبحت تجري في شريان الدولة المرابطية أيضًا على الرغم مما اتسمت به هذه الدولة من نزعتها الدينية؛ _كما ذكرنا سابقًا_.

٢) الأقليات غير المسلمة:

نبع احترام المرابطون لغيرهم ممن خالفهم بالدين بتقيدهم بأحكام الشريعة مع أهل الذمة، سواء من النصارى أو اليهود، فمن مظاهر الحرية التي تمتعوا بها بالأندلس في عهد المرابطين على سبيل المثال، انتشار مراكزهم الدينية في الحواضر المغربية والأندلسية خاصة في عهد علي بن يوسف(٤).

---

(١) أعمال الأعلام، ص ١٤٤.

(٢) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج٢، ص١٩٩.

(٣) حسن علي، الحضارة الاسلامية ،ص٤٢٢.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٧٧.

كذلك كان لليهود حرية الاختلاط مع المسلمين، وأثبتت ذلك الوثائق والنوازل وفي تلك الفترة[1].

أيضًا من مظاهر هذا التعايش الاجتماعي اختلاط المسلمين بالنصارى في كثير من الأماكن، فحياة النصارى تدل على أنهم كانوا يحتلون مكانة اجتماعية متميزة حيث أقاموا في الحواضر الأندلسية الرئيسية؛ مثل غرناطة وإشبيلية وبلنسية ومالقة وغيرها من المدن الهامة[2]، وقد دأبوا على سكن أحياء خاصة بهم مراعاة لتقاليدهم وخصوصياتهم، غير أن ذلك لم يحل دون مخالطتهم للمسلمين[3].

ذلك كله رغم تحذيرات الفقهاء من التعامل مع النصارى واليهود، ونجد ذلك واضحًا في رسالة القاضي ابن عبدون؛ حيث ذكر "أنه يجب ألا يحك مسلم اليهودي، ولا النصراني، ولا يرمي زبله، فاليهودي والنصراني كانوا أولى بهذا الصنع؛ لأنها صنع الأرذلين، لا يخدم مسلم دابة يهودي، ولا نصراني، ولا يستزمل له، ولا يضبط بركابه، وإن عرف هذا أُنكر على فاعله"[4].

وما نستشفه من هذه الفتوى التي أصدرها ابن عبدون وغيرها من الفتاوى أنها تقف دلائل حقيقية على الاختلاط في المجتمع المرابطي الأندلسي والمغربي للمسلمين مع أهل الذمة، مما حدا بابن عبدون إلى إصدار تلك الفتوى من منطلق شرعي.

إن تحذير ابن عبدون من تقليد اليهود والنصارى للمسلمين في لباسهم وهيئاتهم يبين ويدل على التأثير المتبادل بين الأمتين في بلاد الأندلس.

---

(١) ابن سهل، الأحكام الكبرى، ص٦٢٨.

(٢) مجهول، الحلل الموشية، ص٩١-٩٢.

(٣) شمس الدين الذهبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتاب العلمية، لبنان، ١٩٨٥م، ج٢، ص٤٥٢-٤٥٨.

(٤) رسالة في القضاء والحسبة، ص٤٨.

ومما لا شك فيه أنه كان لاختلاط أفراد المجتمع الإسلامي في عصر المرابطين بتلك المجتمعات المتباينه في ديانتها أو نزعتها الفكرية أو القبلية أو السياسية أثره الواضح على المرأة المرابطية ويمكن إجمال ذلك التأثير والتأثر بما يلي:

١) ما خلفه ملوك الطوائف من نهضة علمية في مجال العلوم والأدب ورثه المرابطون عنهم وأدى ذلك إلى ظهور شريحة كبيرة من النساء المرابطيات اشتهرن بالعلم والأدب.

٢) كذلك نتج عن احتكاك المرابطين بالنصارى إلى أن انتشرت ظاهرة الزواج والتسري بالنصرانيات، مما أدى إلى اعتناق بعضهن الإسلام، فأصبح لهن مقام مرموق عند بعض الحكام، وقد كان لبعض من هؤلاء النساء دور خطير من الناحية السياسية والإدارية؛ ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قمر زوجة يوسف بن تاشفين التي اتضح دورها بتولي ابنها منه- علي بن يوسف بن تاشفين- الحكم، ثم استخدم بدوره النصارى في بلاطه[١].

٣) نستطيع أن نستشف أيضًا أن ضم الأندلس لدولة المرابطين، قد أسهم أيضًا في تكوين العلاقات الاجتماعية مع شرائح المجتمع المغربي، وأدى ذلك إلى المصاهرة العائلية بينهما[٢]، وبذلك كان للمرأة المرابطية- باعتبارها أحد أفراد الأسرة- دور فعال في الحياة الاجتماعية من حيث العمل على تثبيت كيان المجتمع المغربي الأندلسي.

٤) جلب الكثير من العادات الأندلسية إلى المغرب الأقصى، والعكس؛ مثل العادات في الزواج؛ _كما أشرنا سابقًا_، وغيرها من عادات أخرى أثرت على المرأة المرابطية.

٥) أدى التفاعل المتبادل بين الأجناس والأعراق والمذاهب المختلفة داخل المجتمع المرابطي، إلى تأسس عادات وتقاليد مشتركة سرت بين الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً. ويمكن أن ندلل على ذلك من خلال ما أشار إليه القاضي ابن عبدون من أن بعض النساء كن يزرن الكنائس ربما للتفرج على الاحتفالات الدينية والمواكب التي تجري فيها بمناسبة الأعياد بصحبة صديقاتهن النصرانيات[٣].

---

(١) مجهول، الحلل الموشية، ص٦١-٦٢.

(٢) النباهي المالقي الأندلسي، تاريخ قضاة الأندلس، ص١٠٨.

(٣) رسالة في القضاء والحسبة، ص٤٨-٤٩.

وبعد هذا العرض للعوامل المؤثرة في نشاط المرأة المرابطية تبين لنا أن هذه العوامل كان لها أثرها الواضح في التأثير أو تأثر المرأة المرابطية بها وهذا ما سوف توضحه هذه الدراسة- إن شاء الله تعالى- في الفصول التالية، ومن الله استمد العون، وأرجو التوفيق والسداد.

الفصل الثاني
التقاليد المتعلقة بالمرأة في المغرب والأندلس في عصر المرابطين

المبحث الأول: فئات النساء.

المبحث الثاني: عادات الزواج.

المبحث الثالث: اللباس والزينة.

المبحث الرابع: انتساب الرجال إلى أمهاتهم.

المبحث الخامس: مشكلات المرأة الاجتماعية.

-المبحث الأول: فئات النساء.

كانت القبيلة في العصر المرابطي هي القاعدة التي نشأ عليها التنظيم الاجتماعي في المجتمع المرابطي، وكان لقوة تأثيرها دور كبير في بناء المجتمع المرابطي، وحتى بعد أن عرفت الدولة المرابطية شيئًا من التمدن نجد أن تأثير القبيلة بقي في كثير من أعرافها وعاداتها، وخصوصًا في المغرب في عهد يوسف بن تاشفين، لكن الدولة المرابطية بعد عصر يوسف بن تاشفين بدأ نمط حياتها في التغير، لاسيما بعد ضم الأندلس؛ إذ إن مظاهر الرخاء والغنى ما لبثت أن ظهرت ملامحها في وسط المجتمع المرابطي.

مما نتج عنه تقسيم المجتمع إلى فئات اجتماعية تتفاوت من حيث المكانة الاجتماعية في الدولة، وقد أشار الباجي إلى أن المجتمع المرابطي يتكون من شريحتن: الخاصة، والعامة[(١)].

ويمكن تقسيم المجتمع المرابطي على أساس معيار أخلاقي إلى ثلاث فئات كما يذكر الحضرمي" فئة ينتسب أهلها إلى الوجاهة والكرم والفضل، وفئة عد أهلها من اللئام، ثم فئة تتوسط بينهما" [(٢)].

ومما لاشك فيه أن هذا التباين في الحياة الاجتماعية في المجتمع المرابطي كان له أثره على المرأة؛ حيث يمكن تقسيم فئات النساء حسب مكانتها الاجتماعية إلى ما يلي:

– القسم الأول نساء الخاصة:

والمقصود بهن: نساء علية القوم من السلاطين والأثرياء والوجهاء وغيرهم.

وهذه الفئة اهتم المؤرخون بأخبارها للسببين التاليين:

١) أنها كانت تعيش في قصور الأمراء والوزراء وكبار رجالات الدولة والتي اهتم المؤرخون

---

(١) أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي، فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام، تحقيق محمد أبو الأجفان، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١٠٥.

(٢) أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتاب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص٤٥.

بذكرهم[1]، ولم يتركوا قصصهم النادرة دون ذكر مجموعة من نساء هذه الطبقة من أمثال: زينب النفزاوية، والأميرة حواء، وتميمة، وغيرهن من بنات الأمراء المرابطين.

٢) كذلك اهتمام الشعراء والأدباء بهذه الفئة؛ حيث تحدثوا عن قدراتها الثقافية والاجتماعية، واستعرضوا محاسنها وصفاتها الحسنة؛ ليرفعوا من مكانتهم لدى الحاكم ويحصلوا بالتالي على ما يريدون من صلات، فقد كتب ابن خفاجة إلى الأميرة مريم بنت الأمير أبي بكر بن تيفلويت قصيدة طويلة يمتدحها ويتشفع بها إلى زوجها الأمير أبي الطاهر تميم، ومما قاله في هذا:

وكفى احتماء مكانة وصيانة أني علقت بذمة من مريم
ذات الأمانة والديانة والتقى والخلق الاشرف والطريق الأقوم
ذات الجلالة والجزالة والنهى والبيت الارفع والنصاب الأكرم[2]

وكانت هذه الفئة تشمل مجموعة من النساء في الدولة المرابطية؛ وهن:

١) نساء أقرباء السلطان، وهذا ما يمكن لنا أن نستشفه من دعوة يوسف بن تاشفين أقرباءه سنة ٤٧٠ هـ[3] للالتحاق به في مراكش وتوليته إياهم الأعمال والأشغال؛ فاكتسبوا الأموال وأصبح لهم وجاهة وشأن.

وقد أمدتنا كتب النوازل بمعلومات قيمة عن هذه الفئة[4] والتي تفيد بأن الأميرات من أسرة بني تاشفين كن يتمتعن بثراء واسع وثقافة عالية، بالإضافة إلى الوازع الديني الذي كن يتحلين به، ويمكن أن نلمسه في كثرة صدقاتهن على الفقراء والمساكين واليتامى بالمغرب والأندلس والأوقاف الخيرية، ومن هذا ما أورده ابن رشد عندما سئل عن يمين حلفت بها الأميرة حواء بنت تاشفين[5] فقد حلفت بعد وفاة زوجها بثلث مالها صدقة للمساكين، وكذلك إعتاق

(١) (انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٤٦- ٤٨- ٧٩، أبو زرع، الأنيس المطرب، ص١٧٠_١٧١، ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج٢، ص١٧٠- ١٧١).

(٢) ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة الأندلسي، ص١١٤-١١٥.

(٣) مجهول، الحلل الموشية، ص٢١- ٢٢.

(٤) (انظر: ابن رشد، مسائل ابن رشد، ج١، ص١٢٢- ١٢٣، ابن سهل، ديوان الأحكام، ص٦٣- ٦٤، القاضي عياض، مذهب الحكام في نوازل الأحكام، ص٢٣٤).

(٥) ابن رشد، مسائل ابن رشد، ج٢، ص١٠٧٧.

رقيقها لوجه الله وصيام سنة(*).

٢) نساء الولاة؛ حيث كان للولاة مكانتهم الاجتماعية المرموقه،كما تقاضى رواتب كبيرة تؤهلهم لأن يكونوا من فئة الخاصة، وكان معظم الولاة ينتمون إلى لمتونة، ويشير ابن الخطيب إلى أن ابن الصيرفي[١] ذكر أن الأمير مزدلي بن سولنكان وأبناءه[٢] قد لاقوا حظوة كبيرة عند يوسف بن تاشفين؛ إذ أعلى رتبهم وأجزل حظوتهم فسكنوا القصور وتفننوا في أصناف الترف واستخدموا عبيدًا وخدمًا وجواري، وكان لهم دور في الحياة الاجتماعية نتيجة وضعهم المادي الجيد[٣].

٣) نساء الوزراء والكتاب؛ نظرا لأهمية مهنة الكتابة التي حتمت عليهم مخالطة الملوك، فلا يكاد يخلو أي بلاط سلطاني منهم، فعلى سبيل المثال في عهد علي بن يوسف؛ نجده يستقدمهم إلى بلاطه ويسكنهم القصور الفاخرة و الضياع ،كما ملكوا الخدم والعبيد والغلمان[٤].

٤) كذلك من الطبيعي أن تنتمي نساء قادة الجيش إلى هذه الفئة، حيث اهتمت دولة المرابطين بالجيش ، كما خصصت قسم كبير من نفقات بيت المال للجيش، فالمصادر التاريخية تشير إلى تلك المكانة التي يحتلها قادة الجيش من ألقاب[٥].

(*) انظر: نص فتوى ابن رشد في يمين حواء بنت تاشفين كاملة في ملاحق هذه الدراسة، (٣: ١٩٥).

(١) ابن الصيرفي: أبو زكريا يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي، يعرف بابن الصيرفي، محدث، مؤرخ، لغوي، أديب، كاتب، وشاعر، عاش في مدينة غرناطة في عصر الدولة المرابطية، عمل كاتبًا ووزيرًا للأمير المرابطي أبي محمد تاشفين بن علي بن يوسف، ألف كتاب الأنوار الجليلة في أخبار الدولة المرابطية، وكتاب الأنباء في سياسية الرؤساء، توفي في غرناطة، سنة٥٧٠هـ. (انظر: عبدالواحد طه، تراث وشخصيات من الأندلس، ص١١٩- ١٢٠).

(٢) الأمير مزدلي بن سولنكان، ابن عم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، من كبار المرابطين، صفاته: (عظيم الجلد، شهير الذكر، أصيل الرأي، مستحكم الحنكة)، استولى على بلنسية سنة٤٩٤هـ، ثم تولى تلمسان سنة ٤٩٧هـ، وفي سنة ٥٠٥هـ عين على قرطبة، وغرناطة، والمرية، له من الأبناء: عبدالله، ومحمد، من القاده الذين كان لهم جهود بارزه في دولة المرابطين، توفي مزدلي سنة ٥٠٨هـ . (انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص ٢٧٤).

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص ٢٠٧.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج٣، ص ٢٣٢.

(٥) ونستدل على المكانة الاجتماعية المرموقة التي تبوأها قادة الجيش، بما وصفه ابن أبي الخصال لأحد قادة العسكر بأنه: =

كذلك تشير إلى أنهم سكنوا القصور بجوار بلاط الأمراء ولم يختلطوا البتة بعامة الناس، وكانت لهم أحياؤهم الخاصة في مراكش وجل المدن المغربية والأندلسية، حتى إن تلمسان كانت عبارة عن مدينتين قديمة وحديثة، تسكن القديمة الرعية، والحديثة سكنها وبناها المرابطون سلاطين المغرب ويسكن فيها الجند وأصحاب السلطان[1].

٥) وهناك نساء القضاة، حيث بلغ القضاة في هذا العهد شأن عظيم، ومنحوا سلطات واسعة لا حدود لها؛ وهذا يتضح جليًا في رسائلهم؛ مثل الرسالة التي بعث بها أمير المسلمين علي بن يوسف إلى أحد نوابه يلح فيها على استشارة القاضي على الخصوص، ومن فصولها: "فيجب أن تشاوره في كل ما تأتي وما تذر، وتورد وتصدر، وتقدم وتؤخر، فلن تعدم منه مشيرًا نصيحًا، وظهيرًا مشيحًا، أو طبيبًا للعلل مريحًا، ورأيًا خالصًا صريحًا"[2].

٦) نساء الفقهاء، وهناك نصوص كثيرة تدل على أن بعض الفقهاء قد عاشوا حياة الترف والبذخ، وسكنوا القصور والدور الفاخرة، وملكوا العبيد والمماليك، وتأنقوا في المأكل والملبس وتسروا بالنساء، واستغلوا نفوذهم في البيع والشراء، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن اتخذ لنفسه ألقاب؛ كابن حمدين الذي تسمى بأمير المسلمين والمنصور بالله[3].

٧) وهناك أيضًا نساء بعض الأطباء الذين خدموا السلاطين، ويمكن تسميتهم بأطباء البلاط؛ مثل ابن زهر، وهؤلاء لاقوا وضعية اجتماعية مرموقة بسبب قربهم من أمراء الدولة

(يد الدولة العزيزة). (انظر: ابن أبي الخصال، أبو عبدالله بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، رسائل ابن أبي الخصال، تحقيق محمد الداية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ص٤٥- ٥٢).

(١) شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٨٩م، ج٢، ص٤٤.

(٢) حسين مؤنس، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٧٧.

(٣) ابن حمدين: هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن حمدين التغلبي، ولي قضاء قرطبة بعد أبي عبدالله بن الحاج سنة ٥٢٩هـ، ثم صرف عنها سنة ٥٣٢هـ، وأعيد إليها مرة أخرى بعد أن استعفى ابن رشد عن القضاء، كما صرفت إليه الرياسة عندما اختل أمر المرابطين، وهو على قضاء قرطبة، ودعى له بالإمارة سنة ٥٣٩هـ، وتسمى بأمير المسلمين المنصور بالله، وكانت ولايته أربعة عشر شهرا، أصابته محن خلالها، أدت إلى رحيله لمالقة حيث توفي بها سنة ٥٤٧هـ. (انظر: أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٠٣-١٠٤).

المرابطية، وقد ظهرت في هذه الأسرة طبيبتان ماهرتان في تطبيب النساء؛ هما: أم عمرو ابنة عبدالملك وابنتها[١].

٨) الشاعرات أو نساء الشعراء، فقد حظي بعض الشعراء بعطف السلاطين؛ كعبدالملك بن هذيل[٢] الذي حظي بمكانة عند علي بن يوسف، فولاه ولاية شنت مرية الغرب، على الرغم من أن الفئة العريضة من الشعراء أصبحت ضمن الطبقة العامة بسبب سوء الأوضاع.

ومن الشاعرات الشهيرات في عصر المرابطين بالأندلس: الشاعرة نزهون الغرناطية، التي حفظت الشعر وأجادت المعرفة بضرب الأمثال، وكانت لها مساجلات مع الشاعر الوشاح ابن قزمان شاعر عصر المرابطين.

٩) وهناك نساء العائلات الوجيهة التي ورثت مكانتها عن أسلافها، وازداد غناها في عصر المرابطين؛ كبيت التجيبي بمرسية[٣]، وبني حمدين بقرطبة[٤]، وقد أشارت الكثير من النوازل إلى بعض البيوت الكبرى في الأندلس خلال عصر المرابطين والتي تنتمي إلى الفئة الخاصة، وكان أفراد تلك العائلات يتمتعون بالوظائف العالية في خدمة الدولة، واستطاعوا تكوين ثروات ضخمة علاوة على الممتلكات من العقارات والأراضي والضياع[٥].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٣، ص١٤٤.

(٢) ابن هذيل: أبو مروان عبدالملك بن هذيل بن خلف بن لب بن زرين، ذو الرياستين، ملك شنت مرية الشرق، وتسمى في أول ولايته حسام الدولة، ثم تسمى ذا الرياستين، برع في الأدب، وفي النظم، والنثر، له في الثغر وقائع مشهورة، كان من أقره يوسف بن تاشفين، فلم يتغير له حال إلى أن توفي. (انظر: ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق١، ص٥٢).

(٣) البلفيقي: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الإبياري، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٨٥م، ص١٣٤- ١٣٥.

(٤) ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م، ج١، ص ١٦٢.

(٥) الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، ١٩٨١م، ج٥، ص٣٩- ٩٩.

فقد عاشت هذه البيوتات حياة الدعة والترف فسكنت الدور الفخمة والقصور، كما لبست نساء هذه الطبقة أفخم الملابس وأبهى مظاهر التأنق، بحيث تميزت عن غيرها من النساء[١].

وبهذا العرض يبدو لنا أن النساء اللائي ينتمين لهذه الفئة الخاصة تعتمد بشكل كبير على المكانة التي يحتلها الأب أو الزوج أو الأسر العريقة التي احتلت مناصب هامة في عهد المرابطين، وبالتالي تصنف المرأة ضمن هذه الفئة.

أما وضع المرأة المرابطية في فئة الخاصة، فإن استقراء تاريخها يبين لنا أنها اكتسبت داخل المجتمع المرابطي مكانة مرموقة ودورًا وتأثيرًا كبيرًا؛ إذ تمتعت نساء الأمراء والقادة والفقهاء وغيرهن من نساء هذه الفئة بسلطة ونفوذ كبيرين.

كما تبين لنا أن نساء القصور اللواتي ينتمين إلى الفئة الخاصة كن من الحرائر والجواري، وكان قد مر معنا على سبيل المثال أن فاض الحسن- زوجة يوسف بن تاشفين وأم علي بن يوسف بن تاشفين- هي جارية نصرانية، وكانت لهنّ حظوة في القصور[٢].

كذلك حظيت كثير من نساء هذه الفئة بالتعليم والثقافة العالية؛ حتى إننا نجد الكثير منهن قد أجدن الشعر والأدب والثقافة والسلطة السياسة[٣]، وكانت الشاعرات منهن يحضرن مجالس الشعراء ويتناقل الرجال أشعارهن، وهذا كان سببًا في شهرتهن ومكانتهن الاجتماعية[٤]، ومن النساء المرابطيات اللواتي عرفن واشتهرن في الثقافة والشعر والأدب: تميمة بنت يوسف بن تاشفين وعظمت شوكته، اشترى جملة من العبيد السودان، وبعث إلى الأندلس، فابتيع له بها

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٢٦- ٢٧.

(٢) مجهول، الحلل الموشية، ص ٥٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٩٩.

(٤) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج١، ص١٧٣.

(٥) المصدر السابق: ج١، ص١٧٣- ١٧٤.

جملة من الأعلاج، فأركب الجميع"[1]، فقد أصبحت القصور في عصر المرابطين تعج بالعبيد والخدم؛ مما وفر أسباب الرفاهية لنساء تلك الفئة.

– أما القسم الثاني من فئات النساء فهو نساء الحاضرة:

فالحضر: خلاف البدو، والحاضر: خلاف البادي، وفي الحديث: **(لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ)**، الحاضر: المقيم في المدن والقرى، والبادي: المقيم بالبادية[2].

والحاضرة: خلاف البادية؛ وهي المدن والقرى والريف؛ سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون بها القرار[3].

كما عرف ابن خلدون الحضر والبدو بأنهم "المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم، أما أهل البدو فهم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام ومقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال، ومقتصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي فيتخذون البيوت من الشعر أو الوبر أو الشجر وإنما هو بقصد الاستظلال، ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي أو الكمالي وسابق عليه لأن الضروري أصل والكمال فرع ناشئ عنه فالبدو أصل المدن والحضر، وسابق عليهما لأنه أول مطالب الإنسان"[4].

ونساء الحاضرة هنّ النساء اللاتي سكنَّ المدن والحواضر الصغيرة، ويمكن لنا أن نقول: إن نساء فئة الحاضرة هنّ نساء (فئة العامة في المجتمع)[5].

وإذا كانت النوازل والفتاوى قد أمدتنا بمعلومات لا بأس بها عن الرعية في عهد المرابطين، فإن مؤرخي هذه الفترة لم يقدموا لنا تلك الصورة الواسعة عن وضع المرأة في الحاضرة؛ كما

(١) البيان المغرب، ج٤، ص٢٣.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ح ض ر)، ج٢، ص٩٠٦.

(٣) المصدر السابق: مادة (ح ض ر)، ج٢، ص٩٠٧.

(٤) مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبدالواحد، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٩م، ج١، ص٢٢٤.

(٥) فئة العامة في المجتمع: هي شرائح اجتماعية متنوعة شكّل دخلها المحدود القاسم المشترك بينها، فشملت: الحرفيين، وصغار التجار والباعة المتجولين، والمستخدمين والأجراء، وأصحاب المهن الوضيعة، والمزارعين، والرعاة، والمعلمين، والطلبة، وأئمة المساجد، بالإضافة إلى المهمشين والعبيد. (انظر: بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص١٧٠).

قدمت تلك الصورة عن المرأة في فئة الخاصة؛ لأسباب أهمها:

١) انحصار عمل المرأة داخل الوسط الاجتماعي بالقيام بالشؤون بيتها، بجانب اشتغال بعضهن ببعض الأعمال رغبة في الكسب[١]؛ وبذلك لم يكن لها دور في الساحة السياسية التي كانت في الغالب محط اهتمام لدى المؤرخين.

٢) نلاحظ أيضًا أن نساء فئة الخاصة عاشت حياة البذخ والترف التي تجعلها قريبة من أضواء الشهرة بما تمتلكه من نفوذ وثروة وجاه، بخلاف نساء الحاضرة التي تكون عادة متمسكة بالتقاليد أكثر من الخاصة، وتعيش ظروفًا حياتية متقلبة.

ويمكن تقسيم نساء الحواضر إلى قسمين هما:

١) نساء الفئة المتوسطة الحال:

بالنسبة للفئة متوسطة الحال أو الدخل، فقد ضمت هذه الطبقة " شرائح اجتماعية متنوعة؛ من تجار وصيارفة ويهود وأرباب حرف وأصحاب مهن حرة من مهندسين وأطباء، فضلاً عن أصحاب الوظائف المتوسطة وأهل العلم، إلا من كان قريبًا من البلاط المرابطي وأمرائه وأعيانه"[٢].

ونساء هذه الفئة كانت تعيش حياة مقبولة ونوعًا من الرفاهية، ويقتصر عملها داخل البيت، وربما اقتنت هذه الفئة الجواري والإماء تشبهًا بنساء الخاصة أكثر من أنه يعود إلى وفرة المال والحاجة لهنّ للعمل داخل البيت أو خارجه؛ فقد أشار ابن الزيات إلى أن أبا زكريا الجرواي كان عنده جارية تخدمه وتطحن له مع ضيق حاله[٣].

٢) نساء فئة العامة من الحواضر:

وتشمل هذه الفئة معظم النساء في عهد المرابطين؛ ونظرًا لضيق ذات اليد لم يهتم المؤرخون بهم، بل إن بعض الكتاب وصفهم بالأنذال والسفهاء والرعاع والهمج، إلى غير ذلك

---

(١) السقطي، رسالة في آداب الحسبة، ص٥٥.

(٢) بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص ١٦٠.

(٣) التشوف، ص١٤٠.

من عبارات الذم الأخلاقي[1]، بل دعا الحضرمي إلى تجنب مجالستهم، وأغفل إبراز دورهم في بناء المجتمع وتطوير الاقتصاد[2]، وكان مستوى عيش نساء هذه الفئة متواضعًا، لاسيما في عهد علي بن يوسف (٥٠٠هـ- ٥٣٧هـ)، حيث الفتن والنوازل التي عصفت بالدولة في عهده؛ من مجاعات وقحط[3] وانشغاله بالحروب[4]، أثرت تأثيرًا واضحًا على أحوال المجتمع فازدادت أوضاعها سوءًا.

فنجد الكثير من النساء اتجهن إلى العمل ، بل نجد أن بعضهن قد تعمل نصف النهار من أجل أن تأخذ أجرًا زهيدًا آخرَ اليوم؛ فيذكر السقطي أن الوزان صاحب القمح في السوق يواعد نساء من السعاة يكنسنه ويجمعنه ويقتسمنه مع الوزان آخر النهار [5]؛ كذلك اشتغلن بالكثير من الحرف من غزل الصوف وبيع السلع[6].

وكان خروج نساء الحواضر لميدان العمل ناتجًا لسببين هما:

١) مساعدة الزوج في كسب لقمة العيش إلى جانب تربية أطفالها وتدبير شؤون منزلها[7].

٢) قد يعود ذلك إلى عادات ورثها المجتمع المرابطي، وذلك بدفع النساء للعمل كنساء أهل السوس وأغمات، حيث يقول البكري: "وأهل السوس وأغمات أكثر الناس تكسبًا وأطلبهم للرزق، يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب"[8].

---

(١) (انظر: ابن عبدون، رسالة في الحسبة، ص٢٠- ٢١، الحضرمي، الإشارة في تدبير الإمارة، ص٣١).

(٢) الإشارة في تدبير الإمارة، ص٤٥- ٤٦.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٤٩.

(٤) مجهول، الحلل الموشية، ص١٤٣.

(٥) كانت بعض النساء تجلس عند أصحاب الرحى في الأسواق فإذا جاء الناس لكي يطحنوا قمحهم، تقوم النساء بجمع المتساقط منه على الأرض ثم تبيعه أو تقتسمه مع صحاب الرحى. (انظر: رسالة في آداب الحسبة، ص١٦).

(٦) ابن الزيات، التشوف، ص١١٧- ١١٨.

(٧) البيذق، أخبار المهدي، ص٢١.

(٨) المغرب في ذكر بلاد إفريقية، ص ١٦٣.

كانت نساء هذه الفئة تشارك الرجل في العمل وتساعد في تأمين رزق العائلة، وكثيرًا ما عاشت ظروفًا صعبة؛ كما نستشفه من الحديث عن أبناء هذه الطبقة في كتب النوازل.

ومنها إحدى نوازل ابن رشد التي تشير إلى وجود الحاضنة أو المربية التي كانت تحصل على أجرة معينة يتفق عليها نظير قيامها بهذا العمل[١]، كذلك يسرد لنا ابن الزيات في إحدى ترجماته عن امرأة تصنع من صوف بعض الأضحية عباءة لزوجها[٢].

أما نصيب المراة من التعليم في هذه الفئة ، فقد كان إمكان المرأة أن تتعلم الخط والنحو والشعر، ولم يقتصر ذلك على نساء الطبقة الخاصة؛ فقد احترفت مئات من نساء الحواضر نسخ المصاحف وكتب العبادات التي يكثر الإقبال عليها، وكن يبعنها فيما بعد إلى الوراقين؛ لما يمتزن به من إتقان كبير ومهارة في الكتابة[٣].

– القسم الثالث من فئات النساء هو نساء البادية:

والمقصود بهذه الفئة النساء اللائي عشن خارج الحواضر والمدن، فقد وصف السلاوي أهل البادية من المرابطين بقوله: "فيهم قوم لا يعرفون حرثًا ولا زرعًا ولا فاكهة، وإنما أموالهم الأنعام وعيشهم اللحم واللبن، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزًا إلا أن يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق، وإنما قيل لهم الملثمون؛ لأنهم يتلثمون"[٤]؛ فأهل البادية هنا هم من سكن الصحراء وتنقل فيها من أجل مواشيهم.

كذلك يدخل ضمن مصطلح أهل البادية من سكن في القرى الصغيرة [٥]، فهي تتكون من تجمع أصغر للسكان في مناطق الريف[٦].

---

(١) مسائل ابن رشد الجد، ج٢، ص ٩٩١.

(٢) التشوف، ص١٠٦

(٣) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج٢، ص٥٣٣.

(٤) الاستقصا، ج٢، ص٣-٤.

(٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٢٤.

(٦) البكري، المغرب، ص١٤٣.

فكانت هذه القرى في عصر المرابطين تعتمد على الزراعة بالإضافة إلى تربية المواشي(١).

ومن خلال ذلك يمكن أن نقسم نساء البادية في عصر المرابطين إلى قسمين؛ هما:

١) نساء القرى في الأندلس وبعض بلاد المغرب:

حيث كانت القرية تتميز ببساطة الحياة فيها فهي ليست مترفه كما هو الحال بالمدينة، وقد انعكس أثر ذلك على حياة المرأة في القرية؛ فنجد أن المرأة في القرية كانت تقوم بالأعمال المنزلية من إعداد طعام العائلة، فيذكر ابن الزيات عن رجل أمر زوجته أن تصنع الطعام لأحد أصحابه(٢).

وما نستشفه هنا أن المرأة في القرية كان يقع على عاتقها تدبير شؤون بيتها، بالإضافة إلى ذلك كانت أيضًا ترعى الأطفال وتقوم بتربية الصغار.

كذلك كانت تقوم نساء القرية بالعمل في الغزل؛ فكن يأخذن منتجاتهن ويبعنها في سوق المدينة القريب من القرية(٣).

وبذلك تكون نساء القرية أيضًا قد اشتغلن في التجارة من أجل أن تعول نفسها أو أبنائها.

٢) نساء البوادي بالمغرب:

نجد أن وضعية المرأة المرابطية في البادية اختلفت نسبيًّا عن نظيرتها في الحاضرة، فإلى جانب عمل البيت كانت تقوم بجمع الحطب(٤)،كذلك أسهمت في بيع ماتنتجه من بيتها سواء كان غزل او طعام كبيع اللبن(٥).

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٣٩.

(٢) ابن الزيات، التشوف، ص١٠٣

(٣) السقطي، رسالة في آداب الحسبة، ص٨٧.

(٤) الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج١، ص١٤٩.

(٥) المصدر السابق: ص٢٧٤.

فنجد أن المرأة المرابطية في البادية بشكل عام لم تكن تذق طعم الترف بل كانت تشارك الزوج في توفير متطلبات الحياة، أما من ناحية الإقبال على العلم فهي أقل فئات النساء في المجتمع المرابطي إقبالاً على ذلك؛ بسبب بعدها عن مراكز الحضارة التي تتمثل في المدن، وانشغالها في توفير احتياجات بيتها.

– القسم الرابع من فئات النساء هو الجواري:

يدرك من يستقرئ تاريخ المرابطين أن دور الجواري في ذلك العصر برز بشكل واضح، بل توغلن في الحياة الاجتماعية، وظهرن بصورة واضحة، ووصلت الجواري في بعض الأحيان إلى مراكز السلطة، وذلك يعود إلى ضعف شخصية بعض السلاطين أنفسهم، وميلهم إلى الدعة وإيثارهم الراحة في بعض مراحل الدولة، فقد وصف المراكشي حالهم بقوله: "فأما أحوال جزيرة الأندلس، فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف اختلت أحوالها احتلالًا مفرطًا، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم إلى الدعة وإيثارهم الراحة وطاعتهم النساء"(١)، مما جعل البعض من جواري القصر يتنافسن من أجل السيطرة على السلطان، وبالتالي السيطرة على السلطة السياسية.

كذلك أدت كثرة الحروب التي خاضها المرابطون إلى تدفق الجواري تدفقًا كبيرًا للدولة، فامتلأت قصور المرابطين بالجواري، فكان بعض السلاطين هم أبناء لهؤلاء الجواري، وهكذا استطاع البعض منهن السيطرة على الشؤون السياسية للدولة من خلال تولي ابنها للحكم(٢).

ويمكن تقسيم الجواري حسب الوظيفة إلى:

١) **جواري المتعة الخاصة بالقصور**: وكن يقمن بعملية ترفيه لأصحابها من تسرٍّ، ثم ما لبثت بعضهن أن صرن أمهات أولاد، وأنجبن بعض السلاطين، وهناك الكثير من القصص التي انتهت بعتق الجارية وزواج سيدها منها بوصفها امرأة حرة؛ كفاض الحسن زوجة يوسف بن تاشفين، وهذا الزواج الذي كان من ثماره تولية ابنها مقاليد الحكم(٣)، وكان لهن أيضًا دور

---

(١) المعجب، ص١٤٨-١٤٩.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٧٨- ٧٩.

(٣) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج٢، ص٤٥٦.

خطير في الساحة السياسية، يصل أحيانًا إلى احتيار أبنائهن أولياء للعهد بناء على أمر السلطان، فقد ولّى علي بن يوسف ابنه سير ابن زوجته قمر ولاية العهد، مع أن أخاه تاشفين كان يتمتع بصفات تفوق صفات سير، وكان مؤهلاً للحكم أكثر منه نظرًا لخبرته في الغزو والجهاد[1]، وهذا بلاشك بسبب سيطرتهن على رأي السلطان في اتخاذ القرارات المهمة والتي قد تؤثر على الدولة بشكل عام.

٢) **جواري الخدمة**: ويتخذن لخدمة البيوت والدور والقصور، وهن عادة ممن لسن على درجة كبيرة من الجمال والتعليم أو الثقافة[2].

٣) **جواري المنادمة والسمر**: وكن يستخدمن لتسلية أسيادهن وجلب المتعة في نفوسهم بمختلف الوسائل، وكن يتمتعن بقدر وافر من الجمال بالإضافة إلى الثقافة التي ساعدتهن على ممارسة ذلك العمل، ويختلف عددهن حسب ثروة الأسياد[3].

٤) **الخراجيات**: وهن اللائي يوفرن المتعة لطلابها بالرغم من كونها حالات شاذة ونادرة في ذلك المجتمع، فقد أثرن بشكل سيئ على الحياة الاجتماعية في عصر المرابطين، وكان وجودهن نتيجة للهو والمجون الذي انغمست فيه البلاد[4].

وبشكل عام كان الكثير من الجواري يتمتعن بقدر وافر من الثقافة والعلم؛ بسبب سعي تجّار الرّقيق إلى تعليمهنّ القرآن واللغة والشّعر والأدب والغناء والخطّ والمنطق والحساب وغيرها من العلوم والفنون من أجل رفع أثمانهن[5]، بالإضافة إلى أنهنّ عشن في كنف بيوت علم وثقافة وفكر، فنهلن منها كلّ حسب قدراتها ورغباتها، وخرجت بعضهنّ بأوفر حظّ من كلّ ذلك[6].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٧٨- ٧٩

(٢) السقطي، رسالة في آداب الحسبة، ص٤٩.

(٣) ابن حزم، طوق الحمامة، ص١٤١.

(٤) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص٥١.

(٥) السقطي، رسالة في آداب الحسبة، ص٣٧- ٣٨.

(٦) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٢٩٣- ٢٩٤.

ولعل الثّقافة الكبيرة التي حظيت بها الجواري كان لها أبلغ الأثر في استقدامهنّ لتعليم أبناء السلاطين والأمراء وأكابر رجال الدّولة وذوي اليسر، وكنّ يحصلن على مكافآت سخيّة من مستخدميهنّ، وكلّما ازداد علم الجارية وحفظها زاد الطّلب عليها وعلا شأنها بين الخاصّة والعامّة، وقد أشار ابن حزم في الطّوق إلى الكثير من القصص حول ذلك، ولا سيّما أنّه هو نفسه تتلمذ على أيدي الجواري فنهل من علمهنّ الغزير[1].

كذلك تمتعت الجواري بالنفوذ في قصور السلاطين، بل إن بعض الجواري امتلكن من النّفوذ والسّلطة ما أتاح لهنّ التّدخّل في كلّ صغيرة وكبيرة من شؤون القصر؛ وهذا ما جعل بعضهن يلجأن إلى القتل من أجل الانفراد بهذه السلطة، للتدخل في الشؤون السياسية للدولة.

فقد سجل لنا عبدالملك بن زهر فتنة الجواري والصراع الدائر داخل البلاط المرابطي؛ فقال: يصف حالة من حالات الصراع: "كانت عند الشقي علي بن يوسف جارية تسمى الثريا، أصابها عَقْرٌ في أمعائها الدقاق، وتبع ذلك إسهال مفرط وعِصار، وكلما رمت علاجها أعياني حتى أتت عليها نيف على أربعين يومًا، وقد حرت في علتها؛ فإني كنت أحسن الظن، فإذا أمعاؤها قد انسلخت طبقتها الداخلة كلها، فأوقفني الصقلبي عليها، فعجبت من حدة خلط يبلغ إلى هذا ويؤثر هذا التأثير العظيم دفعة؛ لأني تيقنت أن قمر حظيته الأعز عنده من صواحبها سمتها، فلم يكن فيها حيلة وماتت من علتها تلك"[2].

– القسم الخامس من فئات النساء هو غير المسلمات:

أدى اتساع رقعة دولة المرابطين وبسط نفوذها على بلاد الأندلس إلى دخول طوائف وأجناس متعددة من البشر إلى كنف الدولة المرابطية، ولقد امتزج المجتمع المرابطي مع هذه الطوائف من أهل الذمة سواء نصارى أو يهود.

وقد أدى هذا التوسع إلى انعكاسه على أرض الواقع؛ فالمصادر تفيض بذكر أخبار زواج الأمراء المرابطين بالنصرانيات[3]، وانتشار الجواري الروميات في كبريات المدن، وشيوع ظاهرة

(١) ابن حزم طوق الحمامة، ص١٤١.

(٢) ابن زهر: أبو مروان عبدالملك بن مروان بن زهر الإشبيلي، التيسير الجامع في المداواة والتدبير، تحقيق أحمد مزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧ م، ص٢٥٠.

(٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٦٨ـ٢٠٨.

التسري بالجواري الصقلبيات[1].

ولعل ذيوع عادة زواج المسلمين بالنصرانيات ما جعل ابن الحاج يضمّن في نوازله صيغة عقد نكاح الكتابية، مشيرًا إلى أن هذا العقد لا يختلف عن عقد نكاح المسلمة، فإن كان لها ولي أمر ذكر في نص العقد، وإن لم يكن لها ولي عقد نكاحها أساقفة أهل دينها[2].

أما بالنسبة للزواج من يهوديات، فلم يكن هذا النوع من الزواج موجودًا، والسبب في ذلك أن الديانة اليهودية تحرم زواج نساء اليهود برجال من غير اليهود[3].

كذلك نجد بعض النصرانيات عقدن صداقات مع نساء المسلمين على الرغم من تحذير ودعوة ابن عبدون إلى تجنبهن، بل نجد أن نساء المسلمين كن يذهبن مع النصرانيات إلى الكنسية[4].

أما التأثير الديني على النساء النصرانيات فتجلى في اعتناق بعضهن الإسلام؛ فقد ذكرت نوازل ابن الحاج أن رجلاً تصدق على زوجته النصرانية بدار على أن تدخل الإسلام فأسلمت[5]، كذلك ذكر ابن رشد عن رجل تنصر وتزوج في أرض العدو من نصرانية وأقام معها سنين، ثم عاد إلى الإسلام وأسلم وأسلمت هي معه[6].

ونلاحظه هنا دخول الكثير من النساء النصرانيات إلى الإسلام رغبة منها فيه بلا إكراه لها.

وبهذا العرض يتبين لنا أن النساء في عصر المرابطين عدة فئات، كان لكل فئة أثرها على شؤون الحياة؛ لأن المرأة في ذلك العصر كان لها نفوذ قوي ومشاركة فعالة في كثير من شؤون الحياة. كما بدا هذا واضحا من خلال عرضنا.

---

(١) السقطي، رسالة في آداب الحسبة، ص٤٨- ٥٠.

(٢) البرزلي: أبو القاسم بن أحمد البلوي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من قضايا المفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢، ج٥، ص٢٥٠.

(٣) بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس، ص١١٠- ١١١.

(٤) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص٥١.

(٥) البرزلي، جامع مسائل الأحكام، ج٥، ص٣٠٥.

(٦) المعيار المعرب، ج٣، ص٢٥٠.

-المبحث الثاني: عادات الزواج.

إن الزواج هو اللبنة الأولى لتكوين الأسرة؛ وهو سنة بشرية به تنشأ المجتمعات ويشكل النسيج الإجتماعي لكل أمة، قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾(١)، وقد حفلت كتب النوازل في العهد المرابطي بمعلومات كثيرة عن الزواج في ذلك العصر، ومنها فتاوى ابن رشد، وابن سهل، والقاضي عياض، وكذلك نوازل الونشريسي، حيث حفلت بالكثير من الأخبار المتعلقة بالزواج في ذلك المجتمع.

والزواج عند المرابطين– كغيره عند بقية المجتمعات– يمر بالمراحل التالية:

- الخطبة.
- حق المرأة في الموافقة على الزواج.
- عقد القران.
- مظاهر الإحتفال بالزواج.

تتم الخطبة بالعادة عن طريق الأقارب، وهذا ما جاء في نوازل تلك الفترة(٢) فنجد الكثير من الحالات التي تتم في إطار العائلة،كالزواج من بنات العم، فأم يوسف بن تاشفين تزوجت من ابن عمها(٢)، وأخت علي بن يوسف تزوجت ابن عمها(٣).

كذلك قد يذهب الرجل ويخطب دون الرجوع إلى أهل والذي يكون لهم موقف اخر من اختياره كما اشار إلى ذلك ابن رشد في في إحدى نوازلة ، فقد برر رجل أقدامه على زواج المتعة أن أبية لن يسمح له بهذا الزواج(٤) .

---

(١) سورة الروم، آية رقم: ٢٦.

(٢) الونشريسي، المعيار المعرب، ج ٣، ص٣٧٧.

(٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٧٢.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٢١٨.

وأهم ما تقوم علية فترة الخطبة هو الاتفاق بين الزوج وأهل الزوجة على الصداق الذي ينقسم إلى معجل ويسمى النقد، ومؤجل(١)،كذلك كان من الأعراف الجارية أثناء فترة الخطوبة أن يهدي الزوج عروسه في الأعياد والمناسبات هدية كالحناء والصابون والفاكهة(٢)، او عقد من الجواهر أو أثواب من الحرير(٣).

أما موقف المرأة من الخطوبة فإنه يتباين حسب ظروف المرأة، فالإسلام قبل كل شيء أقر بحق المرأة في اختيار الزوج فليس لأحد إجبارها على الزواج أو على زوج لا تريده، سواء كانت بكرًا أو ثيبًا؛ فعن ابن عباس رضي الله عنه؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**الثَّيِّبُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا، وَالبِكْرُ يَسْتَأْمِرُهَا أَبُوهَا فِي نَفْسِهَا؛ وَإِذْنُهَا صِمَاتُهَا**)(٤)؛ وهذا خبرٌ بمعنى الأمر؛ فلا تجبر المرأة البالغ العاقل بكرًا أو ثيبًا على من تريده من الرجال.

ومع ذلك نجد في كتب النوازل أنه كان يعود إلى الأب أو الولي القرار في تزويج ابنته دون استشارتها، ومن ذلك ما ذكره ابن رشد عندما سئل عن رجل تزوج امرأة يتيمة بنت خمسة عشر عامًا، أنكحها عم لها فلما دخل الزوج بها مكثت معه أكثر من ستة أشهر كرهته فيها فهربت(٥).

وما نلاحظه هو أن الولي على المرأة له دور كبير في فرض قراره ورأيه في الزواج، لكننا نجد أيضًا بالمقابل من النساء من كانت تتمتع بمطلق الحرية في اختيار زوجها؛ وقد يعود ذلك لقوة شخصيتها أو لما تتمتع به من مكانة في المجتمع؛ فقد ذكر ابن الأبار أن الشاعرة نزهون رفضت رجلاً قبيح الوجه جاء يطلب يدها(٦).

---

(١) القاضي عياض، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ص٢٦٥.

(٢) ابن سهل، ديوان الأحكام، ص١٩٥.

(٣) المصدر السابق: ج٣، ص٣٥٦، ص٤٠٦.

(٤) ابن حنبل أبو عبدالله أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي البغدادي، مسند الإمام الحافظ أبي عبدالله أحمد بن حنبل، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٩٩٨م، (مسند العباس- مسند عبدالله بن العباس) (٢١٩/١)، ص١٩١.

(٥) ابن رشد، الفتاوى، ج٣، ص٣٧٨.

(٦) تحفة القادم، تحقيق احسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م، ص٢١٦.

أما المهر وهو ما يدفعه الزوج لزوجته- وهو ما يعرف بالصداق- فإن مقداره يحدد حسب الوسط الاجتماعي؛ حيث يقل أو يكثر حسب اختلاف البيئات؛ ففي المناطق الصحراوية لم يكن المهر في القبائل الصحراوية مكلفًا؛ وهذا ما نستشفه من المهر الذي قدمه عبدالله بن ياسين عند زواجه بإحدى النساء، وكان عبارة عن أربعة مثاقيل(١).

أما المهر في الأندلس فقد كان مرتفعًا حسب ما تورده كتب النوازل، فقد ذكر ابن رشد أن رجلاً أعطى مهرًا لامرأة مقدار ثلاث مئة دينار(٢)، وهكذا يتبين لنا أن قيمة المهر يتباين من إقليم لآخر حسب العائلات والمكانة الاجتماعية التي ينتمي إليها الزوج؛ فقد وصل عند بعض الرجال أن كان مهر زواجه قرية بكاملها(٣)، وأحيانًا نصف ما يملكه الزوج(٤)، وربما وصل أحيانًا إلى المبالغة حيث أصبحت تكاليف الزواج باهظة حتى أدى ذلك إلى فقر الزوج بسبب إسراف النساء بمطالبهن، وهذا ما يفسر ظاهرة العزوف عن الزواج(٥) التي تعتبر من مشاكل المرأة الاجتماعية في عصر المرابطين.

وبعد انتهاء فترة الخطبة والاتفاق بين الطرفين يتم عقد القران في أحد المساجد فيشير ابن رشد إلى عقد قران إحدى الزيجات في جامع تازا(٦).

وبعد عقد القران تبدأ أسرة العروس في إعداد الجهاز، وكان بعض الآباء يخرج بعض الثياب من ضمن الجهاز باسم الزوج من باب الإعارة، ثم يستردها بعد الزواج على أساس أنها وضعت مع الجهاز بهدف التزين والتباهي لا على سبيل العطية(٧)، كذلك كان بعض الآباء من يهب ابنته بعض الهبات والعطايا لتجهيزها عند زوجها، فهناك إشارة إلى رجل وهب ابنته

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص١٦.

(٢) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٣، ص١٥٣.

(٣) ابن رشد الجد، مسائل ابن رشد، ج١، ص٥٣٢.

(٤) المصدر السابق: ج٣، ص١٤٤- ١٤٥.

(٥) ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ص٢٠٦.

(٦) تازا: مدينة كبيرة، أسسها الأفارقة القدماء، على بعد نحو خمسة أميال من الأطلس وتبعد عن فاس بنحو خمسين ميلاً وعن بحر الروم بسبعة أميال مرورًا بصحراء كرط عندما يتجه المرء إلى غساسة. (انظر: أبو الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج١، ص٣٥٤).

(٧) القاضي عياض، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ص٢٢٦.

خمسين رأسًا من الغنم من أجل هذا الغرض[1]، وهذا بالحقيقة يعكس مدى اهتمام الأهل في إظهار الابنة بمظهر الغنى حتى وإن كان ذلك عكس حالتهم .

وبنفس الوقت أيضا يقوم الزوج بإرسال هدية من المال أو الثياب وهو ما يسمى بحق العرس[2].

وقد اختلفت مظاهر الاحتفال بالزواج في عصر المرابطين من مكان لآخر، فقد وصف لنا البيذق بعض من مظاهر زواج أقيم في تلمسان بما نصه:" لما دخل المعصوم تلمسان وجد بها عروسًا تزف إلى بعلها وهي راكبة على سرج واللهو والمنكر أمامها، فكسر الدفوف وغير المنكر وأنزل العروس عن السرج[3].

أما في قرطبة فكان الكثير من الأعراس يتم في الشوارع، ووصف أحدهم عرسًا بقوله: "فلعهدي بعرس في بعض شوارع قرطبة والنكوري الزامر قاعد في وسط الحفل، وفي رأسه قلنسوة وشي وعليه ثوب خز، وفرسه بالحلية المحلاة يمسكه غلامه"[4].

كما وصف ابن قزمان مظاهر الاحتفال بالزواج بما نصه: "وقد زينت العيون بالتكحيل، والشعور بالترجيل، وكرر السواك على مواضع التقبيل، وطوقت الأعناق بالعقود، وضرب الفكر في صفحات الخدود، ومد بالغالية على مواضع السجود، وأقبلت صنعًا بأوشيتها، وعنيت بأرديتها، ودخلت العروس في حليتها، ورقمت الكفوف بالحناء، وأثنى على الحسن وهو أحق بالثناء، وطلقت التوبة ثلاثًا بعد البناء، وغص الذراع بالسوار، وتختم في اليمين واليسار، وأمسكت الثياب بأيدي الأبكار، ومشت الإماء أمام الأحرار، وتقدمت الدايات بالأطفال الصغار، وامتلأت الدنيا سرورًا..."[5].

---

(١) ابن رشد، الفتاوى، ج٣، ص١٠٥٢.

(٢) ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ص١٩٦-١٩٧.

(٣) البيذق، أخبار المهدي، ص ٢٠

(٤) الحميدي أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الأزدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٧م، ج١، ص١٣٤.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٥٠٢.

وما نلاحظه من هذه النصوص أنه يتخلل هذه الاحتفالات شيء من اللهو والمجون؛ وقد صرح ابن عبدون أيضا بذلك ؛ إذ نصح ألا يخرج موكب الزواج إلا بطلب الإذن من القاضي وبوجود حراسة منعًا للشرب والعراك(1).

(1) ابن عبدون، رسالة في الحسبة، ص٥٣- ٥٤.

-المبحث الثالث: اللباس والزينة.

لقد احتلت الملابس مكانة مهمة في الإسلام بوصفها من الأمور الضرورية لستر الجسد، فأمتن الله تعالى على خلقة بنعمة اللباس؛ لما فيه من ستر للعورة؛ قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(1).

كما حث الإسلام على التزين في الملبس وحسن الهيئة، وإذا تأملنا أغلب آيات اللباس في القرآن فسنجدها تعتبر الملابس تكرمة وسترًا وزينة للإنسان، ومن البديهي أن يعكس اللباس عادات المجتمع ومفاهيمه في كافه شرائحه الاجتماعية، ولطالما اعتبر لباس الإنسان وهيئته مرآة صادقة للأنماط المعيشية والفكرية في مجتمعه(2).

أما المصادر التي تشير إلى لباس النساء وزينتهن في عصر المرابطين بشكل عام فقليلة جدًّا، وإن كانت المصادر التاريخية التي أشارت إلى أنواع الملابس في الأندلس في فترة المرابطين أكثر منها بالنسبة للمغرب، وهذا بلاشك يعود إلى أسباب كثيرة منها السبق الحضاري الذي وجد في الأندلس قبل المغرب(3)، فالأزياء وأنواعها تبدي بوضوح مستوى معيشة الفرد والمجتمع كما تجسد رؤية الجماعة والفرد لمجموعة من القيم والمعايير الاجتماعية، ومن ثم فإن وظيفة اللباس تكمن في إبراز اختلافات الامتيازات الاجتماعية والمهنية(4)، كذلك كان المرابطون في المغرب في بداية دولتهم عبارة عن قبائل قطنت الصحراء وعملت على إرساء دعائم دولتهم عن طريق الجهاد الذي أخذ منهم الكثير من الجهد والانشغال عن مظاهر الحياة الاجتماعية(5)، ولكن ما

(1) سورة الأعراف، آية رقم: ٢٦.

(2) محمود الحسن، أزياء المجتمع الأندلسي من سنة ٩٢هـ إلى سنة ٦٢٥هـ، مجلة كلية الآداب، جامعة ديالى، كلية التربية قسم التاريخ، ١٩٩٨م، العدد١٠٢، ص١٩١- ١٩٢.

(3) الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٢٤٠- ٢٤١.

(4) بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص ٧٥.

(5) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٧٣.

لبث هذا الوضع أن تغير بعد أن ثبت المرابطون سلطانهم على المغرب والأندلس.

وقد اشتهر الأندلس في عصر المرابطين بصناعة أنواع كثيرة من المنسوجات(١)، فأقيمت دور الطراز في كثير من المدن الأندلسية، واختصت كل منها بنوع من المنسوجات؛ من ذلك مدينتي إشبيلية وألمرية(٢)، كما ظهرت صناعة النسيج أيضًا في مدن مغربية كفاس ومراكش وغيرها من المدن(٣)، ولكن دون أن تصل إلى مثيلاتها في الأندلس(٤).

أما اللباس عند المرأة المرابطية فقد اتخذ أشكالاً مختلفة في طريقة تفصيلها بحسب أجزاء الجسم، وأطلقت عليها بالتقريب الأسماء نفسها التي شاعت في المشرق، على سبيل المثال فإن المرأة كانت ترتدي: الدرع(٥)، والمرط(٦)؛ على نحو ما يشير إليه ابن زيدون مفتونًا بمحبوبته قائلاً:

وفي الربرب الإنسي أحوى كناسه نواحي ضميري لا الكثيب ولا السقط
غريب فنون الحسن يرتاح درعه متى ضاق ذرعًا بالذي حازه المرط(٧)

وأشارت كتب النوازل إلى ارتداء النساء مختلف أنواع الثياب من الحرير والكتان والقطيفة، ويذكر السقطي أنه: "عندما اشترى رجل من أهل إلبيرة جارية ألبسها ثوبًا من الحرير كانت نساء ملوك الأعاجم إذ ذاك تلبسه"(٨).

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٣٢.

(٢) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص١٩٣- ١٩٤.

(٣) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٥٤٠- ٥٤١.

(٤) محمد أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٩٨م، ص١٧٤.

(٥) الدرع: ضرب من الثياب التي تلبس، وهو القميص أو الثوب الصغير تلبسه الجارية الصغيرة في بيتها، والجمع أدراع، وفي التهذيب: الدرع ثوب تجوب المرأة وسطه وتجعل له يدين، وتخيط فرجيه، ابن منظور، لسان العرب، مادة (د ر ع)، ج٢، ص١٣٦١.

(٦) المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان، وقيل: الثوب الأخضر، جمعة مروط، المصدر السابق، مادة (م ر ط)، ج٦، ص٤١٨٣.

(٧) ابن زيدون أحمد بن عبدالله بن أحمد بن زيدون المخزومي، ديوان ابن زيدون، تحقيق محمد الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠م، ص٦١- ٦٢.

(٨) السقطي، رسالة في آداب الحسبة، ص٥٤- ٥٥.

وكانت المرأة المرابطية تفضل الألوان الزاهية كطبيعة أهل الصحراء، خاصة اللون الأحمر؛ كحب الرمان، وهذا ما نستشفه من هدية يوسف بن تاشفين إلى أبي بكر بن عمر؛ حيث أهداه "ألف شقة من لون حب الرمان"(١)، وقد أثارت امرأة إعجاب الشاعر ابن خفاجة وهي تلبس ثوبًا معصفرًا فقال في أبيات يتغزل بها:

وضــفا رداء مــن شــبابك أبــيض ولربما اعترض الحياء فعصفرا(٢)

أما الألوان التي كانت ترتديها الجواري البيض فكانت الألوان المورَّدة، بينما تلبس الجارية السوداء الأحمرَ والأصفر(٣)، وهذا ما حرص عليه الباعة في سوق النخاسة من أجل إبراز جمالهن وإخفاء عيوبهن حتى يقبل الناس على شرائهن(٤).

أما السروايل(٥) فلم يكن لبسها مرغوبًا فيه من قبل النساء، ويدل على ذلك أنه حينما أسند يوسف بن تاشفين القضاء لابن عبدالرحيم الكتامي(٦)، أجبرهم الكتامي على لبس السراويل نساءً ورجالاً، ولم يكونوا يلبسونها من قبل(٧)، وربما كان هذا الفرض من الكتامي زيادة للحشمة وتقليلاً من السفور.

أما الخمار(٨) فقد عرف عند المرأة المرابطية أنها تخرج كاشفة ولا تضع لثامًا على وجهها،

---

(١) مجهول، الحلل الموشية، ص١٦.

(٢) ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، ص٧٣- ٧٤.

(٣) السقطي، رسالة في آداب الحسبة، ص٥٣.

(٤) ابن سهل، ديوان الاحكام، ص٣٢٣.

(٥) السراويل: فارسي معرب، يذكر ويؤنث، قال الليث: السراويل أعجمية عربت وأنثت، والجمع سراويلات، وتعني ثوبًا فضفاضًا يغطي أسفل البدن حتى القدمين، ويعتبر من الألبسة المشتركة بين الرجال والنساء، ابن منظور، لسان العرب، مادة (س ر ل)، ج٣، ص١٩٩٩- ٢٠٠٠.

(٦) الكتامي: هو الفقية أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن أحمد الكتامي، المعروف بابن العجوز، كان من جلة فقهاء سبتة، رحل إلى فاس بعد المشاحنات بينه وبين حمود القاضي، ولاه يوسف بن تاشفين قضاءها فسن في القضاء سننًا وطال فيها إلى أن عزل عنها. (انظر: ابن عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج٨، ص١٧٤).

(٧) المصدر السابق: ج٨، ص١٧٥- ١٧٦.

(٨) الخمار: هو النصيف، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، وجمعه أخمرة، ابن منظور، لسان العرب، مادة (خ م ر)، ج٢، ص١٢٦١.

وفي حين اتخذ الرجال اللثام بقيت النساء سافرات، وهي عادة على الأغلب كانت موجودة في الصحراء وانتقلت إلى مراكش وموطن الملثمين الجديد في المغرب والأندلس(١)، ولم يكن هذا الأمر مقبولاً عند الموحدين؛ فقد اعترض ابن تومرت على سفور أخت أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين حين قابلها في إحدى طرقات مراكش ومعها جواريها، وكلهن سافرات، فزجرهن ووبخهن على هذا الصنيع(٢)، ويبدو أن هذا الأمر لم يكن عمل كل نساء المرابطين، فقد ذكر ابن الزيات عن بعض النساء ارتداءهن خُمُرًا من صوف(٣).

كما ارتدت النساء المعاجر(٤) التي اشتهرت مدينة المرية في عصر المرابطين بصناعتها(٥)، والجبة(٦)؛ فقد ذكر ابن الزيات عن بعض نساء ارتدين جِبَبًا من صوف(٧).

كذلك كانت الغفارة من لباس المرأة المرابطية(٨)، بل كان من ضمن الهدايا التي يقدمها الرجل للمرأة؛ فقد سئل ابن رشد عن رجل دفع مهرًا لزوجته وكان من ضمن المهر غفارة من حرير(٩).

كذلك كان النساء يلبسن في أقدامهن الجوارب والنعال أو الأخفاف الصرارة التي تحدث صوتًا أثناء المشي، مما يجذب انتباه الرجال إليهن، وقد دفع هذا يحيى بن عمر محتسب

---

(١) مجهول، الحلل الموشية، ص٧- ٨.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٢٤، ص ١٥٤- ١٥٥.

(٣) التشوف، ص١١٢.

(٤) المعاجر: ضرب من ثياب اليمن، والمعجر ثوب تعتجر به المرأة، أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة، المصدر السابق، مادة (ع ج ر)، ج٤، ص٢٨١٥.

(٥) محمد أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية الأندلسية، ص١٧٥- ١٧٦.

(٦) الجبة: ضرب من مقطعات الثياب تلبس، وجمعها جبب، والجبة من أسماء الدروع، المصدر السابق، مادة (ج ب ب)، ج١، ص٥٣٢.

(٧) التشوف، ص١١٢.

(٨) الغفارة: تجعلها المراة على رأسها تحت مقنعتها من الحرير كان أو غيره، ويطلق عليها الكنبوش أيضا، كما استخدمت ايضا من قبل الرجل. (انظر: أبو عبدالله محمد بن أحمد اللخمي، المدخل إلى تقويم اللسان، تحقيق حاتم صالح، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠٠٣م، ج٢، ص٣٩٧).

(٩) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٣، ص١٢٢.

القيروان[1] إلى القول بأنه يجب نهي الخرازين عن عمل الأخفاف الصرارة، ومنع النساء من لبسها[2]، كذلك رأى أيضًا ابن الحاج أن يمنع النساء من لبسه، فإن لبسنه بعد النهي رأى أن تشق حرازة الخف ويدفع إليها[3].

كما أشارت كتب النوازل إلى أن النساء في عهد المرابطين كن يلبسن الملاءة[4]، وكذلك قد يقدمها الرجل إلى المرأة عند الزواج من ضمن النقد[5].

كما ارتدت النساء القمصان، سواء كانت بيضاء أو سوداء، وتنسج من الكتان الرقيق، حيث نجد بعض النساء لا سيما الجواري يفضلن القمصان الرقيقة الملاصقة للبدن لإبراز مفاتن أجسامهن، ويذكر المقري أن جارية مشت بين يدي المعتمد بن عباد وعليها قميص لا يكاد الحاضرون يفرقون بينه وبين جسمها[6].

الزينة عند المرأة المرابطية:

عرفت المرأة المرابطية أنواعًا شتى من الزينة والتفنن بها من الحلي والعطور وغيرها[7]، وخاصة في الأندلس التي عرفت مختلف أنواع الحلي والذهب والعطور بحكم الثراء المالي؛ حيث يذكر المقري أنه "إلى مصنوعات الأندلس ينتهي التفضيل، وللمتعصبين لها في ذلك كلام كثير، فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالوشي المذهب الذي يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق إذا

---

(١) يحيى بن عمر: هو أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني، ولد سنة ٢١٣هـ، نشأ يحيى بن عمر في قرطبة وإن كان أصل أسرته من جيان، كان أهله على قدر من الغنى، رحل إلى مصر والحجاز من أجل طلب العلم، وعاد واستقر في القيروان، ارتفعت مكانته العلمية حتى إن طلبة العلم كانوا يتدفقون على دروسه من جميع أنحاء المغرب والأندلس، أما أهم مؤلفاته فهي: المنتخبة في الفقه، أحكام السوق، اختلاف ابن القاسم وأشهب، وغيرها توفي في سوسة سنة ٢٨٩هـ. (انظر: الحميدي، جذوة المقتبس، ج٩، ص٣٧٧- ٣٧٨).

(٢) أبو زكريا يحيى بن عمر الأندلسي، أحكام السوق، تحقيق إسماعيل خالدي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠١١م، ص١٢٦.

(٣) الونشريسي، المعيار، ج٦، ص٤٢٠.

(٤) الملاءة- بالضم والمد-: الريطة، وهي الملحفة، وملاية المرأة تتألف من شقتي قطن، تستتر بها النساء الجسم كله. (انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (م ل أ)، ج٦، ص٤٢٥٣).

(٥) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٣، ص١٠٠.

(٦) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص١٢٤.

(٧) دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص٣٢١.

رأوا منه شيئًا، وفي تنتالة[1] من عمل مرسية[2] تعمل البسط التي يغالى في ثمنها بالمشرق، ويصنع في غرناطة وبسطة من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يعرف بالملبد المختم ذي الألوان العجيبة، ويصنع في مرسية من الأسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس"[3]، هذه الصناعات والخبرة الطويلة فيها ساعدت المرأة على التزين والتفنن في زينتها.

أدوات الزينة:

ومن أدوات الزينة عند المرأة المرابطية: الحلي؛ فلبسن القلائد[4]، والأقراط[5]، والخلخال[6]، سواء كان من الذهب الخالص أو الفضة، والأحجار الكريمة من الياقوت والزبرجد والزمرد ونفيس الجواهر، وبلغن في استعمال أشكال الحلى درجة من المبالغة حتى من قبل عامة النساء ومن الأمثلة على ذلك أنه عند دخول المهدي إحدى قرى المغرب وجد أن النساء اللاتي يبعن اللبن قد تزين بالحلي وقد غضب من ذلك لما في ذلك من نشر الفساد[7].

كما يدل على وجود هذه الحلي في استقرائنا لفتوى لابن رشد عن بيع الحلي الذي فيه الذهب والجوهر المركب وغير المركب، وما يجوز في ذلك وما يمنع[8]، ونقرأ أيضًا في فتاوى ابن رشد حول "زكاة الحلي"، وتبين لنا هذه الفتوى أنواع الحلي: "فإن كان هذا الحلي مربوطًا بالحجارة؛ كاللؤلؤ والزبرجد ربط صياغة..."[9]، ويمكن لنا أن نستشف من هذه الواقعة أن

---

(١) لم أعثر لها على تعريف في المؤلفات الجغرافية.

(٢) مرسية: تقع شرقي الأندلس في أرض مستوية على النهر الأبيض، وهي قاعدة تدمير، بناها عبدالرحمن بن الحكم، واتخذه دارا لقواده، فيها حصون وقلاع وقواعد. (انظر: الحميري، الروض المعطار، ص٥٣٩).

(٣) نفح الطيب، ج١، ص ٢٠١.

(٤) القلادة: ما جعل في العنق من حلي ذهب أو فضة. (انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ق ل د)، ج٥، ص٣٧١٨).

(٥) القرط: قيل: الشنف في أعلى الأذن، والقرط في أسفلها، وقيل: القرط الذي يعلق في شحمة الأذن، وهو من حلي الأذن المعروفة. (انظر: المصدر السابق، مادة (ق ر ط)، ج٥، ص٣٥٩١).

(٦) الخلخال: حلي تلبسه المرأة في الساق. (انظر: المصدر السابق، مادة (خ ل ل)، ج٢، ص١٢٥٤).

(٧) البيذق، أخبار المهدية، ص٢١.

(٨) الفتاوى، ج١، ص٢٠٧.

(٩) ابن رشد الجد، الفتاوى، ج١، ص٥٠٣.

النساء في هذه الفترة لبسن أيضًا اللؤلؤ والزبرجد والأحجار الكريمة وغيرها.

كذلك أفاد ابن رشد وابن الحاج أن النساء كن يضعن في أقدامهن خلاخل من الفضة، كما كن يحرصن على التزين بالحلي؛ مثل التحلي بسوار الذهب وعقود الجواهر(١).

أما الوشاح(٢)، فقد ذكر ابن زيدون الوشاح عندما أخذ في وصف محبوبته فقال:

علــى خصــرها منــه وشــاح مفصــل وفي رأسها تاج وفي جيدها سمط(٣)

وبالإضافة إلى الوشاح أيضًا نجده يذكر التاج(٤)، وهو من أنواع الزينة التي تتجمل بها المرأة.

كذلك تزينت المرابطيات بالحناء من أجل تجميل أيديهن وأرجلهن؛ وهذا ما أشار إليه ابن الزيات عندما ذكر في ترجمة أبي محمد عبدالله بن عبدالملك أنه ذهب إلى امرأة كهلة من الأندلس، فوجدها مخضوبة اليدين والرجلين(٥)، وما نستشفه هنا أيضًا أن حب المرأة المرابطية للزينة والتجمل لا يقف عند مرحلة الشباب، بل حتى النساء الكبيرات في السن اهتممن أيضًا بالتزين.

وقد استخدمت المرأة المرابطية كغيرها من النساء الكحل والإثمد لتزيين العيون(٦)، أما العطور فقد اشتهرت الكثير من مدن المرابطين بالعطور؛ مثل المرية، أما الزعفران فقد كانت تستورده من الهند(٧).

---

(١) الونشريسي، المعيار المعرب، ج١٠، ص٢٥٩- ٢٤٧.

(٢) الوشاح: ينسج من أديم عريض ويرصع بالجواهر بين عاتقيها وكشحها، تتوشح المرأة به. (انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (و ش ح)، ج٦، ص٤٨٤١).

(٣)ديوان ابن زيدون، ص٦٥.

(٤) التاج: كلمة معربة، وهو نوع من أغطية الرأس لزينة يختلف باختلاف الزمان والمكان، وهو منسوج من الصوف المكفت بالذهب وتحف به صفوف من المجوهرات والأحجار الكريمة. (انظر: رجب إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٨٧).

(٥) التشوف، ص٢٣٧.

(٦) الإثمد: حجر يتخذ منه الكحل، وقيل: ضرب من الكحل، وقيل: هو نفس الكحل، يستعمل أحيانًا في معالجة أمراض العيون. (انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ث م د)، ج١، ص٥٠٣).

(٧) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص١٠٤.

وقد حرصت المرأة المرابطية على الاعتناء بصحة جسمها وجمالها حيث استخدمت الكثير من المساحيق، حيث يذكر السقطي "أن هناك أنواعًا من المساحيق التي استخدمتها النساء والجواري اللائي يرغبن في تبييض بشرتهن، منها سائل يصنع من الباقلاء وينقع في ماء البطيخ ستة أيام، ثم لبن حليب سبعة أيام، يحرك كل يوم ويطلى على الوجه فيعطي لها بياضًا مؤقتًا. أما إذا رغبت المرأة في لون ذهبي فتستعمل الكروياء المغلوة في الماء حتى تتلون، وتجعلها على وجهها مدة أربع ساعات فتصير بشرتها ذهبية، وكذلك من أجل خدود وردية استعملت ورق الحناء، ومن أجل صبغ الشعر بالأسود استعمل النساء دهن الآس ودهن قشر الجوز الرطب"[(١)].

كذلك يذكر ابن الحاج أن من حرص المرأة على صحتها وجمالها أنها تقع في مخالفة شرعية حيث كان بعضهن يفطرن في رمضان خشية النحافة[(٢)].

---

(١) رسالة في آداب الحسبة، ص ٥٠-٥١.

(٢) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٢، ص٤٨٧- ٤٨٨.

-المبحث الرابع: انتساب الرجال إلى أمهاتهم.

اهتم الإسلام بالأبناء من حيث الرعاية والتربية، وكذلك أكد القرآن على أن ينسب الولد إلى أبيه[١]، قال تعالى: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)[٢]، غير أننا حين نقرأ كتب التاريخ بشكل عام، نجد أن عددًا كبيرًا نسبوا إلى أمهاتهم، من ملوك وقادة وعلماء وشعراء، كما أنه لم يقف الانتساب إلى الأمهات عند العصر الجاهلي، بل تجاوزه إلى العصور الإسلامية خاصة عصر المرابطين، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب التاريخ التي تناولت تاريخ المرابطين وقادتهم، من ذكر انتساب رجال قبائل صنهاجة والمرابطين عمومًا إلى أمهاتهم[٣].

إذ تشير الكثير من المصادر التاريخية التي تتحدث على تاريخ المرابطين ودولتهم إلى أن الرجل في عهدهم كان يُنسب إلى أُمّه، وليس إلى أبيه، فيقول الناس: ابن فلانة، لا: ابن فلان؛ هذا ما أثبته صاحب كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب"، فقد جاء في كتابه قوله: "جميع الملثمين ينقادون لأمور نسائهم، ولا يُسمّون الرجل إلا بأمّه، فيقولون: ابن فلانة، ولا يقولون: ابن فلان"[٤]، وهذا ما يؤكد إلى أن المرأة في عصر المرابطين وصلت إلى مكانة رفيعة في الدولة.

حتى إننا نجد كثيرًا من أبرز رجال الدولة المرابطية من سلاطين وقادة جيش وقضاة كانوا ينتسبون إلى أمهاتهم؛ كابن تاعيشت[٥]، وأبي بكر المعروف بابن

(١) النسب: القرابة، وقيل: هو في الآباء خاصة، الجوهري: نسب الرجل أنسبه بالضم، نسبة ونسبا إذا ذكر نسبه، وانتسب إلى أبيه. (انظر: ابن منظور، لسان العرب مادة (ن س ب) ج٦، ص٤٤٠٥).

(٢) سورة الأحزاب: آية ٥.

(٣) انظر: البيذق، أخبار المهدي، ص٤٤، ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٣٩، ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص١٧، النويري، نهاية الأرب، ج٢٤، ص١٤٦.

(٤) النويري، ج٢٤، ص١٤٦.

(٥) ابن تاعيشت: هو إبراهيم بن يوسف بن تاشفين عرف باسم أمه، كان من أعظم قادة المرابطين، وله ضد النصارى =

قنونة[1]، وابن عائشة، وابن فاطمة، وابن معيشة[2]، وغيرهم، ومن هنا ظهرت لنا أهمية الأمّ خاصة والمرأة عامة في حياة المرابطين، لاسيما إذا كانت ذات مكانة اجتماعية من حيث النفوذ السياسي أو الثروة أو العلم؛ مما جعل الكثير من رجال المرابطين يعرف باسم أمه نظرًا لما عرف عن هذه الأم من سلطة أو قرابة من السلطان أو ما اشتهرت به من علم.

كذلك جاء في ترجمة علي بن عمر بن أضحى في الحلة السيراء: "وذكر أبو محمد بن صاحب الصلاة أن الذي قام عليه ابن أضحى من الملثمين هو علي بن أبي بكر المعروف بابن فنوا، وهي أخت علي بن يوسف بن تاشفين، كان أميرًا عليها بعد أبي زكرياء بن غانية، قال: واستصرخ- يعني ابن أضحى- بابن حمدين بقرطبة، وبابن جزي قاضي جيان، فوجه إليه ابن حمدين ابن أخيه علي بن أبي القاسم أحمد المعروف بابن أم العماد، في عسكر قرطبة، وعلم بذلك سيف الدولة أحمد بن هود، فعجل ودخل مدينة غرناطة، وانصرف ابن أم العماد خائبًا"[3].

وما نلاحظه من النص السابق كثرة رجال الدولة من المرابطين الذين انتسبوا إلى أمهاتهم؛ كابن فنوا[4]، وابن غانية[5]، وابن أم العماد وغيرهم.

بالأندلس وقائع كبيرة، ولي لأخيه أمير المسلمين علي بن يوسف ولايات كثيرة بالأندلس والمغرب، توفي سنة ٥٢٨هـ. (انظر: البيذق، أخبار المهدي، ص٤٤).

(١) ابن قنونة: هو أبو محمد عبدالله بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين، المعروف بابن قنونة أو ابن حنونة، وقنونة اسم أمه. (انظر: ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٢٢).

(٢) ابن معيشة: هو عبدالحق بن عبدالله ابن معيشة الغرناطي، كان قاضيا بفاس على عهد السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، وأنجز بأمره عددًا من المنشآت العمرانية بجامع القرويين بفاس، وسائر المدينة سنة ٥٢٩هـ، صرف عن قضاء فاس عام ٥٣٣هـ. (انظر: علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبدالوهاب ابن منصور، المطبعة المالكية، الرباط، ١٩٩١م، ص٤٢-ص٥٥-ص٦٧).

(٣) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص ٢١٢

(٤) ابن فانو: هو علي بن أبي بكر ابن فانو، وفانو ابنة يوسف بن تاشفين، وقد تزوجت ابن عمها أبا بكر يحيى بن أبي يحيى بن تاشفين، وأنجبت عليًا المذكور، وكان واليًا على غرناطة في سنة ٥٣٩هـ، أثناء ثورة ابن أضحى على المرابطين. (انظر: ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص٢١٢).

(٥) ابن غانية: هو أبو زكريا يحيى بن علي ابن غانية، ولد يحيى في قرطبة، وتلقى العلم فيها، وكان فارسًا نجدًا، جعله يوسف =

كذلك نجد أن المكانة التي احتلتها أمهاتهم هو ما يفسر اعتزاز بعض الرجال بأمهاتهم والانتساب إليهنّ؛ إذ كن يتمتعن بمكانة مرموقة في الدولة المرابطية من حيث القرب من السلطان كما نرى في هذا النص.

وهذه الظاهرة التي عمل بها المرابطون هي بلا شك مأخذ على المرابطين؛ للأسباب التالية:

١) أن دولة المرابطين دولة إسلامية والإسلام يؤكد على أن ينسب الولد إلى أبيه؛ لقوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(١)؛ فقال الله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾، وليس أمهاتهم.

أيضًا حديث البراء بن عازب الطويل في صفة خروج الروح: (**ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا... ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان**)(٢)، وأن ما درج عليه الناس من نسبة الولد إلى أبيه توجب النسبة للأب لا للأم، لاسيما أنه قد يترتب على ذلك من الضرر البالغ؛ كضياع النسب، وفقد الميراث.

ونأخذ على ذلك أنموذجًا وهو القائد يحيى بن فانو، فقد قال ابن القطان: "فاجتمعت لهم جموع من قبائلهم يقدمهم يحيى بن فانو، وهو أخو عبدالله بن يحيى لأبيه"(٣)، إذا صح هذا النص وكان هذا القائد المرابطي المشهور أخًا لعبدالله بن يحيى بن أبي بكر، فمعنى هذا أن اسمه يحيى بن يحيى بن أبي بكر، وفانو إذن التي ينتسب إليها ليست أمه في الواقع، وإنما هي أم أبيه يحيى، وقد تكون نسبته إليها بسبب شهرتها؛ لكونها أخت علي بن يوسف بن تاشفين(٤).

عاملاً على أستجة، أبلى بلاءً حسنًا في مدافعة ألفونسو المحارب، كان ولد يحيى وهو علي بن يوسف المسوفي من كبار رجال يوسف بن تاشفين، وهو الذي زوجه من قريبة له تسمى غانية. (انظر: ابن القطان، نظم الجمان، ص٢٤٩).

(١) سورة الأحزاب: آية ٥.

(٢) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، (٢٨٨/٤)، ص١٣٥٢.

(٣) نظم الجمان، ص٢٥٣.

(٤) المصدر السابق، هامش المحقق،رقم٢، ص٢٥٤.

ومما يجب ذكره أن هذا الانتساب لم يكن محدثا من قبل المرابطين، لكنهم بالغوا فيه، فعلى مدار تاريخ المسلمين وجد من ينتسب لأمه، وعلى سبيل المثال أبو القاسم محمد بن الحنفية ابن علي بن أبي طالب، وأمه خولة بنت جعفر بنت الحنفية، فينسب إليها تمييزًا عن أخويه[(١)]، ومن هذا المنطلق نجد أيضًا أن الكثير من رجال الدولة المرابطية عرفوا بأسماء أمهاتهم من باب التمييز، أو لما تميزت به هذه الأم من علم أو نفوذ.

٢) إن لقضية الانتساب إلى الأمهات في عصر المرابطين أثرا كبيرا في ثورة محمد بن تومرت ضدهم؛ حيث انتهز ظاهرة انتساب كثير من رجال المرابطين إلى أمهاتهم، فأوهم الناس أن النساء غالبات على أمور المرابطين؛ "استولت النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور"[(٢)].

ويبدو أن من الأسباب القوية التي دفعت المرابطين إلى هذا ما يلي:

١) قد يكون انتساب الرجال لأمهاتهم تعدد الزوجات في عصر المرابطين فكان يقال: "ابن فلانة" لتميز بين الاشقاء .

٢) أن ما وصلت إليه المرأة في عصر المرابطين من مكانة اجتماعية رفيعة في مختلف نواحي الحياة، يعد سببًا من أسباب انتساب الرجال إلى أمهاتهم.

٣) أن كثيرًا من قادة المرابطين كانوا يلقبون بأسماء أمهاتهم تقديرًا لدور المرأة المرابطية، فقد عرف عن المرابطين احترام المرأة، والاستماع إلى نصائحها، لثقتهم برجاحة عقلها، وحسن بصيرتها، فقد استطاع يوسف بن تاشفين الاستئثار بالحكم بنصيحة وتدبير من زوجته زينب النفزاوية؛ ولذا كان دائم الاستماع إليها والتقدير لها[(٣)].

---

(١) ابن سعد محمد بن سعد الهاشمي البصري، الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عطا، دار الكتاب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ج٣، ص١٤.

(٢) المراكشي، المعجب، ص١٣٣– ١٣٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٩٩.

-المبحث الخامس: مشكلات المرأة الاجتماعية.

إن من يستقرئ كتب النوازل في عهد المرابطين يجد معلومات وفيرة وقيمة عن الحياة الاجتماعية في عصرهم بالمغرب والأندلس، وربما كان أفضل ما كتب عن هذا الموضوع في تاريخ تلك الدولة؛ حيث نقلت الواقع الاجتماعي ببساطته وحيويته وتفاصيله الصغيرة والكبيرة بشيء من التفصيل والدقة.

ويلح ابن خلدون على ضرورة التمسك بالأخلاق والقيم في مسألة البناء الاجتماعي، باعتبارها قاعدة مهمة لتراص المجتمع وبقائه، فإذا خرج المجتمع عن قيمه فهي بداية نحو الفساد والسقوط والفوضى الاجتماعية؛ حيث يقول: "إذا أذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذايل وسلوك طرقها، فتفقد الفضائل منهم، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من بين أيديهم"(١)، بل إن هذا سنة ربانية؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(٢)، لكن المجتمعات البشرية والدول تتنقل بين الضعف والقوة، وبالرغم من تمتع المجتمع المرابطي على وجه العموم بحياة كريمة في ظل تمسكه بالشريعة الإسلامية، إلا أنه لم يخل من بعض المظاهر السيئة التي كانت مناخًا ملائمًا لبروز مشكلات اجتماعية مختلفة أثرت على المرأة المرابطية، والتي يمكن أن نقسمها إلى:

أ) مشكلات الزواج.

ب) المشاكل الأسرية.

ج) مشكلات اجتماعية متفرقة.

أ) مشكلات الزواج:

١) غلاء المهور:

ألزم الله تعالى الرجل بأن يقدم للمرأة مهرا أو صداقا قبل الزواج منها وجاءت الآيات من القرآن التي توجب هذا الحق وتلزم الزوج بدفعه لزوجته قال الله تعالى: ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص٢٦١.

(٢) سورة الرعد: آية ١١.

فَرِيضَةً﴾(١)، كما قال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾(٢).

كما أن الشريعة الإسلامية لم تجعل هناك مقدارًا محددًا للمهر، بل جعلت ذلك على قدر استطاعة الرجل وحاله، وإن جاءت الأحاديث النبوية التي تحث على عدم المغالاة في المهور؛ فعن عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (**إن من يمن المرأة تيسير خطبتها، وتيسير صداقها، وتيسير رحمها**)(٣).

ولا شك أن مشكلة غلاء المهور والإسراف في حفلات الزواج وتكاليفه، قد أثرت كثيرًا على الناس وحالت بينهم وبين الزواج، وأكثر ما انعكس ذلك على المرأة المرابطية وحياتها، مسببًا لها مشكلات أسرية واجتماعية كثيرة؛ مثل الطلاق بعد كتابة العقود، وخلافات أسرية لاحقة بسبب الجهاز والصداق وغيرها؛ مما أثر سلبًا على تربية الأطفال بسبب الحرمان من الأب أو الأم.

وحسبما نلاحظه من كتب النوازل، فإن مهر المرأة كان مرتفعًا وخصوصًا في الأندلس، على الرغم من أن ذلك يتنافى تمامًا مع المنهج الإسلامي، لا سيما وأن المرابطين قامت دولتهم على أساس ديني، وكان لهم في ذلك أسوة؛ عبدالله بن ياسين، الذي كان لا يجاوز في مهر أي امرأة يخطبها أكثر من أربعة مثاقيل(٤)، مع العلم أنه قد اعتبر الحد الأدنى في المهر ربع دينار ذهبًا أو ثلاثة دراهم فضة(٥).

ومن هنا نستنتج أن المهر لم يكن مكلفًا في القبائل الصحراوية لو عملوا برأي ابن ياسين، لكننا نجد في إحدى النوازل أن مهر إحدى النساء ثلاث مئة دينار(٦)، وهو يزيد كثيرًا عن المهر الذي دفعه عبدالله بن ياسين؛ وهو بلا شك كان يشكل عائقًا كبيرًا أمام زواج المرأة ويعتبر مشكلة أساسية لديها.

---

(١) سورة: النساء، آية ٢٤.

(٢) سورة: النساء، آية ٤.

(٣) أحمد بن حنبل، المسند، (مسند النساء)، ٦/٧٦، ص١٨٣٢.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص ١٦.

(٥) ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ص١٧٥.

(٦) المصدر السابق: ص٢٠٦.

ونجد عند ابن رشد في إحدى نوازله عن رجل من مدينة شلب تزوج امرأة على أن يسوق إليها نصف بقعة محدودة على أن يبنيها بنيانًا تواصفاه، وتكون بينهما بنصفين[1].

وهناك من تصدق على ابنته بعد عقد النكاح بنصف دار، ثم أراد بيعها ليجهزها بها، وأفتى ابن رشد بجواز ذلك[2].

كذلك كان يلزمُ أهل العروس الزوجَ أن يقدم هدية، حيث كان يعمل بها الناس، وأفتى ابن سهل بجواز ذلك إذا جرت الناس على هذه العادة والعرف[3].

ومما لاشك فيه أن قيمة المهر بالإضافة إلى مظاهر الزواج، اختلفت في الشرائح الاجتماعية من شريحة إلى أخرى، ومن فئة نساء إلى فئة نساء أخرى، إلا أنه يمكننا القول عمومًا- حسب ما أوردته النوازل- بأن غلاء المهور كان أحد أهم المشاكل الاجتماعية التي عانت منها المرأة في العهد المرابطي.

وكثيرًا ما كانت تعمل النحلات[4] مشاكل وخصوصًا إذا نُص في عقد النكاح على النحلة التي ينحلها أهل الزوجة لابنتهم[5]، وأحيانًا كانت هذه النحلات تحدد المستوى الاجتماعي لأهل الزوجة وكانت مدعاة للتباهي والتفاخر[6]، حيث كانت تتفاوت بمقدار قيمتها؛ فتبدأ بثياب وحلي ومال[7]، لتصل إلى حد المبالغة في بعض الأحيان، فقد سئل القاضي عياض عن رجل نحل ابنته عند عقد النكاح دارًا وحانوتًا وجنانًا وخادمًا[8].

---

(١) الفتاوى، ج١، ص٢٢٤- ٢٢٥.

(٢) للمصدر السابق: ج٣، ص١٥٩٨.

(٣) ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ص١٩٥.

(٤) النحلة: هي العطية والهبة ابتداء من غير عوض ولا استحقاق. (انظر: مجد الدين أبي السعادات بن محمد الجوزي ابن الأثير، تحقيق علي حسن، دار ابن الجوزي، الرياض، ٢٠٠٠م، ص٩٥٠)، فكانت البنت توهب من قبل أبيها أو أمها عند عقد النكاح بمال أو حلي وغيرها. (انظر: ابن رشد، الفتاوى، ج٢، ص١٠٥٣).

(٥) القاضي عياض، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ص٢٧٣.

(٦) البرزلي، نوازل البرزلي، ج٥، ص٦٦.

(٧) ابن رشد، الفتاوى، ج٢، ص١٠٥٣.

(٨) القاضي عياض، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ص٢٢٧.

٢) الأنكحة الفاسدة:

تعرضت النوازل أيضًا للكثير من مشاكل الأنكحة الفاسدة[١]، وقد تبين أثرها الاجتماعي على المرأة مسببة مشاكل كثيرة لها؛ فقد وضحت إحدى نوازل ابن رشد مشكلة زواج المتعة؛ إذ تذكر النازلة أن رجلاً من أهل العلم في مدينة بطليوس تزوج امرأة نكاح متعة إلى أجل مسمى، بلا ولي ولا صداق إلا نصف درهم، وأقر عند القاضي بوطئها، وبرر اضطراره إلى هذا الزواج- برغم تحريمه- بأنه لم يستطع أن يتزوج زواجًا مشروعًا خوفًا من أبيه الذي لم يكن يسمح له بهذا الزواج، كما أن التي تزوجها زواج متعة لم تكن تصلح لمثله، وأنه خشى أن يزني بها، فلجأ إلى زواج المتعة.

وعندما عرضت تلك القضية على ابن رشد أفتى بإقامة الحد على من تزوج زواج متعة؛ لأن الرجل تزوج بغير ولي للمرأة وعقد النكاح بشهادة غير العدول[٢].

ولنا أن نلاحظ من هذه النازلة وجود الفروق الطبقية وتمايزها وربما النظرة الدونية للمرأة إذا كانت من طبقة أخرى أو لا تناسب الرجل بالحسب والنسب.

كذلك سئل ابن رشد في مسألة من النكاح جرت بإشبيلية فاختلف فقهاؤها؛ وهي: (الجواب- رضي الله عنك- في رجل تزوج امرأة وهو محرم، أو تزوجها شغارًا، أو وقع نكاحه فاسد

---

(١) الأنكحة الفاسدة تنقسم إلى قسمين:

أ) نكاح فسد لصداقه.

ب) نكاح فسد لعقده، وينقسم إلى:

١) نكاح متفق على فساده؛ مثل نكاح المحارم، ونكاح المرأة في عدتها، أو على أمها أو أختها أو ابنتها أو عمتها أو خالتها.

٢) نكاح مختلف على فسادة وينقسم إلى:

١- قسم لا تأثير لفساد عقده في الصداق؛ مثل نكاح المرأة بغير ولي.

٢- قسم لفساد عقده تأثير في الصداق مثل نكاح المحلل.

ج) نكاح فسد لشروط فاسدة اقترنت به.

(انظر: ابن رشد الجد، فتاوي ابن رشد، ج١، ص٢٧٩- ٢٨٩).

(٢) المسائل، ج٣، ص١١١٧- ١١١٨.

العقد صحيح الصداق...) إلخ[1]، وقد وضح ابن رشد الأنكحه الفاسدة في شرح مطول لها.

كذلك سئل ابن رشد عن (الذي تزوج امرأة على عدد مسمى من المواشي من أرض مسماة، قد عرفتها المرأة، على أنه إن لم يكن فيها وفاء بها أكمل لها البقية من أرض له أخرى قد عرفتها المرأة أيضًا، ووافقت عليها، فأجاب: إن كانت الأرضان مختلفتين في الكرم أو متباعدتين في المواضع، فالنكاح فاسد، للجهل بما يصل لها من الأرض الأخرى...) إلخ[2].

وهكذا فنحن عند اطلاعنا على كتاب فتاوى ابن رشد نجد كمًّا كبيرًا من الفتاوى التي تتحدث عن الأنكحة الفاسدة بمختلف أقسامها، كما أنه يلقي الضوء عن هذه المشكلة التي كانت المرأة المرابطية المتضرر الأول منها فقد يتم هذا الزواج بسبب طمع ولي أمر المرأة، أو بسبب الجهل بالأحكام الدينية، أو بسبب حسب المرأة ونسبها في المجتمع.

٣) مشكلة الطلاق:

يعد الطلاق أحد المشاكل الاجتماعية الموجودة في كل المجتمعات، وتأثرت هذه الظاهرة خلال الفترة المرابطية بالسياسة والاقتصاد والمجتمع، فأحوال الدولة بمختلف ظروفها من حروب ومجاعات وغيرها، قد أسهمت في إحداث ونمو مشكلة الطلاق نموًّا كبيرًا.

ولقد حاول العلماء معالجة هذه المشكلة الاجتماعية، ولو أخذنا فتاوى ابن رشد مثالاً لذلك لوجدنا عددًا من القضايا التي عرضت عليهم أيام عصر المرابطين والانعكاسات السلبية لهذه المشكلة على الأسرة والمجتمع والمرأة خصوصًا، والقضايا التي تتفرع عنها؛ مثل المشاكل الناتجة عن حضانة الأطفال[3]، وضرب النساء[4]، ومشاكل أخرى كثيرة[5].

كما أفادتنا كتب النوازل عن أهم الأسباب التي أدت إلى وقوع الطلاق بين الزوجين في

---

(١) الفتاوى، ج٣، ص٢٧٩.

(٢) المسائل، ج٢، ص٥٣٢.

(٣) تطرقت بعض النوازل إلى مشكلة حضانة الأطفال ومدى أحقية كل من الزوجين بتلك الحضانة. (انظر: ابن رشد الجد، الفتاوى، ج٣، ص ١١٧٦).

(٤) ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ص٢٥١-٢٥٢.

(٥) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٣، ص١٢٩.

عصر المرابطين، وذكرت أن الطلاق يقع في بعض الأحيان في فترة مبكرة من الزواج[١]؛ لأسباب مادية يعانيها الزوج؛ كغلاء المهر، والإسراف في مظاهر الزواج، كما مر معنا سابقًا، أو قد يكون الزوج سببًا رئيسيًّا في حدوث الطلاق؛ من خلال بعض المساوئ التي يقوم بها.

وقد حرص الإسلام على احترام المرأة وإعطائها حقوقها، فكانت المرأة في المجتمعات الإسلامية تحظى بالاحترام والتقدير، لكن نجد بعض النوازل تشير إلى قيام بعض الرجال بشتم زوجاتهم وإيذائهن بالقول، أو ترك المبيت في الفراش دون مبرر؛ مما يؤدي إلى الطلاق، فقد سئل ابن رشد عن "رجل وقع له مع زوجه كلام ومشاجرة، فقالت له: لا أحب البقاء معك على هذه الحال، فقال لها: إن شئت..."[٢].

كذلك من ضمن المساوئ التي يقوم بها الزوج وتؤدى إلى الطلاق: الحلف بالطلاق لأتفه الأسباب؛ ومنها تهديد الزوجة وتخويفها، فقد سئل ابن رشد عن "رجل حلف بالطلاق ثلاثًا لزوجه ألا يدخل عليها دار سكنها معه أبواها، فدخل عليها أبواها"[٣].

ونجد أن الدين الإسلامي حذر المسلمين من كثرة الحلف بالطلاق، فينبغي للمسلم أن يحفظ لسانه من الوقوع في ذلك، فلا ينبغى أن يطلق إلا عن بصيرة ونظر، لكن عندما نستقرئ كتب النوازل الخاصة في عصر المرابطين نجد البعض قد يقع في ذلك بسبب جهله بما قد يترتب على ذلك، فقد سئل ابن رشد عن "رجل حلف فقال: كل امرأة أتزوجها بقرطبة فهي طالق، لليمين نحو ثلاثين عامًا، ولا يدري كيف كان طلاقه؛ أطلقة واحدة أو طلقتين؟ فتزوج منذ الثلاثين عامًا بقرطبة، وكان جاهلاً بما يلزمه، وقد طلق هذه الزوجة طلقة واحدة ثم إنه راجعها، وله منها أولاد فوقع في نفسه من تلك اليمين شيء، فاعتزلها منذ أربعة أعوام، فجاوب: إذا كانت يمينه على ما وصفت فالطلاق يتكرر عليه في المرأة التي تزوج بقرطبة كلما تزوج فيها..."[٤].

---

(١) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٣، ص١٢٩.

(٢) الفتاوى، ج٢، ص٩٥٠.

(٣) المصدر السابق: ج٣، ص١٣٠١.

(٤) المصدر السابق: ج٣، ص١٤٢٥.

كذلك من الأسباب التي كانت تتردد كثيرًا في نوازل الفترة المرابطية غياب الزوج عن زوجته فترة طويلة، مما دفع النساء إلى أن يشترطن في عقود نكاحهن ألا يغيب عنهن أزواجهن؛ وهو ما عبر عنه ابن رشد بقوله: "بشرط المغيب حسبما ينعقد في صداقات الناس اليوم"(١)، فقد سئل ابن رشد عن "رجل تزوج امرأة بكرًا، زوّجها أبوها، وانعقد على الزوج في كتاب صداقها معه شرط المغيب حسبما ينعقد في صداقات الناس اليوم، فغاب الزوج قبل البناء بزوجه بحيث لا يعلم؛ غيبةً جاوز فيها المغيب بكثير، فذهبت الزوجة إلى الأخذ بشرطها وحلفت بمحضر جماعة من جيرانها يعرفون غيبة الزوج المذكور، وطلقت نفسها"(٢).

لكن غالبًا ما يتغاضى بعض الرجال عن هذا الشرط مما أدى إلى تفاقم المشاكل بين الزوجين إلى أن تصل إلى الطلاق.

وقد أشارت كتب النوازل عن أسباب غياب الرجال عن زوجاتهم، وأن ذلك إما بسبب خروج الزوج في تجارة وتغيبه مدة طويلة(٣)، أو بسبب مشاركة الزوج بالحروب التي كانت عاملاً آخر من عوامل هذا الغياب(*)؛ إذ كان لا يعرف هل قتل هذا الزوج في المعركة أم لا زال على قيد الحياة، كذلك قد يكون سبب غياب الزوج بسبب ذهابه إلى الحج أو العمرة وتغيبه مدة أطول من المعتاد؛ فقد سئل ابن رشد "عمن غاب عنها زوجها في الحج أكثر من ثلاثة أعوام، فشهد لها جماعة عادلة بمغيبه، وأنه ترك لها ما أنفقت مدة، ونفدت منذ أشهر كثيرة، وأنه لم يبق لها شيء تنفقه على نفسها، فحلفت في الجامع بما يجب به الحلف ثم طلقت نفسها"(٤)، وقد أجاز ابن رشد هذا الطلاق.

كذلك نجد أن طلب المرأة للطلاق ليس بسبب عدم النفقة عليها أثناء غياب زوجها، بل قد نجد أن بعض الأزواج يترك لزوجته ما تعول به نفسها وأبناءها طول مدة غيابه، لكن يرجع ذلك إلى عدم تحمل المرأة هذه المدة من الغياب، فقد سئل ابن رشد عن تطليق الزوجة في

(١) الفتاوى، ج٣، ص٧٨٩.

(٢) المصدر السابق: ج٣، ص١٤٦٠..

(٣) عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج٨، ص١٥٥.

(*) انظر: نص فتوى ابن رشد في نساء المفقودين بالمعارك، في ملاحق هذه الدراسة، (٤: ١٩٧).

(٤) الفتاوى، ج٣، ص١٥٦٠.

غياب زوجها غيبة بعيدة مع وجود ما تنفق منه- كما ورد في المعيار-: "قال القاضي فلان بن فلان: حضرني من قدم عندي لفلانة بنت فلان، وأحضرني بفلان وفلان، فشهدوا عندي أن فلانًا غاب عن زوجته فلانة من مدينة قفصة منذ ست سنين إلى جهة الأندلس، وأن زوجته محتاجة الزوج، وأن عليها مضرة في بقائها بغير زوج، وشهد عندي فلان وفلان أن الزوجة راغبة في الطلاق"[(1)]؛ فأجاز الطلاق.

كذلك قد يقع الطلاق لأسباب خارجة عن مقدور الزوجين، فقد كانت العيوب الخلقية من الأمور التي كانت تستدعي الزوجين أو أحدهما لطلب الطلاق، حيث ينفر أحدهما من الآخر بسبب ذلك؛ فقد سئل ابن رشد عن "امراة ظهر بزوجها جذام من بعد أن ولدت منه أولادًا، وأقامت معه سنين ولم ترفع أمرها إلى الحاكم، وأرادت الآن ذلك، وطالبته أن يطلقها من غير أن ترفع أمرها إلى القاضي..."[(2)].

أيضًا تأثر الزوجين بالوسط الاجتماعي المحيط بهما، لاسيما أقارب الزوجين، فقد يقع خلاف بين أحد أقارب الزوجة مع الزوج، فنجد أن الزوج يسارع في لحظة غضب إلى الطلاق، فقد كتب أحد حكام المرية إلى ابن رشد يسأله في رجل شهد عليه شاهدان عدلان أنهما سمعاه يقول لوالد زوجه قبل البناء بها لتشاجر وقع بينهما، فقال: "بنت هذا طالق ثلاثًا"، فأجاب بأن يفرق بينهما[(3)].

كما كان أيضًا الفهم الخاطئ للنحلة وعدم تفريقها عن الميراث، من الممكن أن يجلب مشاكل للزوجة وربما الطلاق؛ لسوء العلاقات الأسرية بين الزوج وأهل الزوجة؛ فقد ورد في نوازل ابن رشد نازلة تذكر "أن امرأة نحلت ابنتها مالاً عند زواجها، وبعدها طالبها الزوج بميراث الابنة من أبيها، فقالت الأم له: هو ما نحلتك به، فقال لها: النحلة عطية، وهي غير ما أستحقه، فهل تعذر المرأة بجهالتها بذلك أم لا؟"[(4)].

(1) الونشريسي، ج٣، ص٣٢٧.
(2) المصدر السابق: ج٣، ص١٩٣.
(3) االفتاوى، ج٣، ص١٣٩٤.
(4) المصدر السابق: ج٢، ص١٠٥٣.

ولا شك أن الطلاق يترك بصمته وآثاره السلبية على الزوجين، وعلى الأبناء، وعلى المجتمع بأسره؛ أما الأثر الذي يتركه الطلاق على المرأة بشكل خاص فيمكن أن نستشفه من خلال فتاوى ابن رشد، في مشكلة حضانة الأولاد ومدى أحقية كل من الزوجين بتلك الحضانة والخلافات التي تقع بين الزوجين من أجل الحصول على حق الحضانة[1]، فقد أشارت إحدى النوازل إلى أن رجلاً طلق امرأته وله منها ابنة تركها عند والدتها (مطلقته) التي تزوجت من آخر ومكثت الابنة معها نحو خمسة أعوام، وعندئذ أراد الأب أخذ ابنته من والدتها التي رفضت ذلك، ولجأ الأب إلى القضاة وأهل الفتوى، فأفتى ابن رشد آنذاك بأنه لا يحق للأب أخذها إلا أن يثبت عدم أمانة الأم على حضانة ابنتها[2].

ب) المشاكل الأسرية:

كانت الأسرة في العصر المرابطي كغيرها من الأسر، جعل الإسلام منها بنيةً متكاملة، ولكن بالرغم من وجود تلك العلاقات والروابط التي تربط أفراد الأسرة فيما بينهم إلا أنه لم يخل من وجود بعض المشكلات التي قد تؤدي إلى ضعف تلك العلاقة أو انقطاعها، ومنها عدم التزام بعض الأزواج بما عليهم من حقوق وواجبات؛ مما كان يخلق الكثير من المشاكل الأسرية.

فمن جهة الزوج قد يؤدي سلوكه السيئ مع زوجته من اعتداء عليها بالضرب[*]، أو عدم الإنفاق على أسرته، دافعًا لها إلى اللجوء إلى القضاء؛ فقد أشارت إحدى الفتاوى في ذلك العصر إلى أن القاضي قد يطلب من المرأة الإقامة عند امرأة من الصالحات يطلق عليها: الأمينة، حتى تُحل مشكلتها؛ وذلك بأن ينصلح حال الزوج[3].

كما كان غياب الأب عن أسرته في المشرق أو غيرها للتجارة أو الحج عدة أعوام، وانقطاع أخباره بحيث لا يعرف حياته من مماته[4]، من المشاكل الأسرية التي عانى منها المجتمع المرابطي وخاصة المرأة في ذلك العصر، وقد ذكرنا ذلك سابقًا.

---

(١)ابن رشد الجد، الفتاوى ، ج٣، ص١١٧٦.

(٢) المصدر السابق: ج٣، ص١١٧٦.

(*) انظر: عقد يتضمن شهادة ضرب الزوج زوجتة واصابتها بجروح، في ملاحق هذه الدراسة، (٢: ١٩٤).

(٣) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٣، ص١٣١– ١٣٢.

(٤) ابن رشد الجد، الفتاوى، ج٣، ص١٥٦٠.

كذلك أشارت بعض النوازل والفتاوى الفقهية في عصر المرابطين إلى مشكلة عدم العدل بين الزوجات، فقضية تعدد الزوجات قضية محسومة من قبل الشرع، ولا مجال للرأي فيها، قال تعالى: ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾[1].

أما العدل فنجد أن الإسلام شدد على قضية العدل بينهن، فمن كانت له زوجتان فأكثر لا يحل له بحال من الأحوال أن يخص إحدى زوجاته بشيء دون الأخريات، سواء من نفقة أو سكنى؛ فعن أبي هريرة قال: قال الرسول صلى عليه وسلم: (**من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما على الأخرى، جاء يوم القيامة يجر إحدى شقيه ساقطًا أو مائلاً**)[2].

وقد تكون الغيرة وعدم عدل الزوج بين زوجاته سببًا من أسباب حرص المرأة- في عصر المرابطين- على عدم ارتباط زوجها بأخرى، بل دفع بالبعض منهن إلى أن تشترط ذلك في عقد الزواج[3].

فهناك فتوى تشير إلى أن رجلاً من أهل المغرب كانت له زوجتان، فمال إلى إحداهما وبنيها، بينما هجر زوجته الأخرى وأسكنها بلدة مجاورة، ثم أشهد أن نصف الدار للزوجة المنقطع إليها، وأن الماشية والأرض لها ولبنيه منها، وقد تسبب هذا الوضع في خلق منازعات كثيرة بين الأبناء عند وفاة الأب[4].

ولم تكن تصرفات الزوج وحدها هي السبب في هذه المشكلات بل قد تكون المرأة سببًا رئيسيًّا أيضًا في حدوث هذه المشكلات؛ لعدم قيامها بواجباتها تجاه زوجها؛ فقد كان بعض الأزواج يشكو من كثرة خروج زوجته لحمامات العامة، وشكت هي قلة نفقته عليها وأنه يضربها؛ مما دعا القاضي ابن الحاج إلى وضعها عند أمينة من النساء المعروفات بالصلاح

---

(١) سورة النساء: آية ٣.

(٢) الترمذي: الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦م، ج٢، ص٤٣٤.

(٣) ابن رشد الجد، الفتاوى، ج١، ص١٣٣.

(٤) المصدر السابق: ج٥، ص١٢٧.

والتقوى حتى يستبرأ ما شكت منه[١].

كذلك كان خروج المرأة إلى زيارة والديها وعلى فترات متقاربة، كل يومين أو ثلاثة، جعل بعض الأزواج يلجؤون للقضاة من أجل الحد من هذه الزيارات، وأن يكون بين الزيارة والأخرى فترة تطول بعض الشيء، وكان رأي الفقهاء وأهل الفتوى المغاربة الذين عرضت عليهم تلك المشكلة أن من حق الزوجة وواجبها زيارة والديها وتكرار ذلك ما لم يصل إلى حد الإكثار[٢].

كذلك كانت بعض النساء تتمسك بالبقاء في بلدة الأسرة، وعدم الرحيل مع الزوج إلى بلد آخر، فهناك فتوى لابن الحاج تتضمن الإشارة إلى رجل من أهل سوسة تزوج بامرأة من بلدته، وشرطت عليه ألا تخرج منها، فابتنى بها وأقام بضع سنين في سوسة، ثم أراد الخروج إلى القيروان للاستقرار فيها، فمنعه والد الزوجة من ذلك، وعندما عرض النزاع على القاضي، أمر بالسماح للزوج بأخذ زوجته إلى القيروان ما دام الطريق مأمونًا وسيوفر لها المكان الآمن الصالح للسكنى بين جيران صالحين[٣].

ج) مشكلات اجتماعية أخرى:

١) مظاهر الفساد والانحلال الأخلاقي في المجتمع المرابطي:

نجد أن مضايقة بعض الرجال للنساء في الشوارع كانت منتشرة في المجتمع المرابطي،وكانت منتشرة في الأندلس بشكل خاص، ونعطي مثالاً عن حي العطارين في قرطبة، الذي كان مجمعًا للنساء يقضين حاجاتهن من عطور وزيوت وصابون[٤].

وكما أن أيام الجمع والأعياد من أهم المناسبات والأوقات التي تستفحل فيها هذه الظاهرة، حيث ينهى المحتسب أن يترك الشبان أيام العيد يجلسون في الطرقات لاعتراض النساء ومراودتهن، خاصة أثناء زيارة القبور والازدحام في الطرقات[٥].

(١) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٣، ص١٣١.
(٢) المصدر السابق: ج٣، ص١٠٨-١٠٩.
(٣) المصدر السابق: ج٣، ص١٥٩.
(٤) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص٩٧.
(٥) ابن عبدون، رسالة في آداب الحسبة، ص٣٩.

كذلك كان بعض النساء يقفن على أبواب منازلهن مكشوفات الوجه، مما يؤدي إلى المفاسد، وهذا ما أدى إلى منع هذه العادة ومحاربتها من طرف المحتسب ابن عبدون؛ لما فيها من التكشف وعدم الاستتار(١).

كذلك نجد من الفتاوى ما يشير إلى أن الرجل كان يتزوج أحيانًا من امرأة على أنها بكر ثم يفاجأ عند الدخول بها بأنها ثيب، وتعترف له بأن شخصًا زنى بها في دار أبيها(٢).

٢) العنوسة:

أدى غلاء المهور وتكاليف الزواج إلى عزوف كثير من الرجال عن الزواج، وإلى ارتفاع نسبة النساء المرابطيات اللاتي فاتهن الزواج(٣)، فقد أشار ابن القطان إلى ذلك عندما تحدث عن أم المهدي بقوله: "أمه من بني يوسف من مسكالة من أهل السوس... وبنو يوسف هم أخوال الإمام المهدي، وكانت أمه قد أعنست"(٤).

ولم يكن ما سبق هو سبب العنوسة الرئيس فقد كانت كثرة الحروب التي خاضتها الدولة المرابطية مخلفة الكثير من الأرامل من جهة وقلة الرجال من جهة ثانية، إضافة إلى أن التجارة بالجواري أسفرت عن اكتظاظ الأسواق بهن(٥).

٣) الفقر:

ما تعرضت له الدولة المرابطية من مجاعات في بعض مدنها في المغرب والأندلس ونذكر منها مجاعة سنة (٤٨٧ هـ/١٠٩٤م)حيث انعدمت الأقوات وهلك الناس في مدينة بلنسية (٦)، كما وقعت مجاعة سنة (٥٣٥هـ/١١٤٠م) وذلك بسبب حصار الموحدين للكثير من المدن المرابطية(٧).

كذلك تعرضت بلاد المغرب والأندلس في عصر المرابطين لفترات من القحط والجفاف

---

(١) رسالة في القضاء والحسبة، ص١١٣.

(٢) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٣، ص١٦٧، ص١٣٠.

(٣) ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ص٢٠٦.

(٤) نظم الجمان، ص٩٠.

(٥) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص٧٥.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٣٩.

(٧) ابن الزيات، التشوف، ص٢١٢.

بسبب انقطاع الأمطار، ومن ذلك ما حدث سنة (٤٩٨هـ / ١١٠٤م)؛ حيث يذكر ابن عذاري ذلك بقوله: "تناهى القحط في بلاد الأندلس والعدوة حتى أيقن الناس بالهلاك"[(١)]، كما أشار ابن الزيات إلى أن مدينة فاس قد تعرضت للقحط سنة (٥٠٣هـ/١١٠٩م)[(٢)].

فاضطرت بعض النساء بسبب هذه الأزمات إلى بيع جميع ممتلكاتهن بأقل من ثمنها، ومن ذلك ما ذكر ابن الزيات من أن امرأة باعت دارها بأقل من ثمنها؛ لاضطرارها وحاجتها إلى البيع[(٣)].

(١) البيان المغرب، ج٤، ص٩٥.

(٢) التشوف، ص٨٥.

(٣) ابن الزيات، التشوف، ص١٥٣.

الفصل الثالث
أثر المرأة في الحياة السياسية والإدارية

المبحث الأول: مشاركة المرأة السياسية.

المبحث الثاني: مشاركة المرأة الإدارية.

المبحث الثالث: مشاركة المرأة في الجهاد.

-المبحث الأول: مشاركة المرأة السياسية.

حظيت المرأة في المجتمع المرابطي بمكانة هامة عند سلاطين المرابطين؛ مما فتح لها مجال المشاركة في الشؤون السياسية سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

فالمرأة الأندلسية التي عاشت في ظل حكم المرابطين كان لها رصيدها القوي في هذا الميدان منذ عصر ملوك الطوائف، ومن الأمثلة على ذلك: اعتماد الرميكية(١) زوجة المعتمد ابن عباد حاكم إشبيلية، التي كان لها تأثيرها الكبير على حياته، وكان لها دور بارز في الحياة العامة بإشبيلية؛ فهي تعد مثالاً لما وصلت إليه المرأة من نفوذ وسلطة(٢).

كذلك من النساء اللواتي أثرن على حياة الرجال من الناحية السياسية بطريقة غير مباشرة: ولادة بنت المستكفي(٣)، فنحن نعرف أثر التنافس في حب ولادة بين الوزيرين ابن زيدون(٤) وابن عبدوس(٥)، وما جره هذا الحب على ابن زيدون من سجن ومعاناة بسبب مكائد غريمه(٦).

---

(١) اعتماد جارية المعتمد بن عباد وأم أولاده، تشتهر بالرميكية، رافقته في شتى مراحل حياته، وقاسمته أيام الهناء والأسى حينما ذهبت معه إلى منفاه في أغمات بالمغرب، توفيت هناك إلى جانب زوجها. (انظر: المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٢١١-٢١٢).

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٢١١-٢١٢.

(٣) ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبدالرحمن بن عبيدالله بن الناصر لدين الله (٤١٤هـ -٤١٦هـ)، كانت أديبة، شاعرة، جزلة القول، كانت تناضل الشعراء، وتساجل الأدباء، عمرت عمرًا طويلاً، توفيت سنة ٤٨٤هـ. (انظر: السيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، ص٨٩-٩٠).

(٤) ابن زيدون: هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن غالب المخزومي الشهير بابن زيدون، ولد بالرصافة من ضواحي قرطبة سنة ٣٩٤هـ، نشأ في بيئة مثقفة، وكان أبوه من وجهاء قرطبة، فأحضر له الأدباء، قضى ابن زيدون حياته بين قرطبة وإشبيلية، وعاصر الصراع بين الأمويين والعامريين على الحكم، دخل على إثرها السجن، اشتهر بحبه لولادة بنت المستكفي بالله والتردد على مجالسها، كان له عدة رسائل في النثر، أهمها: الرسالة الهزلية، والرسالة الجدية، كما كان له ديوان في الشعر، توفي في إشبيلية سنة ٤٦٣هـ. (انظر: ابن خاقان، قلائد العقيان، ج١، ص٢٠٩-٢١٠).

(٥) ابن عبدوس: هو الوزير أبو عامر بن عبدوس الملقب بالفار، كان ينافس ابن زيدون في حب ولادة بنت المستكفي، وكان أوسع حالاً من ابن زيدون وأوفر مالاً، مالت إليه ولادة بنت المستكفي بعدما مال ابن زيدون إلى جارية لها، كتب ابن زيدون فيه الرسالة الهزلية التي سخر فيها منه. (انظر: المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٢٠٨).

(٦) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، ص١٥١-١٥٢.

وهذا يعطي في الحقيقة صورةً مفادها أن هناك نساءً كثيرات عاصرن الفترة المرابطية وكان لهن تأثير في نساء المرابطين، فاعتماد الرميكية ماتت وهي في سجون المرابطين، وكانت مشهورة عرفتها النساء المرابطيات، إضافة إلى ولادة بنت المستكفي التي اشتهرت في أصقاع الأندلس والمغرب.

وتشير المصادر التاريخية إلى أنه كان للمرأة في البلاط المرابطي دور في الحياة السياسية للدولة(١)، كما أن ارتباط المرأة بالرجل في البلاط المرابطي يمكن من خلاله معرفة مدى ما وصلت إليه من نفوذ وسلطة في عصر المرابطين؛ حيث نجد أن المرأة قد اجتاحت كل الميادين حتى الخاصة بالرجال(٢)، ففي أوج معارك المرابطين التي قادها أبو بكر بن عمر لتوحيد المغرب، وهو الزمن الذي لا يلمع فيه غير نجم الفرسان والأبطال عادة وأولي العزم والبارزين في صناعة الحرب، لمع اسم زينب النفزاوية؛ كما يلمع النجم في كبد السماء، هذه الشخصية التي أسهب المؤرخون في ذكرها، وكانت أغلب ملامح شخصيتها التي أهلتها لتتحكم في الشؤون السياسية للدولة، تكاد تكون واضحة لدينا؛ لما أبداه المؤرخون من الاهتمام بذكرها، فأنا هنا سأحاول إلقاء الضوء على بعض ما ذكره المؤرخون عنها وأقف على السمات التي أكسبتها هذه الأهلية:

كان للأميرة زينب زوج أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أثر بارز في تأكيد سلطة زوجها، بما امتلكته من حنكة وذكاء ودهاء؛ إذ نشأت في جو متحضر(٣)، فاكتسبت الدهاء والكياسة والحنكة؛ مما جعلها تتفوق على الرجال، وتفرض شخصيتها ونفوذها في شؤون السياسة والحكم؛ فكانت- إذن- أولى الصفات التي تحلت بها زينب وميزتها عن غيرها هي رجاحة العقل والذكاء، ومما يستطاب من حديثها- ويعكس مدى رجاحة عقلها- ما حكاه ابن الأثير؛ إذ ذكر "أن ثلاثة نفر اجتمعوا، فتمنى أحدهم ألف دينار يتّجِر بها، وتمنى الثاني عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنى الثالث زينب؛ فبلغت مقالتهم أسماع أمير المسلمين

---

(١) (انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٩٩، المراكشي، المعجب، ص١٣٣، ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٤٦-٤٨، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٠٧).

(٢) عصمت دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص٣١٥.

(٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٧٠.

يوسف بن تاشفين، فأحضرهم بين يديه وحقق أمنياتهم، ثم بعث بالثالث إلى زينب فحبسته ثلاثة أيام بخيمة لا يذوق إلا طعامًا وحدًا، ثم سألته عن مأكله فقال: هو طعام واحد، فقالت: فكذلك النساء، ثم أمرت له بكسوة ومال وصرفته"[1].

كذلك أورد ذكرها ابن عذاري في عدة مواضع؛ ومنها: عندما دخل يوسف بن تاشفين مدينة أغمات، كانت بها امرأة جميلة تعرف بزينب النفزاوية، قد شاع ذكرها وأمرها في قبائل المصامدة وغيرها، فكان يخطبها أشياخهم وأمراؤهم فتمتنع لهم وتقول: "لا يتزوجني إلا من يحكم المغرب كله، فكانوا يرمونها بالحمق"[2].

وذكرها أيضًا السلاوي حيث قال: "كانت من إحدى نساء العالم المشهورة بالجمال والرياسة"[3].

وعندما نتأمل هذين النصين نقف عند حقيقة؛ وهي أن زينب لم تحتل مكانتها الاجتماعية الرفيعة من زواجها بيوسف بن تاشفين الذي سيصبح من أعظم سلاطين المرابطين، بل كانت مكانتها وشهرتها قد ذاعت قبل زواجها به، وليس المقصود بذلك شهرتها بالجمال فقط، إنما بطموحها وعزمها الكبير أيضًا.

كذلك نجدها بعد زواجها بيوسف بن تاشفين كان لها دور هام في التدخل في الشؤون السياسية للدولة، بل كانت صاحبة الفضل في تولي يوسف بن تاشفين زمام حكم دولة المرابطين؛ وذلك بإشارتها عليه بأن يدفع هدية للأمير أبي بكر بن عمر عند رجوعه من الصحراء[4]، وهذا ما نستشفه بوضوح من نص "الأنيس المطرب" حيث قال: "سمع الأمير أبو بكر بضخامة ملك يوسف بن تاشفين، وما فتح الله عليه من بلاد المغرب، أقبل إليه من الصحراء ليعزله ويولي غيره، فأحس يوسف بن تاشفين بذلك، فشاور زوجته في ذلك الأمر فقالت له: يا يوسف، إن ابن عمك رجل متورع في سفك الدماء، فإذا لقيته في غير ما كان يعهده منك من الأدب والتواضع، وأظهر له غلظة حتى كأنك مساوٍ له ومقاوم، ولاطفه مع

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٩، ص٩٩.

(٢) البيان المغرب، ج٤، ص١٨.

(٣) الاستقصاء، ج٢، ص١٤.

(٤) ابن عذاري، البيان، ج٤، ص٢٣-٢٤.

ذلك بالهدية والأموال والخلع والثياب والطعام والطرف، واستكثر من ذلك؛ فإنه ببلاد الصحراء وكل شيء عندهم من هنا مستظرف..."(١).

أيضًا ما ذكره السلاوي فقال: "تزوج زينب النفزاوية التي كانت تحت أبي بكر فكانت عنوان سعده، والقائمة بملكه، والمدبرة لأمره، والفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب، ومن ذلك إشارتها عليه في أمر أبي بكر وكيفية ملاقاته، وهكذا كان أمرها في كل ما تحاول له"(٢).

وما نلاحظه من هذين النصين: ذكاء وحنكة زينب؛ فقد استغلت معرفتها لشخصية أبي بكر من كونه رجلاً ساذجًا خير الطباع، وطلبت من يوسف أن يستعمل مع الأمير أبي بكر أسلوب الترهيب تارة؛ عن طريق إظهار قوته له، ويستعمل اللين تارة أخرى؛ عن طريق الهدايا والخلع، وكان الهدف من هذا كله هو من أجل نقل السلطة منه إلى زوجها يوسف بن تاشفين، بل نجد أن يوسف بن تاشفين نتيجة لثقته بصحة مشورة زوجته زينب يستمر بإرسال الهدايا لأبي بكر مدة ثلاث سنوات إلى أن قتله السودان(٣)؛ وذلك لكي يأمن من أي محاولة من أبي بكر في استرجاع الحكم، كذلك نجد أن يوسف بن تاشفين يعترف بكل تواضع بفضلها عليه، وأنه كان يرجع إليها في تسيير أمور الدولة؛ ومن ذلك قوله: "والله لا خالفتك في أمر تشيرين به أبدًا"(٤)؛ ولم يكن أمر إلا أمرها، بل كان يقول لبني عمه إذا خلا بهم: إنما فتح البلاد برأيها(٥).

بالإضافة لدعم زينب المعنوي ليوسف بن تاشفين، نجدها لم تبخل عليه بأموالها من أجل تثبيت حكمة؛ فقد ذكر هذا ابن عذاري بكل وضوح حيث قال: "فبسطت آماله، وأصلحت أحواله، وأعطته الأموال الغزيرة، فجند الأجناد وأخذ في جمع الجيوش من البربر والاحتشاد... بنفسه، وبتدبير زوجه زينب في كل يوم مع أمسه، حتى ملك أهل المغرب"(٦)، فنجدها تهب مالها طائعة مختارة في سبيل الغاية النبيلة التي نذرت نفسها لخدمتها منذ البداية وهي الزواج من

(١) ابن أبي زرع، ص١٧١_١٧٢.
(٢) الاستقصاء، ج٢، ص٢١.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٣٠.
(٤) المصدر السابق : ج٤، ص٢٤.
(٥) المصدر السابق: ج٤، ص٣٠.
(٦) المصدر السابق: ج٤، ص٢٢.

رجل يلتم شمل المغرب كله على يديه، أو بتعبيرها: "رجل يحكم المغرب كله"، وتكون هي من بعد ذلك مستشارته وملاذه في النائبات.

والحقيقة مع ما وصف به المؤرخون زينب من صفات حسنة، إلا أننا نجد البعض يصفها ببعض السلبيات؛ ومن ذلك وصف "الساحرة" أو "الكاهنة"؛ فابن عذاري يذكر ما نصه: "وكان لها أخبار مستظرفة غريبة كمثل أخبار الكهنة، فبعضهم يقولون: إن الجن يكلمها، وبعضهم يقولون: هي ساحرة، وبعضهم يقولون: كاهنة، فعلم بجمالها الأمير أبو بكر فخطبها وتزوجها، فوعدته بمال كثير تخرجه له، ثم أدخلته في دار تحت الأرض معصب العينين، ثم أزالت العصابة، ففتح عينيه، فرأى بيوتًا فيها ذهب كثير وفضة وجواهر ويواقيت، فعجب من ذلك أبو بكر بن عمر كل العجب لما عاين من الذخائر والذهب والفضة، فقالت له زوجه زينب: هذا كله مالك ومتاعك، أعطاك الله إياه على يدي فصرفته الآن عليك، وكان رؤيته له بضوء الشمع، ثم أخرجته معصب العينين من ذلك الموضع كما أدخلته فيه، فلا علم من أين دخل ولا من أين خرج"(١).

وهذا النص لا يخلو من مبالغة واضحة، ودليلنا في ذلك هو انتشار الجهل بين تلك القبائل قبل أن يظهر أمر المرابطين؛ فمن المقبول أن ينعت كل صاحب طموح بما نعتوا به زينب(٢).

أما ما نقله ابن عذاري من مصدر مالها، فنجده استغل تعلق الناس بالغريب من القصص من أجل جذب انتباه القراء، وهو بذلك يشكك في الرواية الأقرب للعقل من أنها -أي زينب- كانت تحت أميرين قبل أبي بكر، وهذا ما أشار إليه صاحب الاستقصا ونقل عن ابن خلدون قوله: "كان للقوط هذا امرأة اسمها زينب بنت إسحاق النفزاوية"، قال ابن خلدون: "وكانت من إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة، وكانت قبل لقوط عند يوسف بن علي بن عبدالرحمن بن وطاس شيخ وريكة، فلما قتل المرابطون لقوط بن يوسف المغراوي خلفه أبو بكر بن عمر على امرأته زينب بنت إسحاق المذكورة"(٣)؛ فمن خلال هذا النص نحن لا نستبعد أنها اطلعت على أسرارهما فدلت أبا بكر على مكان ثروتهما، أو أن مالها انتقل إليها

---

(١) البيان المغرب، ج٤، ص١٨.

(٢) عبدالهادي التازي، المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي، دار الفلك، الرباط، ١٩٩٢م، ص٥٨.

(٣) السلاوي، ج٢، ص١٤.

عن طريق الإرث، فأنفقته في صالح أمتها كما يجدر بامرأة في مثل رجاحة عقلها وحكمتها، فنحن لا نشكك في حقيقة كونها زوجة أميرين قد تكون ورثت عنهما أموالاً طائلة، بالإضافة إلى أنها أيضًا كانت ابنة تاجر من القيروان(١)، فقد نعتها ابن عذاري نفسه بأنها صاحبة أموال فقال: "كانت هذه المرأة موسومة بالجمال والمال"(٢)؛ فنجده بذلك يعارض ما ذكره من تدخل الجن والسحر في مصدر أموالها.

وأختم حديثي عن هذه الشخصية الفذة لكل من تراءى له استئثارها بالحكم والسلطة بقضية مهمة؛ وهي أن زينب تركت بعد وفاتها تميمًا والفضل والمعز بالله، وكان تميم هذا من القادة العسكريين البارعين(٣)، مع ذلك اختار يوسف لولاية عهده عليًّا من ولد زوجته فاض الحسن؛ مما يفند الزعم القائل باستبداد زينب بأمور الحكم، فلو كانت كذلك لكانت ولاية العهد في ولدها(٤)، ولكنها كانت امرأة فاضلة تبذل الغالي والنفيس في سبيل أمتها، لا تنتظر جزاءً ولا شكورًا، كذلك كان ذكاؤها وحنكتها هو ما جعل يوسف يلتجئ إليها طلبًا لمشورتها في كل شاردة وواردة من أمور دولته، وكان لها دور حاسم وكبير في نشأة وتطور الدولة المرابطية، وتوجيه سياساتها، والتأثير على زوجها يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقي للدولة المرابطية(٥).

وممن كان لهن أيضًا شأنٌ عظيم من النساء في أمور الدولة: فاض الحسن زوجة يوسف بن تاشفين، وكانت جارية رومية من الأندلس(٦)، وأصبحت فيما بعد أم أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين، وكان لها الدور الكبير في تعيين ابنها وليًّا للعهد، فنحن نجد أن يوسف بن تاشفين يقوم بعزل ابنه الأكبر أبي الطاهر تميم مع ما تميز به من صفات تخوله لأن يصبح ولي العهد، ويعين ولدها عليًّا وليًّا للعهد؛ فنحن لا نستبعد أن تكون لزوجته فاض الحسن يد خفية في ذلك(٧).

---

(١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٧٠.

(٢) البيان المغرب، ج٤، ص١٨.

(٣) المصدر السابق: ج٤، ص٣٠.

(٤) المصدر السابق: ج٤، ص٢٣.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٨٩.

(٦) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٩٧ـ١٩٨.

(٧) ابن عذاري، البيان، ج٤، ص٨٣.

كذلك نجد علي بن يوسف بن تاشفين يخضع لطلب زوجته قمر في تولية ابنه إسحاق، فهو يكرر فعل أبيه يوسف بن تاشفين، فيعزل تاشفين عن ولاية العهد ويجعلها وفقًا لرغبة زوجه قمر؛ وهذا ما نستشفه بشكل واضح عند ابن عذاري حيث يذكر ما نصه: "ذكروا أن والدة سير هي التي غارت بأخيه تاشفين لئلا يكبر علي ابنها ويتملك في بلاد الأندلس، فكانت سبب عزله ووصوله... ولما مات سير بن علي فاوضت قمر أباه فيمن يوليه عهده دون تاشفين، فقالت له: ابنك إسحاق، وكانت أمه قد ماتت وتركته صغيرًا فربته قمر أم سير فكان لها كابنها، فقال علي بن يوسف: هو صغير السن لم يبلغ الحلم..."(1)، فاختار المرابطون بالإجماع تاشفين لكي يصبح وليًا للعهد، فنحن نجد محاولات مستمرة وحرصًا شديدًا من قمر على تولية الحكم ممن تتوقع أن يكون لها معه نفوذ وسلطة بتوليه الحكم، وبالفعل استطاعت أن تصل إلى غرضها فنجد علي بن يوسف بن تاشفين يرجع ويصرف عهده إلى ولده الصغير إسحاق(2)، مع أنه في بداية الأمر رفض ذلك بسبب صغر سنه، لكن كان حرص قمر الشديد هو ما جعل ولاية العهد لإسحاق، وهذا دليل قوي على أن الجواري سواء كن مسلمات أو نصرانيات كان لهن أثر في سياسة الدولة المرابطية وتوجهاتها.

وهكذا فقد برزت المرأة في المجتمع المرابطي أمام المسرح السياسي تارة، ومن ورائه تارة أخرى، وقد ظهر دورها جليًا في عهد يوسف بن تاشفين (٤٦٥هـ-٥٠٠هـ) وعهد علي بن يوسف (٥٠٠هـ-٥٣٧هـ)، اللذين يعدان من ألمع الشخصيات في دولة المرابطين.

فقد أدت المرأة المرابطية دورًا فاعلاً في الحياة السياسية، بطريقة مباشرة وغير مباشرة، وسواء كانت زوجة أو جارية ، فكانت أحيانا سببًا لعلوه وعلو البلاد.

لكن عندما نقف على نص المراكشي ووصفه للنفوذ والسلطة التي تمتعت بها المرأة المرابطية حيث يقول: "واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٩٧.

(٢) المصدر السابق: ج٤، ص٩٧

وماخور"(١)، نجده يجعل من هذا النفوذ سببًا في انتكاسة وضياع العباد، وبما أن الشاهد هنا مؤرخ موحدي فنحن نتساءل عن أثر المرأة في البلاط الموحدي ومدى إسهامها في تسيير الشؤون السياسية للدولة والتي عاب المراكشي بالمقابل تدخل المرأة المرابطية في أمور السلطة كما جاء في نصه السابق.

فنحن نجد أن المصادر الخاصة بدولة الموحدين تحاول أن تخفي بشكل واضح دور المرأة الموحدية في الشؤون السياسية لدولة الموحدين، فعلى سبيل المثال زينب أخت المهدي بن تومرت(٢)، ذكر البيذق- وهو شاهد عيان على هذا العصر- في آخر حديثه عن مرض بن تومرت: "فحضر معه في غيبته خمسة أناس: الخليفة عبدالمؤمن، وإبراهيم، وعمر أصناك، ووسنار، وأخته أم عبدالعزيز بن عيسى"(٣)؛ وما نلاحظه من هذا النص أن مكانة زينب كانت أكبر من مكانة أكابر أصحاب المهدي، كذلك أشار أيضًا ابن القطان الى هذه الحادثه بقولة" أنه عندما توفي ابن تومرت كتم أصحابه خبر وفاته، ولم يكن يعلم بخبر وفاته إلا عدد قليل من أصحابه وأخته زينب التي كتمت ذلك أيضًا عن زوجها وأكابر أصحابه"(٤).

كذلك عندما يذكر ابن أبي زرع سبب وفاة السلطان الناصر الموحدي (٥٩٥هـ-٦١٠هـ)(٥) يقول: "وانغمس في لذاته فقام فيها مصطبحًا ومغتبقًا... فمات مسمومًا بأمر وزرائه دسوا إليه من يسمه من جواريه في كأس خمر فمات من حينه"(٦)؛ ما نلاحظه من هذا النص

(١) المعجب، ص١٢٧-١٢٨.

(٢) زينب أم عبدالعزيز بن عيسى، كان المهدي محمد بن عبدالله بن تومرت يعيش معها وكانت تنفق عليه من غزلها في صباه، شهدت وفاته سنة ٥٢٤هـ، كما شهدت البيعة السرية لعبدالمؤمن. (انظر: السلاوي، الاستقصا، ج٢، ص٨٥-٨٦).

(٣) أخبار المهدي، ٤٢.

(٤) نظم الجمان، ص١٧٠.

(٥) الناصر لدين الله: هو أمير المؤمنين محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن(٥٩٥هـ-٦١٠هـ)، أمه حرة اسمها أمة الله بنت السيد أبي إسحاق بن عبدالمؤمن بن علي، كان كبير الهمة، غليظ الحجاب لا تكاد تصله الأمور إلا بعد الجهد، معجب برأيه، بويع في حياة أبيه وجددت له البيعة بعد وفاته، كانت معركة العقاب في عهده والتي أذهبت قوة المسلمين في بلاد الأندلس، ولم تنصر لهم راية بها، توفي مسمومًا سنة ٦١٠هـ بقصره من قصبة مراكش. (انظر: ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ق١، ص٢٠٥).

(٦) الأنيس المطرب، ص٣١٦_٣١٧.

الدور الخطير للجارية في العصر الموحدي بحكم قربها من السلطان والذي جعلها تقدم على مثل هذا الأمر.

وبانتقالنا إلى فترة الرشيد الموحدي (٦٣٣هـ–٦٤٠هـ)[1] تظهر لنا شخصية والدته حباب زوجة المأمون (٦٢٤هـ–٦٣٠هـ)[2] والتي كان لها يد في تولية ابنها؛ حيث يصف ذلك السلاوي بقوله: "أخذ له البيعة كانون بن جرمون السفياني وشعيب أقاريط الهسكوري وفرقسيل قائد الروم؛ لأنه لما مات المأمون كتمت حباب موته وبعثت في هؤلاء النفر الثلاثة... فلما وصلوا إليها أعلمتهم بموت أمير المؤمنين ورغبت منهم ولاية ولدها والقيام ببيعته، وبذلت لهم أموالاً جلية وجعلت لهم مع ذلك مدينة مراكش فيئًا إذا غلبوا عليها، فبايعوه، وقاموا بأمره وتولوا أخذ البيعة له"[3]، فنجدها تضع يدها في يد الروم وتعرض الدولة لموجات من الفتن والحروب كانت في غنى عنها من أجل أطماعها.

وما هذه إلا أدلة واضحة وصريحة على مشاركة المرأة السياسية في عصر الموحدين والتي حاول مؤرخو تلك الفترة إخفاء معالم نفوذ المرأة الموحدية في السلطة والحكم، فهي بذلك لا تختلف عن نظرتهم عن المرأة المرابطية والتي انتقدت من قبلهم على دخولها هذا الميدان.

أما ما جاء في تلميح المراكشي إلى أن المرأة المرابطية كانت سببًا رئيسيًّا في سقوط دولة المرابطين، فهذا إجحاف بحق المرأة المرابطية التي بذلت جميع ما تملك من أجل إرساء دعائم الدولة، كما رأينا ذلك واضحًا في جهود زينب التي كانت سببًا في تولي أعظم سلاطين المرابطين الحكم، كذلك لا ننسى أن دولة المرابطين مرت بفترات ضعف كانت سببًا في

---

(١) الرشيد: هو أمير المؤمنين أبو محمد عبدالواحد بن إدريس المأمون بن يعقوب المنصور (٦٣٣هـ–٦٤٠هـ)، أمه أم ولد رومية اسمها حباب، ثار عليها أهل مراكش بعد أن سمعوا بالاتفاق الذي كان بين أمه والروم، كما التقى به يحيى أبو زكريا بجيش العرب والموحدين لكن الرشيد قبل أن يهزمهم، توفي غريقًا في صهريج وذلك سنة ٦٤٠هـ. (انظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص٣٣٤_٣٣٥).

(٢) المأمون: هو أمير المؤمنين إدريس المأمون بن يعقوب المنصور، كنيته أبو العلاء، أمه حرة اسمها صفية بنت الأمير أبي عبدالله بن مردنيش، ولد بمالقة سنة ٥٨١هـ، كان فصيح اللسان، حافظًا لحديث الرسول، عارفًا بالقراءات، حسن الصوت والتلاوة، بويع له بإشبيلية سنة ٦٢٤هـ، تولى الخلافة والبلاد كانت تعصف بها الفتن والقحط والغلاء، توفي سنة ٦٣٠هـ. (انظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص٣٢٧_٣٢٨).

(٣) الاستقصا، ج٢، ص٢١٦.

سقوطها حالها كحال معظم الدويلات الإسلامية[1].

خلاصة القول: قد- مر معنا سابقًا- أن هناك عوامل كثيرة ساعدت المرأة المرابطية على أن يكون لها دور فعال في مختلف نواحي الحياة بالمغرب والأندلس في عصر المرابطين وخصوصًا السياسية منها، ومن هذه العوامل: قربها من رجال الدولة وحياتها في البلاط السلطاني سواء كزوجة أو أم، فهي من ضمن العائلة الحاكمة، لا سيما وأننا قد وجدنا أن سلاطين وأمراء المرابطين كانوا يقدرون المرأة وأظهروا لها كل احترام وكانوا ينتسبون إلى أمهاتهم، فقربها من رجال الدولة جعل لها أدوارًا سياسية، كما نرى في حالة زينب النفزاوية والجارية قمر أم أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، كذلك من العوامل: مكانة المرأة وما أهلها لهذه المكانة من جمال وخبرة أو ثروة جعل لها أدوارًا هامة في تطور الدولة المرابطية ونجاحها، ولعل سيادة المرأة وامتداد نفوذها في الحياتين الاجتماعية والسياسية يُفسر اهتمام الشعراء بهذه الظاهرة "النسائية" في مدحهم.

(١) كان من هذه الأسباب توزع المرابطين في حروبهم على جبهتين المغرب والأندلس، ظهور الموحدين وحروبهم المستمرة مع المرابطين، كذلك ضعف سلاطين المرابطين والخلافات التي نشأت بينهم من أجل السلطة، كما ساءت الأوضاع الاقتصادية للدولة بسبب الحروب، كل هذه الأمور كانت سببًا رئيسيًا في سقوطهم. (للمزيد انظر: محمد عنان، دولة الإسلام، قسم المرابطين، ص٣٧٨).

-المبحث الثاني: مشاركة المرأة الإدارية.

كان للمرأة المرابطية دور مهم في تأسيس الدولة المرابطية ومساعدة حكامها، وقد مر معنا ذلك عند حديثنا عن مشاركة المرأة السياسة، لكن عند الوقوف على مشاركة المرأة الإدارية نجد أن المصادر التاريخية لا تشير إلى أن هناك نساء تقلدن مناصب إدارية ذات تأثير إداري في الدولة المرابطية، إلا أنه يمكن القول بأن هناك نساء مرابطيات كان لهن تأثير إداري بشكل غير مباشر، فقد قمن بعزل بعض موظفي الدولة وتعيينهم.

وهذا ما نجده واضحًا في تصرف زينب زوجة يوسف بن تاشفين عندما أمرت بعزل أحد القضاة، فقد جاء في نهاية الأرب ما نصه: "حكي عنها أن زرهون- ويعرف بابن خلوف[(١)]- وكان له أدب، فبلغ زينب أنه مدح حواء امرأة سير بن أبي بكر وفضلها على سائر النساء بالجمال والكمال، فأمرت بعزله عن القضاء، فوصل إلى أغمات واستأذن عليها، فدخل البواب وأعلمها به، فقالت: "قل له: امض إلى التي مدحتها تردك إلى القضاء"، فبقي بالباب أيامًا حتى نفدت نفقته، فأتى إلى خادمها فقال له: "إن مولاتك صرفتني ونقمت عليّ مدحي لامرأة سير، ولو علمت أن ذلك يغضبها ما قلته، وقد نفدت نفقتي، وأردت بيع هذا المهر، وعز علي أن يصير في يد من لا يستحقه، وأنا أحب أن تعطيني مثقالين أتزود بهما إلى أهلي، وخذ المهر فأنت أحق به"، فسر الخادم وأعطاه مثقالين وأخذ المهر، ودخل على مولاته زينب وهو فرحان، فقالت له: "ما شأنك؟"، فأخبرها الخبر، فرقت للقاضي وندمت على ما فعلت به، وقالت: "اذهب فأتني به الساعة"، فأحضره إليها، فقالت له: "تمدح زوج سير وتفضلها على سائر النساء، وخرجت في وصفك لها عن الحد، وزعمت أن ليس في الأرض أجمل منها، وما هذه منزلة القضاء، ولا يليق بك أن تنزل نفسك في هذه المنزلة... وكتبت إلى يوسف يرده إلى القضاء، فرده"[(٢)].

---

(١) ابن خلوف: هو عبدالله بن أحمد بن خلوف الأزدي، من أهل سبتة، كان أحد الحفاظ للمذهب، خرج من سبتة، فنزل على بني عشرة بسلا فأكرموه، ثم انتقل إلى أغمات حيث توفي فيها سنة ٥٣٧هـ، وقد قارب الثمانين. (انظر: ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، ص٢٢٠).

(٢) النويري، ج٢٤، ص١٤٦-١٤٧.

فمن خلال هذه القصة نجد أن القاضي يطرق باب الأميرة زينب ولم يفكر في اللجوء إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، مع أنه صاحب اليد العليا في الدولة، لكن هذا يدل على سلطة زينب الإدارية؛ فهي بأمر منها عزلت هذا القاضي ولم يكلفها أمر إعادته إلى منصبه سوى كتابة كتاب إلى أمير المسلمين يوسف الذي سرعان ما رده بناء على طلب زينب.

كذلك مما يدل أيضًا على نفوذ المرأة الكبير ونظرتها الثاقبة في الشؤون الإدارية، نجد أن زينب اتخذت كاتبًا أندلسيًّا نبيهًا لها هو عبدالرحمن بن أسباط(١)، مع أنه لم يكن حسن الخط، إلا أن زينب رأت به من العقل والذكاء ما جعلها تستكتبه(٢)، حيث يذكر صاحب الحلل الموشية أنه هو الذي أشار على يوسف بن تاشفين في قبول مساعدة ملوك الطوائف حين عبوره إلى الأندلس بشرط أن يسلمه المعتمد بن عباد الجزيرة الخضراء ليجعل فيها جنده وسلاحه وكبار مستشاريه وثقاته(٣).

ومن النساء المرابطيات اللواتي عرفن واشتهرن أيضًا: تميمة بنت يوسف بن تاشفين أخت علي بن يوسف(٤)، رآها يومًا كاتب لها، فبهت وكانت قد أمرت بمحاسبته وبرزت لذلك، فلما نظرت إليه عرفت ما دهاه، وفطنت لما عراه فأومأت إليه وأنشدته:

هي الشمس مسكنها في السماء فعـز الفـؤاد عـزاء جميلا
فلـن تسـتطيع إليهـا الصـعود ولـن تسـتطيع إليـك النـزولا

عندما نقرأ هذه القصة نجد هذا النص: (وكانت قد أمرت بمحاسبته)(٥)، فنلاحظ من هذه العبارة ما لنساء البلاط المرابطي – وخصوصًا نساء الخاصة – من سلطة ونفوذ امتد إلى الشؤون الإدارية، مما سمح لهن بمحاسبة ومحاكمة من يعترضهن.

---

(١) كاتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، من أهل الأندلس، كان رجلاً حصيفًا، عاقلاً، شهير المكانة، لما توفيت زينب أقره أمير المسلمين كاتبًا، فنال ما شاء، جاهًا ومالاً وشهرة، توفي فجأة بمدينة سبتة سنة ٤٨٧هـ. (انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص٥٢٣).

(٢) المصدر السابق: ج٣، ص٥٢٣.

(٣) مجهول، ص٣٢.

(٤) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج١، ص١٧٣-١٧٤.

(٥) المصدر السابق: ج١، ص١٧٤.

فهكذا كان للمرأة دور في الشؤون الإدارية بعهد يوسف بن تاشفين، فهي بالإضافة إلى تدخلها في العزل أو توظيف العاملين، نجدها تعاقب وتحاسب من يعملون تحت يدها، لكن نجد أن دورها يتطور بشكل ملحوظ خاصة عندما تولى أمير المسلمين علي بن يوسف، ازداد نفوذ النساء وصارت لهن السيطرة على الحياة العامة في البلاد، ويصور ذلك المراكشي بقوله: "واستولى النساء على الأموال وأسندت اليهن الأمور"(١).

كذلك ذكر المراكشي أن والدة سير بن علي بن يوسف بن تاشفين، تدخلت في عزل تاشفين عن تولي إمارة الأندلس(٢).

وقد كان لهذا التدخل آثاره السيئة، ومنها:

١) كان هذا التدخل في الشؤون الإدارية للدولة مع ضعف أمير المسلمين علي بن يوسف أمام سيطرتهن، عاملاً من عوامل ضعف أحوال الأندلس في أواخر أيامهم وسيطرة النساء على مقاليد الأمور.

٢) تذكر بعض المصادر أن اللصوص في آخر العصر المرابطي كانوا يلجؤون إلى النساء المرابطيات للاحتماء في نفوذهن، فقد ذكر صاحب المعجب ما نصه: "صارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة، مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور"(٣).

وبالرغم مما يحمله هذا النص من مبالغة لكنه دليل واضح على سلطة المرأة ونفوذها في الشؤون الإدارية، سواء في الحكم أو القضاء.

ومن خلال هذا العرض بدا لنا أن المرأة في عصر المرابطين لم تعمل في مناصب إدارية، لكنها كانت تدير بعض الشؤون الإدارية بطريقة غير واضحة للعيان إلا أن تدخلها في الشؤون الإدارية في عهد علي بن يوسف بن تاشفين يكاد يكون واضحًا؛ فهو لم يشمل عزل القضاة فقط، إنما اتجه إلى منحى خطير وهو اختيار ولي العهد، وما يترتب على هذا الاختيار من تحديد مصير الدولة من خلال اختيار ولي العهد المناسب، فنحن نجد أن اختيار قمر

---

(١) المعجب، ص ١٧٧- ١٧٩.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٩٧-٩٨.

(٣) المراكشي، ص ١٧٧- ١٧٩

لإسحاق بن علي جاء من أجل تحقيق رغبتها في إحكام قبضتها ونفوذها على شؤون الحكم، فلم يكن اختيارها من باب اختيار الرجل المناسب للمكان المناسب.

-المبحث الثالث: مشاركة المرأة في الجهاد.

الجهاد هو شعار دولة المرابطين التي قامت عليه منذ عهد عبدالله بن ياسين، كما كان من أهم الدعائم التي اعتمدت عليها الدولة في تكوين شخصيتها، وتوسيع رقعتها، كذلك لمع نجم دولة المرابطين وبدأ صيتها ينتشر بعد جهاد سلاطينهم في الأندلس ودورهم في حمايتها من المد النصراني الذي أخذ يجتاح بلاد الأندلس لاسيما بعد انتصارهم في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ[١].

"وقد قامت دولة المرابطين على جهود رجلين؛ هما: عبدالله بن ياسين صاحب الدعوة الفكرية، ويوسف بن تاشفين صاحب السيف"[٢]، فقد أكمل أحدهما الآخر؛ حيث نجد أن أعمال هذين الرجلين قائمة على الجهاد، سواء بالدعوة أو السيف.

لكن عندما نحاول أن نقف على مشاركة المرأة في الجهاد في ميدان المعارك، فإن المصادر لم تتحدث كثيرًا عن دور النساء اللواتي شاركن المرابطين وجيوشهم في القتال ضد أعدائهم، هذا فيما يخص الجهاد في ميادين المعارك خاصة إبان تأسيس الدولة المرابطية وتمكينها، أما إذا توسعنا في مدلول كلمة الجهاد فإن دائرة مشاركة المرأة المرابطية تتسع في هذا الميدان؛ فمن هذا: قيام المرأة المرابطية بالدعوة لتأسيس دولة إسلامية دينها الإسلام الحنيف؛ حيث نجد أن هناك كثيرًا من النساء درسن أصول الفقه وقمن بتدريسه، وكن حافظات للمتون وراويات السنة[٣]، كما سنرى لاحقًا في حديثنا عن مساهماتها في الفكر والثقافة والعلوم عمومًا، إن شاء الله تعالى.

فالأمر لا يختص به الرجال دون النساء، إنما هو أمر دعوة وتمكين لدولة تقوم على أسس الإسلام الحنيف؛ كما صورها داعيتها الأول عبدالله بن ياسين؛ من جهاد وتضحيات، يقف

---

(١) محمد عنان، دول الطوائف، ص٣٢٣-٣٢٤.

(٢) حسن علي، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص٢٠-٢٢.

(٣) دندش، الأندلس في نهاية المرابطين، ص٣٠-٣١.

فيها النساء مع الرجال في خندق واحد، يجمعهم هدف واحد مشترك.

وممن شاركن في ميادين المعارك: فانو بنت عمر بن يينتان[1] التي قاتلت الموحدين بالسيف قبل أن تسلم إليهم مدينة مراكش، حيث قامت فانو بنت عمر بن يينتان بدور عظيم في الدفاع عن الدولة المرابطية؛ فهي من المقاتلات ممن اتصفن بالشجاعة، والتي يحق للمغرب أن يخلد ذكراها، فقد ذكر البيذق في كتابه عند دخول الموحدين لمراكش ما نصه: "واستفتحت مراكش ودخلت بالسيف، وكان القتال على القصر إلى الظهر، ولم يدخل حتى ماتت فانو بنت عمر بن يينتان، وكانت ذلك اليوم تقاتل الموحدين وهي في هيئة رجل، وكان الموحدون يتعجبون من قتالها ومن شدة ما أعطاها الله من الشجاعة وهي بكر، فلما ماتت حينئذ دخل القصر ولم يعرف الموحدون هل هي امرأة أم لا حتى ماتت"[2] رحمها الله.

فنحن نجد أن فانو قد استماتت في الدفاع بحد السيف عن قصر السلطة المرابطية وناضلت نصف يوم، قبل أن يستسلم إسحاق بن علي ويدخل الموحدون إلى العاصمة مراكش سنة ٥٤١هـ[3]، فهي لم تكن جديدة على أمور القتال بل نستشعر من هذا النص أنها كانت بمنزلة القائد والمحرك الفعلي لرحى المعركة، بل ربط دخول الموحدين للقصر بموت فانو، وقد أثار استبسال وشجاعة هذه العذراء اللمتونية إعجاب الموحدين في ذلك العصر[4]، ومن ذلك قول البيذق: "لم يدخل حتى ماتت فانو بنت عمر"[5]؛ فما هو إلا دليل نستقيه من سياق كلامه على أن هناك بعض المقاتلات ظهرن في عصر المرابطين وشاركن مع رجالات صنهاجة ولمتونة في القتال والدفاع عن الدولة المرابطية.

أما دور المرأة المرابطية بعد ساحة المعركة، فإننا نجدها في بعض الأحيان تسهم في إطلاق الأسرى، فقد ذكر البيذق: "أنه لما عاد عبدالمؤمن بالسبايا، نطقت ابنة الوزير يينتان بن

(١) البيذق، أخبار المهدي، ص٦٣-٦٤.

(٢) البيذق، أخبار المهدي، ، ص٦٣-٦٤.

(٣) مجهول، الحلل الموشية، ص١٠٢.

(٤) أخبار المهدي، ص٦٤.

(٥) المصدر السابق: ص٦٤.

عمر[1]، فقالت: هنا أمير المؤمنين؟ فسمعها وقال لها: نعم، فقالت له: كيف لا تشفع فيّ كما شفع أبي بالمهدي؟ فقال لها: صدقت، أبلغك أهلك، فقالت له: أنا ومن معي، فقال لها: سيري أنت ومن معك"[2]، فمن خلال هذا النص نجد أن ابنة يينتان تذكر عبدالمؤمن بفضل والدها على المهدي، وتستغل ذلك الجميل من أجل إطلاق سراحها، ولم تكتف بذلك بل أطلقت سراح من معها.

لكن لا يعني ذلك نجاة جميع أميرات المرابطين من الأسر فقد جاء في البيان ما نصه: "فخرج عبدالرحمن بن زجو بالعسكر فغنم مليلة، وأخذ فيها مئة بكر، قسمها عبدالمؤمن، نفعهم بذلك، وكانت فيهم ابنة ماكسن بن المعز صاحب مليلة، وفاطمة بنت يوسف، فأخذ عبدالمؤمن بنت ماكسن، وأخذ أبو إبراهيم فاطمة"[3]، فنحن من خلاله نستقرئ العدد الهائل للنساء اللاتي وقعن في الأسر.

وبشكل عام لو ألقينا نظرة على تاريخ الدولة المرابطية منذ قيامها إلى سقوطها لوجدنا أنه لم يتم تجنيد النساء في صفوف الجيش المرابطي، وإن كنا لا نستبعد مشاركتهن في ميدان المعارك وذلك بتقديم العون للجنود في ساحة القتال، أو معالجة الجرحى منهم.

---

(١) هو: يينتان بن عمر، أو عمران كما جاء عند ابن القطان- (انظر: نظم الجمان، ص٦٥)- من كبار قادة المرابطين، وهو الذي قادهم في أول لقاء لهم مع المهدي بن تومرت، كان الموحدون يراعون موقفه مع المهدي عندما طلب من أمير المسلمين علي بن يوسف أن يطلق سراحه. (انظر: البيذق، أخبار المهدي، ص٢٨).

(٢) المصدر السابق: ص٩٢.

(٣) ابن عذاري، ج٤، ص ١٠٠.

الفصل الرابع
أثر المرأة في الحياة العلمية والأدبية

المبحث الأول: جهود المرأة في طلب العلم.

المبحث الثاني: جهودها في التدريس.

المبحث الثالث: جهودها في الرواية والتأليف.

المبحث الرابع: مشاركة المرأة في الجانب الأدبي.

-المبحث الأول: جهود المرأة في طلب العلم.

أهتم المرابطون بتعليم المرأة- كما ذكرنا سابقًا- وكان التعليم وانتشار حب العلم والمعرفة وجمع الكتب ونسخها، ظاهرةً معروفة في عهدهم، ولم يقتصر العلم والتعليم على الرجال، بل كان للنساء نصيب من ذلك، خاصة في الأوساط الثرية والسادة من القبائل الصنهاجية ولمتونة وجدالة ومسوفة؛ فقد كانت العائلات الوجيهة من المرابطين قد عرفت عالمات أديبات اهتممن بالتعلم وبمطالعة الكتب وجمعها(١)، ولما استقر المرابطون في الأندلس بعد دخولها احتكوا بأهلها، وفُتح أمامهم الاهتمام بالتعليم وبدؤوا يتعلمون من الأندلسيين، الذين كانوا يعتبرون التعلم وسيلة للسعادة والفلاح، وكانوا يحثون أبناءهم على ذلك(٢).

وبلا شك، كانت البيئة والوسط الديني والتربية الأسرية التي تربى فيها مجتمع الملثمين كل ذلك قد ترك آثاره على جهود المرأة المرابطية في طلب العلم؛ إذ نجد الكثير من النساء المتعلمات والعالمات، ونحن نعتقد أن تفهم المرأة لطرق معيشتها الأسرية وعلاقات المرأة بزوجها خصوصًا والمجتمع عمومًا واستقامتها، يعود فضله إلى جهودهنّ في تحصيلهن العلمي وخاصة الديني منه، وكذلك إلى تربيتهن الدينية والعلمية، وشغفهن بحب الاستكشاف العلمي.

وقد كان هناك الكثير من الأسباب التي دفعت المرأة المرابطية للتعلم؛ منها:

١) التنشئة الأسرية؛ فقد كان للأهل والأقارب الفضل في تعليم الأبناء، فنجد أن من الأبناء من أخذ عن عمومته، ومنهم من أخذ عن أجداده، ومنهم من أخذ عن أخواله(٣)، فقد كانت فاطمة الوشقي(٤)، ممن طلبن العلم ولها سماع من أبي داود المقرئ، وكان أبوها مقرئًا بسرقسطة(٥)، فنجد أن علمها اكتسبته من والدها والبيئة العلمية التي نشأت بها، بل كان الأهل في كثير من

(١) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج١، ص١٧٣- ١٧٤.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٢٠- ٢٢١.

(٣) المصدر السابق: ج٢، ٢٨.

(٤) فاطمة بنت عبدالرحمن بن محمد بن حيوة الوشقي، طلبت العلم وسمعت من أبي داود المقري بداية سنة ٤٩٠هـ. (انظر: ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٩٠).

(٥) المصدر السابق: السفر الثامن، ق٢، ص٤٩١.

الأحيان هم من يقومون بمهمة تعليم بناتهم بأنفسهم دون اللجوء إلى معلم، فنجد أن أحمد اللخمي[1] علم ابنته كتابة الخط بنفسه[2]، كذلك تعلمت فاطمة الشراط على أبيها القرآن بحرف نافع، وصحيح مسلم، وأمالي القالي[3]، كما أخذت أم هانئ عن أبيها[4]. ولا نستبعد أن تكون الأم قد قامت بدور كبير في توجيه بناتها إلى التعليم والتأثير على الأب بذلك.

كما كانت بعض الأسر تستأجر لأبنائها الصبيان والبنات مؤدبًا أو معلمًا يتولى تعليمهم وتلقينهم العلوم، حسبما اتفق الطرفان في العقد، كما تشير مصادر الوثائق والعقود ويأخذ المؤدبُ مقابل ذلك أجرًا[5].

أما فيما يتعلق بسماح الآباء لبناتهم بشد الرحال والقيام برحلة عملية من أجل طلب العلم، فنحن لم نقف على نصوص صريحة تثبت رحلة المرأة من أجل طلب العلم، وإن كنا لا نستبعد ذلك؛ لأن المرأة في عصر المرابطين وصلت لمنزلة رفيعة من العلم حتى إن الرجال أخذوا عنها.

٢) كان أيضًا للوسط الديني الذي قامت على أساسه الدولة المرابطية الأثر الأكبر في توجه المرأة نحو التعليم؛ فهذا الوسط هو الذي فتح للمرأة المرابطية الباب نحو العلم، وكان له جل الفضل في تحصيلهن العلمي وتربيتهن، فقد أخذت طونة بنت عبدالعزيز، عن أبي عمر بن عبدالبر الحافظ كثيرًا من كتبه وتواليفه[6]، وعن أبي العباس أحمد بن عمر العذري الدلائي[7]، وسمع زوجها أبو القاسم المقرئ بقراءتها، وكانت حسنة الخط فاضلة دينة[8]، كما فاقت ليلى[9]

(١) أبو العباس أحمد بن عبدالله بن أحمد بن هشام اللخمي الفاسي، ولد بفاس سنة ٤٧٨هـ، كان من مشاهير العلماء وأعيانهم، وكان مع صلاحه فيه فضيلة ومعرفة بالأدب، نسخ بخطه كثيراً من كتب الأدب وغيرها، وكان جيد الخط، توفي سنة ٥٦٠هـ. (انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٥٤).

(٢) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج١، ص١٤١- ١٤٢.

(٣) ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٩٠.

(٤) المصدر السابق: السفر الثامن، ق٢، ص٤٧٧.

(٥) ابن رشد الجد، الفتاوى، ج٢، ص١٥٦.

(٦) ابن بشكوال، الصلة، ج٢، ص٩٧٣- ٩٧٤.

(٧) المصدر السابق: ج٢، ص١١٥- ١١٦.

(٨) المصدر السابق: ج٢، ص٩٩٧.

(٩) ليلى: هي معتقة الوزير أبي بكر بن خطاب، من أهل سبتة، فاقت نساء زمانها في الذكاء والفهم في كل نوع من =

نساء زمانها في العلم؛ وذلك ما حمل القاضي أبا القاسم بن هشام ابن أبي جمرة[(١)] على تزوجها مع جلالة قدره في العلم والدين، فالتعليم الديني وأثره على المرأة فتح لها أبوابًا من المشاركة في المجتمع والعمل فيه للمساعدة في إعالة أسرتها أو نفسها.

٣) هدف نفعي يقصد به كسب الرزق للعيش، وهذا أمر أيضًا دعا إليه الشرع إذا كان وفق ضوابط شرعية لا تخالف الدين؛ قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[(٢)]، ومن هذا المنطلق نجد من النساء المرابطيات مَن تعلمن الكتابة طلبًا لكسب الرزق، فنجد أن أحمد اللخمي عندما علم بنته وزوجته الخط جعلهما يشاركانه في نسخ الكتب، ومن دقتهن في النسخ لا يفرق أحد بين خطوطهم لتماثلها[(٣)].

أما أماكن تعليم المرأة المرابطية، فهي:

١) منازل العلماء:

حيث يمثل المنزل المدرسة الأولى التي تلقت المرأة المرابطية فيها تعليمها؛ إذ يلاحظ أن كثيرًا من النساء اللائي اشتهرن بالعلم في عصر المرابطين نشأن في بيوت العلماء، ودرسن على أيدي آبائهن أو أحد ذويهن من أولي العلم؛ _كما مر معنا سابقًا_[(٤)]، أو أنهن كن يستفدن من الدروس التي كانت تعقد في بيوتهن لتعليم الطلاب؛ حيث كن يستمعن إلى ما كان يلقى في منازلهن من دروس[(٥)].

العلم؛ وذلك ما حمل القاضي أبا القاسم بن هشام بن ابي جمرة قاضي غرناطة على تزوجها، توفيت عنده قبل ولايته قضاء غرناطة بمدة. (انظر: ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٥٦٦).

(١) محمد بن هشام بن أحمد بن وليد الأموي، يكنى أبا القاسم، ويعرف بابن أبي جمرة، من أهل مرسية، روى ببلده عن أبي علي حسن بن محمد الصدفي، وصحب أبا محمد بن جعفر الفقيه، كان من أهل الحفظ، والعلم والمعرفة، والذكاء والفهم، استقضى بغرناطة، توفي بمرسية سنة ٥٠٣هـ. (انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج٢، ص٨٤٥).

(٢) سورة القصص، آية رقم ٧٧.

(٣) محمد المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، ص٢٤.

(٤) ابن بشكوال، الصلة، ج٣، ص ٩٩٧.

(٥) ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، ج٢، ص٦٣

٢) المساجد:

كانت أبواب المساجد في عصر المرابطين مفتوحة لمن أراد أن يتلقى تعليمه من النساء؛ إذ إن التعليم داخل المنازل وبين الآباء والأزواج إن تيسر لبعض النساء، فإنه قد لا يتيسر لشريحة أخرى من النساء[١].

٣) تعلم المرأة المرابطية على يد امرأة مثلها:

ومعنى هذا أن العملية التعليمية طرفاها من النساء تعليمًا وتعلمًا؛ وقد أشار المقري إلى ذلك عند ترجمته لمريم بنت أبي يعقوب[٢]، فقال: "كانت أديبة، شاعرة جزلة مشهورة، وكانت تعلم النساء الأدب"[٣]، والحقيقة أن النصوص التي تشير إلى تعلم الرجال على أيدي عالمات مرابطيات أكثر من الإشارة إلى تعليم المرأة للمرأة[٤].

٤) المجالس الأدبية:

لقد احتل الأدب والشعر مكانة بارزة عند السلاطين المرابطين، ولقد حظيت قصورهم بالنصيب الوافر من هذه المجالس وتوافد عليهم الشعراء يتسابقون ويتنافسون لإرضائهم، ومن هؤلاء الشعراء: الأعمى التطيلي، وابن خفاجة، وغيرهم، وكانت تعقد فيها بعض المناظرات الأدبية والتي كانت الأميرات المرابطيات يحضرنها أو قد تكون لهن مجالسهن الأدبية الخاصة بهن؛ مثل حواء بنت تاشفين، وتميمة، وغيرهن[٥]، ورغم أن هذا النوع من المناقشات هو ترف فكري إلا أنه صورة من النشاط الأدبي الذي أكسب المرأة المرابطية علمًا ومعرفة، بالإضافة إلى الترويح عن النفس.

والحقيقة أن المرأة المرابطية اهتمت بطلب العلم فحرصت على حضور مجالس العلم، وحصلت على الإجازات العلمية؛ مثل زينب بنت أبي الحسن المعافري التي روت عن أبيها

---

(١) ابن الابار، المعجم، ج٢، ص٦٠.

(٢) مريم بنت أبي يعقوب، سكنت إشبيلية، أديبة، وشاعرة جزلة، شهرت بعد الأربعمئة، عمرت عمرًا طويلًا. (انظر: الضبي، بغية الملتمس، ج٢، ص٢٢٩).

(٣) نفح الطيب، ج٤، ص٢٩١.

(٤) دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل عصر الموحدين، ص٤١٣.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٥٧– ٥٨.

وأجاز لها[1]، كما حصلت ريحانة على إجازة المقرئ أبي عمرو[2] حيث يذكر الضبي قصة إجازتها بقوله: "كانت ريحانة تقرأ عليه القرآن، وكانت تقعد خلف ستر فتقرأ ويشير لها بقضيب بيده إلى المواقف، فأكملت السبع عليه، وطالبته بالإجازة فامتنع، وقرأت عليه خارج السبع روايات، فقرأت عليه ذات يوم: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾[3] فقال: اكسري الحاء، فقالت: «وقالوا لا تنفروا في الحوار»، فقال: أنا لا أجيز مثل هذه، والله لا برحت أو أكتب لها، فكتب إجازتها في ذلك الموضع"[4].

كما عرف عن المرأة المرابطية اهتمامها بتلقي الآداب والأحكام التي تتعلق بالدين، وأسهمن في تلقي الدين القائم على العلم، ولم يترددن في ذلك؛ فكن يستشرن في كثير من المسائل الفقهية المتعلقة بأمور دينهن، بل تطور دورهن، حتى إن المقري ذكر أن بعض النساء كن يشرن على القاضي بحلول لبعض القضايا[5]، وما نستشفه هنا خير دليل على ما وصلت إليه المرأة من مراتب العلم ومعرفة بالنوازل والأحكام مما جعل القضاة يرجعون إليها.

كذلك كانت المرأة من جميع فئات المجتمع الغنية أو الفقيرة تعمل أيضًا في نسخ الكتب فقد ساعد احتراف الكثير من النساء نسخ المصاحف وكتب العبادات المرأة على تعلم الخط والدين وغيره، ولم يقتصر على الطبقات العليا أو الدنيا؛ ودليلنا في ذلك أن الكثير من النساء اتخذن من مهنة النسخ والكتابة حرفة ومهنة يكتسبن منها رزقهن[6].

---

(١) المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٨٥.

(٢) عثمان بن سعيد بن عثمان أبو عمرو المقرئ، يعرف بابن الصيرفي، إمام عصره في الإقراء، محدث مكثر، أديب، رحل إلى المشرق قبل الأربعمئة فسمع أبا العباس أحمد بن محمد القاضي، وأبا محمد عبدالرحمن بن عمر المالكي، وغيرهم، طلب علم القراءات فرأس فيه، وقرأ وسمع الكثير، عاد إلى الأندلس فتصدر بالقراءات، وألف فيها، توفي سنة ٤٤٤هـ. (انظر: الضبي، بغية الملتمس، ج٢، ص٥٣٨).

(٣) سورة التوبة: آية ٨١.

(٤) الضبي، بغية الملتمس، ج٢، ص٥٣٨.

(٥) نفح الطيب، ج٤، ص٢٩٤.

(٦) المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٨٧.

كما ظهر أيضًا الكثير من النساء المرابطيات العالمات والأديبات والشاعرات، بل برز من النساء من أتقنَّ علومًا أخرى؛ كالطب والصيدلة، فأختا الحفيد أبي بكر بن زهر كانتا عالمتين بالطب فأفادتا به النساء؛ حيث كانت لهما خبرة جيدة بمداواة النساء[1]، وغير ذلك من العلوم التي تناسب المرأة، وكن مثالاً في التعلم.

وما نستشفه مما سبق أن المرأة المرابطية أفادت في تعليمها نفسها ومجتمعها، الأمر الذي ساعدها على المشاركة في الحياة العامة والخاصة في المجتمع المغربي والأندلسي في عصر المرابطين.

(١) المراكشي، الذيل والتكملة السفر الثامن، ق٢، ص٤٨٣.

-المبحث الثاني: جهودها في التدريس.

لقد اهتم المرابطون بتعليم المرأة كما رأينا، وكانت هي نفسها تواقة وشغوفة بطلب العلم، فأفادت نفسها ومجتمعها، وكان من الطبيعي أن يثمر عن جهود المرأة في طلب العلم عالمات جليلات يخدمن فيه المجتمع ابتداءً من أسرهن وأزواجهن.

فظهر من النساء اللواتي عاصرن الفترة المرابطية المعلمة والأُديبة والشاعرة والواعظة، واشتهرت الكثيرات منهن في مجالات شتى؛ فمنهن أم العفاف نزهة بنت الحسين التي شد الرحال إليها الرحال[1]، وتلا عليها حفيدها محمد بن أحمد بن أبي القاسم سيد الناس، بالتسع: السبع المشهورة وقراءتي يعقوب وابن محيصن[2].

ومنهن كذلك العروضية مولاة أبي المطرف عبدالرحمن بن غلبون القرطبي الكاتب، وكان لها معرفه بالعروض وأوزان الشعر، وعنها أخذ أبو داود سليمان بن نجاح المقرئ العروض والنوادر لأبي علي والكامل للمبرد[3].

كذلك نجد أن ما وصلت إليه المرأة من علم ساعدها كثيرًا على أن يكون لها دور فعال في مجال التدريس، وخصوصًا الديني منه؛ إذ اشتهرت بعض النساء اللائي تتلمذ عليهن طلبة العلم؛ مثل القاسم بن محمد بن أحمد الأنصاري[4]؛ روى قراءة وسماعًا عن أمه أم الفتح فاطمة بنت أبي القاسم الشراط[5]، وأجازت له بخطها.

---

(١) ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق٢، ص٦٥٤.

(٢) المصدر السابق: السفر الخامس، ق٢، ص٦٥٤- ٦٥٥.

(٣) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص١٧١.

(٤) ابن الطيلسان: هو القاسم بن محمد بن الحمد الأنصاري القرطبي، ولد سنة ٥٧٥هـ، صنف الكتب، وكان بصيراً بالقراءات، ولي خطابة مالقة بعد ذهاب قرطبة، وأقرأ بها وحدث. (انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج١، ص٢١٠).

(٥) ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة السفر الثامن، ق٢، ص٥٥٧.

بل نجد أن بعض الرجال يفخر بأنه درس وتعلم على يد بعض النساء، فكان أبو بكر عياض بن بقي يفخر بأنه قرأ على يد أم شريح المقري وكانت تقرئ القرآن[1].

وهكذا نجد أنه لم يقتصر دور المرأة على التعلم فقط، بل كان لها أيضًا أثر واضح في نشر ما تعلمته، ومن خلال دراسة ترجمات كثير من النساء العالمات في عصر المرابطين يتضح أن الأقربين للمرأة- رجالاً ونساءً- كانوا هم أول من يستفيد من علمها، ثم هي لا تبخل بعلمها على طلبة العلم الآخرين.

(١) ابن بشكوال، الصلة، ج١، ص٣٦٦.

-المبحث الثالث: جهود المرأة في الرواية والتأليف.

تبين لنا من خلال عرضنا السابق أن النساء نافسن الرجال في العلم، بل نجد أن منهن من يقوم بمهمة التدريس والوعظ، كما كن يعملن في نسخ الكتب؛ لذلك نجد أنه من الطبيعي أن تثمر جهود المرأة في طلب العلم وتعليمه، عن نساء عالمات وراويات للسير والأحاديث والنوازل، وإن كنا وجدنا من النساء في هذه الفترة شاعرات ومدرسات فهناك راويات أيضًا.

فقد ذكر أبو محمد عبدالله بن علي(١) أنه رجع إلى أسماء بنت علي(٢) لمعرفة سبب نسبتهم إلى الرشاطي، حيث كان يظن أنها نسبة إلى موضع أو بلد فسأل أباه فقال: هذه نسبة قد شهرنا بها نحن وآباؤنا ولا أعلم لها أصلاً، وعندما سأل عمته أسماء قالت له: "إن أحد أجدادنا كانت به في جسمه شامة كبيرة، هي التي تعرف بالوردة، ويسميها العجم رشتة، وكانت له في صغره خادمة أعجمية تحضنه وتكفله، فكانت عندما تخدعه وتلاعبه تقول له: رشطاله، وكثر ذلك منها حتى غلب عليه وقيل: رشاطي"(٣)؛ فلولا هذه الإفادة بهذه القصة عن هذه المرأة لما عرفنا سبب التسمية.

كذلك نجد أن المرأة أيضًا قد أسهمت في مجالس العلم، فروين الحديث وقرأن على الشيوخ، وبهذا الخصوص تتردد عدة أسماء مثل طونة بنت عبدالعزيز(٤)، وزينب ابنة عباد بن سرحان المعافري، روت عن أبيها(٥)، وأيضا مسعدة(٦) بنت أبي الحسن الباذش(٧) من عفائف

---

(١) أبو محمد عبدالله بن علي بن عبدالله اللخمي الرشاطي، ولد سنة ٤٦٥هـ، الفقية، النسابة، له كتاب اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة، توفي سنة ٥٤٢هـ. (انظر: الضبي، بغية الملتمس، ج٢، ص٤٥٣).

(٢) أسماء بنت علي بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمية، الرشاطية. (انظر: ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٧٨).

(٣) المصدر السابق: السفر الثامن، ق٢، ص٤٧٩.

(٤) ابن بشكوال، الصلة، ج٢، ص٦٥٨.

(٥) ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٨٩.

(٦) مسعدة بنت أبي الحسن بن أحمد بن خلف بن الباذش زوج أبي عبدالله النميري وأخت أبي جعفر، من طليطلة، كانت فاضلة، عفيفة، توفيت سنة ٥٧٠هـ. (انظر: المصدر السابق: السفر الثامن، ق٢، ص٤٩٢).

(٧) علي بن أحمد بن خلف بن محمد أبو الحسن المعروف بابن الباذش، من أهل غرناطة، رحل إلى مرسية فأخذ عن أبي =

النساء وكانت لها رواية عن أبيها.

أما فاطمة بنت الفقيه الصدفي فكانت تحفظ القرآن وتقوم عليه وتذكر كثيرًا من الحديث في الأدعية وغيرها[1].

وهكذا يبدو لنا أن النساء في عصر المرابطين أصبحن من العالمات الجليلات اللائي سطع نجمهن، وطارت شهرتهن فقصدهن الرجال للأخذ عنهن.

أما عند الحديث عن مؤلفات المرأة المرابطية، فنجد أنها نادرة، وليس الأمر كما يبدو للذهن لأول وهلة في أن السبب هو أن فرص التعليم كانت متوفرة للرجل في عصر المرابطين أكثر من المرأة، لكنني أرجع سبب ذلك إلى ثلاثة عوامل:

١) عدم تفرغ المرأة للتأليف، بسبب طبيعة عملها في شؤون البيت، بالإضافة إلى انشغالها في تربية الأولاد والعناية بهم، والتأليف يحتاج إلى هدوء، وصفاء ذهن، وإلى تفرغ، وهذا ما تفتقده المرأة المرابطية وغيرها من النساء حيث كانت مسؤولة عن شؤون بيتها.

٢) رغبة المرأة في السماع والكلام أكثر من الاتجاه إلى التأليف؛ ولذلك يلاحظ بروز الكثير من الشاعرات المرابطيات، وكذلك بروز مواهبهن في الأدب واللغة.

٣) إهمال كثير من الكتاب والمؤرخين، تراجم النساء، وقد تكون أكثر الأسباب في هذا الأمر عدم إلمام الكاتب بالجوانب الكافية لترجمة المرأة التي تكون مبنية على الستر والتعفف.

وإن كان للمرأة المرابطية مؤلفات، فإنه لم يصلنا منها شيء، غير أن هناك بعض الإشارات توحي بطبيعة مؤلفاتهن؛ حيث جاء في ترجمة أم الهناء بنت القاضي محمد عبدالحق بن عطية أن لها تأليفًا في القبور؛ ومن ذلك ما ذكر المقري بأنها "كانت حاضرة النادرة، سريعة التمثل، من أهل العلم والعقل، لها تأليف في القبور"[2]، لكن نجد المؤرخ هنا لم يذكر لنا شيئًا من فصول هذا الكتاب أو جزءًا يسيرًا منه، وهذا ما لم نقف عليه.

علي الصدفي روايته، وحضر ذلك ابنة جعفر، توفي سنة ٥٢٨هـ. (ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، مجلد٣، ص٢٨٠- ٢٨١).

(١) عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٩٨٩م، ج١، ص٣٢٦.

(٢) نفح الطيب، ج٤، ص٢٩٢.

كذلك عندما يذكر المقري العروضية يقول: "إنها كانت قد أخذت عن مولاها النحو واللغة، لكنها فاقته في ذلك، وبرعت في العروض، وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالي، وتشرحهما"[1].

وعندما ترجم لها السيوطي[2] قال: "كانت تحفظ الكامل للمبرد، والنوادر للقالي، وشرحهما".

وما نستشفه من هنا أنها لم تصنف كتبًا تشرح فيها الكامل والنوادر، بل كانت عارفة بمحتوى الكتابين، فاهمة لمضمونهما، تشرحهما وتعلق على ما غمض منهما، أو أنها تحفظ أيضًا شروحًا عليهما.

والحقيقة أن المرأة المرابطية لم تحظ بالاهتمام من طرف المؤرخين في بيان دورها في التأليف وإبراز ذلك، حيث بدا لنا أن المرأة المرابطية لم تكن قابعة في دارها، أو مكتفية بتلقي بعض مبادئ القراءة والكتابة، بل مارست بعض ما تلقته من علوم، وشاركت الرجل في نشاطاته الثقافية والأدبية، إضافة إلى دور المرأة الأساسي في الحياة الاجتماعية عامة والذي تشكل الرواية جزءًا منه.

---

(١) نفح الطيب، ج٤، ص١٧١.

(٢) نزهة الجلساء، ص٦٥.

-المبحث الرابع: مشاركة المرأة في الجانب الأدبي.

برز في عصر المرابطين عدد من الشعراء والأدباء، وقد حظي هؤلاء برعاية السلاطين، فقد جمع البلاط المرابطي بعض كبار الكتاب والأدباء الأندلسيين والمغاربة[١]، كذلك أثر المذهب المالكي وعلماؤه وفقهاؤه في توجيه الأدب المغربي وجهة تميزت بالبساطة والوضوح[٢] مع الالتزام بالقيم غالبًا، وزادت هذه الحركة نشاطًا في عهد علي بن يوسف الذي اهتم بالشعر والأدب، وشجع الشعراء والأدباء؛ الذين توافدوا على بلاطه من أهل الأندلس[٣]؛ كما مر معنا سابقًا.

ومن الطبيعي أن يؤثر هذا الحراك الأدبي وخصوصًا الشعري منه على المرأة المرابطية، سواء في الأندلس أو في المغرب، فقد شاركت المرأة المرابطية الرجل في جميع هذه المجالات الثقافية، وكانت مشاركتها من جهتين:

الجهة الأولى: "أن المرأة ملهمة للرجل في النتاج الثقافي، فكانت وحيًا جميلاً نسج في سبيلها الشاعر قصائده، واستلهم من جمالها ومكانتها في الحياة الأدبية والاجتماعية أدبه، وكانت بذلك شريكة الرجل في النتاج الأدبي والثقافي الذي أدى إليه وجود المرأة؛ حيث أفرد لها القصائد الكثيرة"[٤]، فتوجه إليهن الشعراء إما متغزلين، أو مادحين طالبين للعطاء أو الشفاعة، ومن هؤلاء الشعراء: الأعمى التطيلي، الذي يقول على لسان امرأة أسماها زهر، كانت تحثه على طلب الرزق، ثم أشارت عليه بالقدوم إلى الأميرة حواء بنت تاشفين[٥] فقال فيها:

---

(١) حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص٤٣٨.

(٢) الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، ص١٩٢.

(٣) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص ٢١٠.

(٤) فوزية عبدالله العقيلي، الرؤية الذاتية في شعر المرأة الاندلسية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا، فرع الأدب، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ص٦٣.

(٥) يجب أن نشير إلى أنه كان في عصر المرابطين حرتان؛ الأولى: حواء بنت إبراهيم بن تيفلويت، وهي أخت الأميرة مريم ولها ترجمة عند (ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٩٤- ٤٩٥)، الثانية: حواء بنت تاشفين، وهذه بنت أخي يوسف بن تاشفين أمير المسلمين لأمه (وقد سبق لنا ذكرها)، ونجد لها بعض الأخبار في البيان المغرب لابن عذاري، (ابن عذاري، البيان، ج٤، ص٥٦- ٥٧).

ويرى إحسان عباس أن هذه القصيدة في (حواء بنت تاشفين) لا في (حواء بنت إبراهيم بن تيفلويت)، كما ذهب ابن =

هبـــت تعـــاتبني زهـــر وقـــد علمـــت | أن العتاب شجى في القلب أو شجب[1]
قالــت قعــدت وقــام النــاس كلهمــو | ألا يعللــــــك الإثــــــراء والرتـــــب
فقلــت كُفِّــي فمــا تغنــي مقــارعتي | فــي أزمــة ضــاع فــي أثنائهــا الأدب
فاستضحكت ثـم قالـت أنـت في سعة | من أن تسيم وهذا الماء والعشب[2]
أمــا رأيــت نــدى حــواء كيــف دنــا | بالغيــث إذ كــاد يــأتي دونــه العطــب

فنجد الشاعر من خلال هذه الأبيات يصف كرمها بأنه غيث من السماء جاء رحمة للأرض بعد طول جفاف[*]، وقد عرفت الأميرة حواء بنت تاشفين بالصلاح والإنفاق على الفقراء[3]، وهذا الكرم والعطاء هو ما دفع الشاعر إلى مدحها.

أما ابن خفاجة في مدحه للأميرة مريم زوجة الأمير أبي الطاهر تميم فنجده يريد منها الشفاعة فيقول[4]:

وكفـــي اجتمـــاع مكانـــة وصـــيانة | أنـــي علقـــت بذمـــة مـــن مـــريمِ
ذات الأمانـــــة والديانـــــة والتقـــــى | والخلــق الاشــرف والطريــق الأقــوم

عبدالملك المراكشي (انظر: الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق٢، ص٤٨٩)، فالشاعر في هذه القصيدة يتوسل إليها بالجوار بإشبيلية، ويسمي إخوة لها هم: يحيى، ومحمد، وأبو بكر في أحد أبيات القصيدة، وهؤلاء هم الأمير يحيى بن تاشفين الذي ولاه أمير المسلمين علي بن تاشفين على قرطبة (انظر: ابن عذاري، البيان، ج٤، ص٦١)، والأمير محمد بن تاشفين الذي كلفه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بتحرير بلنسية (انظر: ابن عذاري، البيان، ج٤، ص٣٤- ٣٧)، والأمير أبو بكر، وهو أيضاً ابن أخي يوسف بن تاشفين لأمه (انظر: ابن عذاري، البيان، ج٤، ص٣٤)، ويقول التطيلي: "بنى لك ابن علي بيت مكرمة له العوالي عماد والظباء طنب"، وابن علي هو أبو الممدوحة حواء بنت تاشفين بن علي، فقد كان هذا تاشفين أخو يوسف بن تاشفين لأمه، وعلى هذا تكون حواء بنت تاشفين هي التي عناها التطيلي، (انظر: احمد بن عبدالله بن أبي هريرة التطيلي، ديوان الأعمى التطيلي ومجموعة من موشحاته، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩، مقدمة المحقق، ص١٥- ١٦).

(١) شجب: هم وحزن، المصدر السابق، ص١٥.

(٢) أسام: طلب المرعى، الأعمى التطيلي، ديوان الأعمى التطيلي، ص١٦.

(*) انظر: قصيدة الاعمى التطيلي كاملة في ملاحق هذه الدراسة، (٥: ١٩٨).

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٥٦.

(٤) ابن خفاجة، ديوانه، ص١١٤- ١١٥.

أما في رثاء المرأة، فنجد الشاعر ابن حمديس يرثي جارية له ماتت غريقة في مركب عطب به، في خروجه من الأندلس إلى إفريقية، فيقول(١):

أماتـك البحـر ذو التيـار مـن حسـد لمـا درى الـدر منـه حاسـدا ثغـرك

وقعت في الدمع إذ غرقت في لجج قـد كـاد يغمرنـي منـه الـذي غمـرك

أي الثلاثـة أبكـي فقـده بـدم عمـيم خلقـك أم معنـاك أم صـغرك

أما الغزل، فنجد الكثير من أشعار ابن قزمان التي يتغزل فيها بالمرأة؛ منها:

رمـت بعينهـا قلـب المحسـوس والنـاس رأوا بـاه أثـر مغـروس(٢)

كما نجد العديد من الأشعار التي قيلت في الغزل والتي ذكرها ابن قزمان وابن حمديس وابن خفاجة وغيرهم من الشعراء.

و بظهور القصائد في مدح النساء والتغزل بهن ورثائهن، فانه يدل على ما كان للمرأة المرابطية من سلطة واسعة في جميع جوانب الحياة الاجتماعية، سواء الأدبية، أو السياسية، أوالإدارية؛ فقد تمكنت المرأة المرابطية بفضل ذكائها، وثقافتها، وأدبها، وعلمها، من أن يكون لها دور كبير في الحياة الاجتماعية والأدبية.

الجهة الثانية: "أن المرأة في عصر المرابطين شاركت الرجل في إنتاج هذا التراث الأدبي مشاركة فعلية، وأسهمت في هذا الميدان بما أبدعته شعرا ونثرا"(٣).

فقد كانت المرأة المرابطية تشارك في المجالس الأدبية التي كانت مرآة تعكس ما وصلت إليه دولة المرابطين بشكل عام وما وصلت إليه المرأة المرابطية بشكل خاص، فقد أثبتت المرأة المرابطية وجودها من خلال هذه المجالس حيث لمعت أسماء بعض الشاعرات المرابطيات واشتهرن، كذلك نجد أنه كان للمرأة المرابطية مجالسها الأدبية والتي شارك فيها نخبة من شعراء العصر، وهذا ما نستشفه في البيان حينما ذكر ابن عذاري حواء بنت تاشفين بما نصه: "أمرت

---

(١) ابن حمديس عبدالجبار بن محمد بن حمديس، ديوان ابن حمديس، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص٢١٢- ٢١٣.

(٢) أبو بكر محمد بن عيسى بن عبدالملك ابن قزمان، ديوان ابن قزمان نصًّا ولغة وعروضًا، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٨٠م، ص٢٠٤.

(٣) فوزية العقيلي، الرؤية الذاتية في شعر المرأة الأندلسية، ص٦٣.

الحرة حواء اللمتونية بمراكش بمجلس الكتبة والشعراء كانت تحاضرهم فيه، وكانت ذات نباهة وخطر، فاجتمع يومًا في ذلك المجلس جماعة منهم ابن القصير وابن المرخي، وهذا لقب له لأنه كما يقال: كان له فتور على فصاحته، وحضر غيرهما فلما غص المجلس، أقبلت الحرة تريدهم وهم يتحادثون ويأخذون في الشعر، وكان ابن المرخي قد قال صدر بيت وهو: "أنا للبدر أخ"، ولم يجزه أحد منهم، إذ أقبلت الحرة فسلمت عليهم، وبادرها ابن المرخي وقال لها: "حياك الله يا قمري ويا زهري"، فقالت: "وصفتني والله بآفل وذابل"، ففرح بفطنتها فقالت له: "فيم كنتم؟" قال لها: "كنا قد قلنا صدر بيت، ولم يقدر أحد على عجزه"، فقالت: "أنشدنيه" فقال: "أنا للبدر أخ"، فقالت على البديهة: "على ذا سنخ"؟ فتعجب الحاضرون من براعتها"[1].

فقد كانت حواء ذات شأن سياسي وثقافي جعلها تحتل مكانة هامة في البلاط وفي مجالس الشعراء ورجال العلم والأدب؛ حيث كان مجلسها يغص بهم[2]، باعتبارها أديبة وشاعرة ماهرة ذات نباهة وبديهة كما نرى هنا.

أما فيما يخص أشعار المرأة المرابطية ، "فقد وصلت لنا في بعض الأحيان على هيئة بيت أو بيتين، وقد يكون ذلك بسبب أن صاحبة هذه الأبيات القليلة على ثقافة واسعة، وسرعة بديهة؛ ولذا استطاعت أن ترتجل على البديهة أبياتًا لموقف بعينه، ثم عندما لا يتكرر مثل هذا الموقف لا تعود بحاجة لقوله"[3]، ومن ذلك ما ذكر ابن القاضي عندما همت تميمة بنت يوسف بن تاشفين بمحاسبة كاتب لها[4]، قد أمرت بمحاسبته وبرزت لذلك، فلما نظرت إليه عرفت ما دهاه وفطنت لما عراه، فأومأت إليه وأنشدته:

هي الشمس مسكنها في السماء ... فعــز الفــؤاد عــزاء جمــيلاً
فلــن تســتطيع إليهــا الصــعود ... ولــن تســتطيع إليــك النــزولاً

(١) البيان المغرب، ج٤، ص٥٧.
(٢) المصدر السابق: ج٤، ٥٧.
(٣) فوزية العقيلي، الرؤية الذاتية في شعر المرأة الاندلسية، ص١٢٤.
(٤) جذوة الاقتباس، ج١، ص١٧٣- ١٧٤.

كذلك يذكر لنا المقري قصة أم الهناء مع والدها قائلاً: "لما ولي أبوها قضاء المرية دخل داره وعيناه تذرفان وجدًا لمفارقة وطنه، فأنشدته بارتجال مجموعة أبيات أردات منها التخفيف عنه"(١)، فكانت بنظمها للشعر تحاول أن تخفف آلام ولدها.

كما وصلت إلينا قصائد لبعضهن وإن لم تكن طويلة، ولكن وصفن بالشاعرات؛ كنزهون القليعي، وحمدة بنت زياد.

أما فيما يخص المحاور التي تناولتها الشاعرات في عصر المرابطين، فهي لم تخرج عن الأغراض المعروفة، ورغم قلة الشعر الذي وصلنا عن المرأة المرابطية؛ فإن موضوعات هذا الشعر تعكس مكانة أو شخصية المرأة المرابطية مدى مهارتها الادبية.

فقد تناولت المرأة المرابطية في شعرها الغزل، حيث كانت الأشعار التي وصلت لنا تعكس أنهن عبرن عن مشاعر الحب لديهن بشكل واضح (٢)، ومن ذلك أبيات نزهون القليعي حيث تقول:

لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد

أبصرت شمس الضحى في عاتقي قمر ورئم مجهلة في ساعدي أسد(٣)

كما أسهمت المرأة المرابطية في غرض الهجاء، فنجدها في أحيان هي من تبدأ بهجاء بعض الشعراء كما هجت نزهون القليعي الأعمى المخزومي(٤) في قصة يذكرها ابن الخطيب(٥) حيث قال: "إن أبا بكر بن سعيد استدعى لمجلسه المخزومي الأعمى المعروف بهجائه، فأرسل له أبياتًا يتلطف بها إليه ليأمن شر لسانه، وعندما زاره المخزومي وجلس واشتم روائح العطور والأزهار وسمع الألحان، قال:

---

(١) نفح الطيب، ج٤، ص٢٩٢.

(٢) سلمى الجيوسي، الحضارة الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٨م، ج٢، ص٩٩٥-٩٩٦.

(٣) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٢٩٨.

(٤) أبو بكر المخزومي الأعمى المدوري نسبة إلى بلدة المدور، تقع شمال شرقي قرطبة، كان أعمى، شديد الشر، معروفاً بالهجاء، مسلطاً على الأعراض، سريع الجواب، ذكي الذهن، فطناً للمعاريض، سابقاً في الهجاء، فإذا مدح ضعف شعره، كان حيًّا بعد سنة ٥٤٠هـ. (انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٤٢٤).

(٥) الإحاطة، ج١، ص٤٢٦.

دار السعيدي ذي أم دار رضوانِ ... ما تشتهي النفس فيها حاضر دانِ[1]

إلى أن قال:

هذا النعيم الذي كنا نحدثه ... ولا سبيل له إلا بآذان[2]

فقال أبو بكر: "وإلى الآن لا سبيل له إلا بآذان"، معرضًا بعمى الشاعر، فرد عليه المخزومي ردًّا وقحًا، وهو المعروف بقبح لسانه، مما جعل الوزير لا يحير جوابًا، بل قال: "أما أنا فلا أنطق بحرف"، فيرد المخزومي: "من صمت نجا"، ولكن يصادف أن تكون نزهون القليعي حاضرة في مجلس أبي بكر، ولم تصمت بل رأت في حدة المخزومي مع مضيفه ما شحذ لسانها، فردت عن الوزير بقولها ساخرة من الشاعر: "ونراك يا أستاذ قديم النغمة بند وغناء وطيب شراب، تتعجب مِن تأتِّيه وتشبهه بنعيم الجنة، وتقول: ما كان يلم إلا بالسماع، ولا يبلغ إليه إلا بالعيان، لكن من يجيء من حصن المدوَّر، وينشأ بين تيوس وبقر، من أين له معرفة بمجالس النعم؟!"، فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى، فقالت له: "دعه"، وعندما سأل عن اسمها، قالت: عجوز مقام أمك، مما دفع المخزومي إلى أن يسبها بأقبح الألفاظ، ولا يلبث عندما يقول له أبو بكر: "يا أستاذ هذه نزهون الشاعرة الأديبة" أن يرد: "سمعت بها لا أسمعها الله خيرًا" ثم شتمها أيضًا، واندفع يقول:

على وجه نزهون من الحسن مسحة ... وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا

قواصد نزهون تدارك غيرها ... ومن قصد البحر استقل السواقيا[3]

---

(١) المصدر السابق: ج١، ص٤٢٦.

(٢) المصدر السابق: ج١، ص٤٢٧.

(٣) المصدر السابق: ج١، ص٤٢٦.

فأجابته بقصيدة أولها:

قـــل للوضـــيع مقـــالا   يتلـى إلـى حـين يحشـر[(١)]

فقال لها المخزومي:

ألا قـــل لنزهونـــةٍ مالهـــا   تجـــر مـــن التيـــه أذيالهـــا
ولـــو أبصـــرت بشـــةً شـــمرت   كمـــا عـــودتنيَ ســـربالها[(٢)]

وعند ذاك حلف أبو بكر ألا يزيد أحدهما على الآخر في هجائه، واشترى عرض نزهون من المخزومي، وانفصل المخزومي بالعبد بعدما أصلح بينه وبين نزهون"[(٣)].

وما نستشفة من هذه القصة جرأة نزهون وتمكنها، حيث لم تجد غضاضه في منافسة المخزومي الذي يعد من أبرز الشعراء في عصر المرابطين .

كذلك يذكر المقري ما جرى بين نزهون وابن قزمان، وأنها قالت له، وكان يلبس غفارة صفراء: "أحسنت يا بقرة بني إسرائيل، إلا أنك لا تسر الناظرين"[(٤)]، فنجد هنا تحاول اثبات تفوقها بالشعر.

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد برعت نزهون في فن الموشحات الذي كان أزهى عصوره في أواخر القرن الخامس الهجري، وكان الشعراء يطرقونها، ويقبلون عليها خاصة في الأندلس[(٥)]،أما تعريف الموشحات فهي" نوع من الشعر ،استحدث المتأخرون بالأندلس سموه بالموشح، ينظمونه أسماطًا أسماطًا، وأغصانًا أغصانًا، يكثرون من أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتًا واحدًا، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغضان وأوزانها متتاليًا فيما بعد إلى آخر القطعة،

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٤٢٦.
(٢) المصدر السابق: ج١، ص٤٢٧.
(٣) المصدر السابق: ج١، ص٤٢٨.
(٤) نفح الطيب، ج٤، ص٢٩٧.
(٥) محمد زكريا عناني، الموشحات الأندلسية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٠م، ص٤١- ٤٢.

وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب، وينسبون فيها ويمدحون؛ كما يفعل في القصائد"[1].

أما الموشحة الوحيدة التي وصلت لنا لنزهون القليعي فهي قولها[2]:

بأبي من هد من جسمي القوى طرفه الأحور[3]

مر بي في ربرب[4] من سربه[5] يقطف الزهرا

وهو يتلو آية من حزبه يبتغي الأجرا

بعد ما ذكرني من حبه أية آخرى

"وجاءت موشحة نزهون القليعي في ستة عشر بيتًا موافقه في موضوعها، وصياغتها وأوزانها، لما هو مطلوب فنيًا في الموشحات، وكانت الشاعرة متمكنة من أسلوب الموشح"[6]، وما نستشفة من خلال هذه الموشحة هو بروز نزهون في فن الموشحات ،كذلك لا نستبعد بأن لها موشحات وقصائد لم تصل الينا.

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن المرأة المرابطية قد تبوأت مكانة مرموقة في ميدان الأدب والشعر، حيث كان لها حضورها الواضح في هذا الميدان، إلا أن المصادر الموجودة بين أيدينا لم يكن من بينها ديوان لإحدى الشاعرات ويبدو أن السبب في ذلك يعود لعدة عوامل؛ منها:

---

(١) فوزية العقيلي، الرؤية الذاتية في شعر المرأة الاندلسية،ص٣٣٩.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص ١١٦– ١١٧.

(٣) الأحور: الحور أن يشتد بياض العين وسوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها ويبيض ما حواليها، وقيل: الحور شدة سواد المقلة في شدة بياض الجسد، وقيل: إن الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر، وقيل للنساء: حور عين؛ لأنهن شبهن بالظباء. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٢١٩، مادة (ح ور).

(٤) الربرب: القطيع من بقر الوحش، وقيل: من الظباء. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٤٠٩، مادة (ر ب ب).

(٥) السرب: "القطيع من النساء، وقيل: القطيع من الظباء، ومن النساء على التشبيه بالظباء. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٤٦٢، مادة (س ر ب).

(٦) محمد زكريا عناني، الموشحات الأندلسية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٠م، ص١١٦– ١١٧.

١) مر عصر المرابطين بفترات حروب كثيرة، وخلال تلك الحروب والفتن تضيع معظم الكتب، وينسى الشعر اذا لم يكون قد كتب في ديوان، وبالتالي لا نستبعد ضياع الكثير من نتاج المرأة المرابطية في المجال الأدبي والثقافي.

٢) كما نجد الكثير من الأميرات اللاتي كن يذكرن على أنهن شاعرات لكن لم نقف لهن على قصائد ، ومن هؤلاء ورقاء بنت ينتان التي كانت أدبية شاعرة صالحة[١]، والحرة حواء بنت تاشفين التي كانت تمتعت بمكانة أدبية عالية بين نساء جيلها؛ فقد قال عنها ابن عذاري: "كانت الحرة حواء أديبة شاعرة جليلة ماهرة، وكانت ذات نباهة وخطر"[٢]، وغيرهن.

٣) نجد أن في معظم المصادر التاريخية أو كتب التراجم لم تهتم بالنساء بشكل عام، فعندما نتكلم عن المرأة المرابطية من ناحية الادب نجد لها بعض الابيات التي تكاد تكون معدودة ، مع اننا نجدها ما توصف بالشاعرة .

ومن خلال ما مر معنا من نماذج عن شاعرات شهيرات عاصرن الدولة المرابطية، نخرج بهذه الخلاصة:

١) تبين لنا أن المرأة المرابطية كان لها أثر واضح في الجانب الأدبي منه وتناولت موضوعات وأغراض عامة، كما كانت شاعرات البلاط المرابطي الشهيرات هن من بنات البلاط نفسه؛ لذلك عمت شهرتهنّ أرجاء الدولة المرابطية، ولكن ذلك لا يعني عدم ظهور شاعرات كثيرات وخصوصًا في الأندلس نتيجة استمرار دول ملوك الطوائف وإن كانوا يعيشون تحت كنف الدولة المرابطية وسطوتها الدينية والعسكرية، فحياة الأدب واللهو لم تزل في الأندلس بعد ظهور المرابطين وإن كانت فورتها وهيجانها قد خمد ولو إلى حين[٣].

٢) نجد أن المرأة قد بلغت مكانة جليلة مما دعا الكثيرين من الرجال العامة والخاصة لحضور حلقاتهن الأدبية، بل قد نجد أن المرأة المرابطية كانت تثيب على الشعر، فقد كانت الأميرة مريم بنت تفلويت تحفظ جملة وافرة من الشعر، وتثيب عليه[٤].

---

(١) المراكشي، الذيل والتكملة، ج٤، ص٤٩٣.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٥٦– ٥٧.

(٣) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق، الأردن، عمان، ١٩٩٧م، ص٦٢– ٦٣.

(٤) المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، ص٤٩٨.

٣) اتخذت بعض نساء المرابطين من يشاركهن في مجالسهن الأدبية ، ولم يكن ذلك مقتصرًا على الجواري، ولكن امتد إلى بعض الحرائر من النساء المرابطيات اللائي لم يجدن غضاضة في مجالسة الرجال ومساجلتهم ومنادمتهم[1]، وكلما كان النديم ظريفًا فكها سريع البديهة طلبت مجالسته وعلى ذلك كانت نزهون[2].

٤) نجد أن المرأة المرابطية عند تناولت الموضوعات الشعرية بشكل عام ، لكن للاسف لم نقع لها على قصائد غير الابيات المتفرقة ، كما لم يوجد ديوان شعري خاص بالمرأة المرابطية .

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٥٧.

(٢) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص١٢١.

الفصل الخامس
أثر المرأة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية

المبحث الأول: مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية.

المبحث الثاني: مشاركة المرأة في الحياة الاقتصادية.

-المبحث الأول: مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية.

لما كانت المرأة في أي مجتمع من المجتمعات هي المكملة للرجل بما تقدمه من محفزات ودعم بجميع الأشكال، كان لا بد أن يكون لها أثرها في هذا المجتمع تبعًا لقدراتها وطاقاتها، وهذا ما ينطبق على المرأة في عصر المرابطين؛ فلا يوجد ذكر للمرابطين إلا ويصاحبه ذكر لأثرهن في الحياة الاجتماعية وإن كان هذا الأثر يظهر في مشاركتها بمختلف نواحي الحياة الاجتماعية، وسوف نعالج هذا الموضوع من خلال المحاور التالية:

١) مكانة المرأة الاجتماعية عند السلاطين والحكام.

٢) جهودها في النشاط الاجتماعي والعمل الخيري.

٣) مشاركتها في الحياة العامة.

مكانة المرأة الاجتماعية عند السلاطين والأمراء:

إن إلقاء نظرة أولية على الحياة الاجتماعية لأمراء المرابطين ورجالات الدولة، ومن ثم معرفة فئات النساء حسب منابتهن الاجتماعية، وأثر هذه الفئات على المكانة الاجتماعية في البلاط المرابطي وعند سلاطين وأمراء المرابطين، يبين لنا ما كان للمرأة المرابطية من مكانة اجتماعية مرموقة وأهمية خاصة عند السلاطين وأمراء الدولة المرابطية، حتى إن هذه الظاهرة انتشرت بكثرة، كما مكنت الصفات التي اكتسبتها المرأة المرابطية من حنكة سياسية، ونباهة، وثقافة، من كسب حب السلاطين والأمراء لنسائهم من حرائر أو جوار، وأصبحت ظاهرة انتشرت في أوساط المغرب والأندلس، وقد قيدت لنا مصادر تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس نماذج كثيرة من هذا القبيل[١]، وجعلت الكثير من الشعراء ينظمون قصائد في مدح نساء البلاط لما يشغلنه من مكانة في البلاط المرابطي يمكنها أن تتسلل إلى كل شؤون البلاد.

(١) (انظر: ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة الأندلسي، ص١١٤- ١١٥، الأعمى التطيلي، ديوان الأعمى التطيلي، ص١٥- ١٦).

كل هذه الظروف مهدت الطريق لاحتضان المرأة وتأهيلها لتكون ذات مكانة اجتماعية هامة عند السلاطين والأمراء.

والحقيقة أن ما ترسخ لدى المرابطين من بعض العادات والأعراف- كما مر معنا سابقًا- جعل سلاطين المرابطين وكبار رجال الدولة يقدرون المرأة ، فنجد أن المرأة نالت كل احترام إلى درجة أن الكثير من قادتهم كانوا ينتسبون إلى أمهاتهم؛ كابن عائشة وابن فاطمة وغيرهم، ويفخرون بذلك(١)، فتبوأت المرأة المرابطية بذلك مكانة رفيعة عند زعماء المرابطين، ويذكر النويري عند وصفه لزينب زوجة يوسف بن تاشفين فيقول: "وتزوج زينب زوجة أبي بكر بن عمر، وكانت حظية عنده وأميرة عليه"(٢).

واكتسبت المرأة المرابطية مكانتها الاجتماعية عند السلاطين والأمراء من الدور السياسي الذي قامت به؛ إذ أظهرت معرفة ووعيًا بالحياة السياسية وفهمًا لرغبات علية القوم، وكيفية تفكيرها ومعرفة هواهم وميولهم الفكرية والنفسية وغيرها، مما سمح لها مستقبلاً بأداء أدوار خطيرة وهامة في تطور الدولة المرابطية ونجاحها- كما مر معنا في الفصل الثالث- من حيث المشاركة السياسية.

هذه الأهمية جعلت السلاطين والأمراء المرابطين يقدرون مكانة المرأة وما يمكن لها أن تؤديه من أدوار، فأحاطوا أنفسهم إما بالحرائر أو بالجواري من النساء، فكانت لها تلك المكانة المرأة وامتداد نفوذها في الحياة الاجتماعية؛ فالتقرب من النساء هو تقرب من رجال الدولة أنفسهم، وهذا يبين لنا مكانة المرأة لدى هؤلاء، _كما مر معنا سابقًا-.

---

(١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، ص١٤٦.

(٢) المصدر السابق: ج٢٢، ص٨٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٩٩.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٧٨- ٧٩.

كما حظيت المرأة المرابطية من قبل السلاطين والأمراء بإعطاء هامش كبير من الحرية لكثير من النساء الخاصة والعامة؛ للمشاركة في حياة البلاط السلطاني، سواء كن نساء حرائر أو جواري؛ ونتيجة لهذه الحرية وانتشار الجواري فقد شاعت أيضًا مظاهر المجون والغناء عند طبقة منهن وخاصة في إشبيلية[1]؛ إذ فتحت حياة الترف الباب واسعًا أمام النساء للدخول فيها؛ لكون النساء أهم عناصر هذه الحياة، والجواري منهن خصوصًا؛ بما يتصفن به من ثقافة وجمال وغيره، فكان من الطبيعي أن تأخذ تلك المكانة الاجتماعية في هذا البلاط وخصوصًا بعد أن تغلبت الحياة الأندلسية بمتعها ومسراتها على حياة المرابطين البسيطة تلك .

ويبدو أن أثر المرأة في المجتمع كان كبيرًا؛ وذلك بسبب حاجة البلاط المرابطي للعنصر النسائي، سواء من فئة الخاصة أو العامة، والدور الذي شغلته في البلاط بدءًا من أصغر شؤون القصر المرابطي، إلى أكبر شؤونه والنصح في تسيير أموره؛ كما مر معنا سابقًا.

كذلك تبين بعض المصادر أن الجواري كانت تمثل أهمية كبرى لدى فئة الخاصة ورجال الدولة[2]؛ فقد كان كل سلطان من سلاطين المرابطين يحاول أن يجعل من مملكته ملتقى للشعراء والأدباء، ونشطت بذلك تجارة الرقيق، واجتهد النخّاسون في تعليم الجواري الرّوميات وغيرهن الغناء، وضروبًا أخرى من الثقافة لترتفع أجورهنّ، وكثر الطلب على الجواري.

لذلك فقد وهبن من الصفات الخاصة ما أهلهن لدور أبرز في البلاط المرابطي وحياة المجتمع ولعل الثّقافة الكبيرة الّتي حظيت بها الجواري كان لها أبلغ الأثر في استقدامهنّ لتعليم أبناء الأمراء والسلاطين المرابطين؛ مما مكنهنّ أيضًا من فرص الحصول على مكانة كبيرة عند السلاطين والأمراء وأداء دور كبير في الحياة الاجتماعية؛ إما معلماتٍ لأبناء الأمراء أو زوجات أو أمهات لهم[3].

---

(١) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص٥١

(٢) (انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، ص١٤١. ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص٥١. السقطي، في آداب الحسبة، ص٤٩. ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٧٨- ٧٩. المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٢٩٣).

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص٤٩-٩٤.

ومما سبق يمكن لنا أن نلاحظ مكانة المرأة لدى أمراء الدولة ورجالها في عهد المرابطين؛ هذه المكانة التي أهلتها لأداء أدوار كبيرة في تاريخ هذه الدولة وإنجازاتها.

جهودها في النشاط الاجتماعي والعمل الخيري:

من خلال قراءتنا لتاريخ الفترة المرابطية نجد أن المرأة المرابطية لم تتوقف عن المشاركة في النشاطات الاجتماعية المختلفة، وأن الاعتراف بحقوقها وفق المبادئ التي قامت عليها الدولة المرابطية جعلها تتلمس وجودها وكيانها وأهميتها كامرأة من خلال نشاطها الاجتماعي وأعمالها الخيرية من صدقات ورعاية للأسر الفقيرة وغيرها من هذه الخدمات الاجتماعية[*]، وإن لم تأخذ شكلاً منظمًا وتجري نشاطاتها عبر عمل مؤسسي منظم وجمعيات أو منظمات خيرية كما بدا لنا من خلال اطلاعنا على كتب التاريخ لتلك الفترة إلا أن نشاطاتها كانت كما ظهر لنا عبر مبادرات فردية قامت بها نساء البلاط المرابطي.

ولا شك أن مشاركة المرأة في الأنشطة الاجتماعية دلل على كونها عنصرًا فاعلاً في المجتمع المرابطي، حيث إن دخول المرأة ميدان الحياة الاجتماعية عبر هذه النشاطات جاء تعبيرًا عن مستوى الوعي الذي اكتسبته من خلال التعليم من جهة والاحتكاك بنساء الأندلس ذوات الخبرة الاجتماعية الكبيرة المتشكلة منذ عصر الطوائف الأول.

وعندما نستقرئ كتب النوازل والأحكام والمصادر التاريخية وغيرها من الوثائق التي تناولت تاريخ المرابطين، فإننا نستشف أن مشاركة المرأة في العمل الخيري جاءت من عدة طرق وعبر عدد من الأعمال؛ ومنها:

أولا: الصدقات:

ففي مجال الرعاية الاجتماعية انتفع بها عامة الناس كثيرًا، من تقديم الصدقات والمساعدات للأسر الفقيرة وبناء المساجد، كما أن المرأة المرابطية لم تغفل عن مساعدة أقاربها ممن هم بحاجة لمد يد العون لهم، وذلك عن طريق إشراكهم في مالها والتصدق عليهم بجزء منه[1].

(*) انظر: رسالة ابن ابي الخصال الى احدى سيدات البيت اللمتوني في قضاء حوائج الناس، في ملاحق هذه الدراسة، (١: ١٩٢).

(١) فقد أشار ابن رشد إلى أن امرأة أعانت أحد أقربائها فأشركته في مالها وتصدقت عليه بشقص (الطائفة من الشيء =

كما أشارت كتب النوازل إلى معلومات قيمة عن الطبقة الخاصة، تفيد بأن الأميرات من أسرة بني تاشفين كن يتمتعن بثراء واسع، وكثرت صدقاتهن على الفقراء والمساكين واليتامى بالأندلس، ومن أمثلة ذلك: قيام الحرة حواء زوجة أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين بالتصدق بثلث مالها على المساكين في مدينة إشبيلية، كما أعتقت ما لديها من رقيق لوجه الله تعالى[1].

ونقرأ في كتاب الذيل والتكملة أيضًا أن مريم بنت إبراهيم بن تيفلويت[2] كانت من أهل الخير والدين والنوافل والتصاون والصدقات وأفعال المعروف تقوم على كثير من الخير وعنها يقول ابن خفاجة:

مشهورة في الفضل قدمًا والنهى والنبل شهرة غرة في أدهم[3]

وما نستشفه هنا هو أن المرأة المرابطية اتصفت بصفات كثيرة؛ منها: التصدق على الناس، وأعمال المعروف، وغيره مما دعا الشعراء إلى وصفهن بالنبل؛ تلك الصفة الرفيعة التي لا ينالها إلا مستحقوها من أهل الفضل والكرم.

كذلك نجدها ومن منطلق قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[4]؛ قد حرصت على أن تؤتي صدقاتها بالسر، فقد ذكر ابن الزيات أن امرأة قد دفعت لرجل وصاحبه دقيقًا لكي يحملانه إلى الفقيه مروان اللمتوني[5]، ففتشا الدقيق فإذا فيه دارهم، فقال الرجل لصاحبه: نأخذ من هذه الدراهم فننفقها، فأخذا منها، فلما دخلا على مروان قال لهما: إذا دفع إليكما شيء فلا تخونا[6].

والقطعة من الأرض، ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٤٨)، لها في مجشر. (انظر: المعيار المعرب، ج٩، ص١٦٦).

(١) ابن رشد الجد، الفتاوى، ج٢، ص١٠٧٧.

(٢) ابن عبدالملك المراكشي، السفر الثامن، ق٢، ص٤٩٨.

(٣) ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة الأندلسي، ص١١٤– ١١٥.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧١.

(٥) مروان بن عبدالملك اللمتوني، من أهل فاس، قدم إلى مراكش، وقد أشخص من مدينة فاس، فتاب إلى الله وأقام بمراكش إلى أن توفي بها. (انظر: ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج١، ص٣٣٤).

(٦) التشوف، ص٢٣٨.

ثانيا: الأحباس:

الحبس- لغة-: بالضم، من حبس حبسًا، فهو محبوس وحبيس، واحتبس فرسًا في سبيل الله؛ أي: أوقفه، جمعه: أحباس[١].

أما **اصطلاحًا**: فقد عرفه المالكية- أصحاب مذهب مالك- بأنه "مصدر إعطاء منفعة شيء مدة وجوده، لازمًا بقاؤه في ملك معطيه ولو تقديرًا، فتخرج عطية الذوات، والعارية، واسم ما أعطيت منفعة مدة وجوده لازمًا بقاؤه في ملك معطيه ولو تقديرًا"[٢].

وكان للسلاطين المرابطين اهتمام بالأحباس واحترموا القواعد الفقهية لها[٣]، ونجد أن هذا الاهتمام لم يقتصر على رجال دولة المرابطين، فنحن نجد أن نشاط المرأة المرابطية لم يقتصر على مساعدة الفقراء وتوزيع الصدقات، بل تعدى عملهن إلى المشاركة في الأحباس، فقد كان للأحباس دور هام في توفير الرعاية الاجتماعية للفقراء واليتامى والتخفيف من معاناتهم وكذلك في تيسير سبل العيش والحياة الكريمة لأفراد الأسرة[٤]، وتحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي الذي نادى به الإسلام باعتباره من الصدقات الجارية[٥].

وقد قامت المرأة المرابطية بهذا العمل الخيري عبر عدة وسائل؛ هي:

١) أحباس على أفراد الأسرة:

لم تغفل المرأة المرابطية وهي ممن اشتهرت بعلمها الشرعي أن الصدقة على الأقربين صدقة وصلة؛ ولهذا جاء جزء من إعطائها للأحباس في هذا الميدان، فقد أوقفت الأوقاف لأفراد أسرتها، بهدف تأمين حياة كريمة لهم، أو للحفاظ على بعض الممتلكات من محاولات الانتزاع،

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١، مادة (ح ب س)، ص٤٥.

(٢) الرصاع أبو عبدالله محمد الأنصاري، شرح حدود ابن عرفة الموسوم الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة، تحقيق محمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م، ص٥١٨.

(٣) المراكشي، المعجب، ص١٩١.

(٤) كمال السيد، جوانب من حياة المغرب، ص٢٧.

(٥) الخصاف أبو بكر أحمد بن عمر بن مهير الشيباني، أحكام الأوقاف، مطبعة ديوان عموم الأوقاف المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٦- ٨.

فقد أشار ابن رشد إلى قيام امرأة بحبس فندقين وحانوتين على أخيها[1].

لكن نجد في المقابل حرص بعض الأسر على حرمان عقب المرأة المرابطية من الأحباس الخاصة بأفراد أسرة المرأة وتوضيح ذلك، ففي أحباس حمود بن خلف بن أبي مسلم الصدفي[2] التي جاء في نصها: "ويعلمون أن هذه الأحباس المذكورة على يوسف وعقبه، ويعلمون أن ليس لبني البنات من عقب يوسف فيها حق ولا دعوى ولا حجة، ويعلمون أنه لم يبق من عقب يوسف بن حمود بن خلف المحبس، فاطمة بنت محمد بن يوسف بن حمود، ومريم ابنة عمها حمود بن يوسف ابن أبي مسلم، وأنهما آخر العقب من يوسف المذكور، وأنه متى حدث موت هاتين المرأتين المذكورتين فاطمة ومريم، فمرجع جميع الأحباس المذكورة المحدودة فوق هذا على بني أعمامهم من بني الفضل بن حمود بن خلف ابن أبي مسلم، وهم: أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الفضل بن حمود ابن أبي مسلم، وحسن وحسين ومحمد... فإذا انقرضوا فمرجع هذه الأحباس إلى بنيهم من بعدهم وبني بنيهم"[3]، فنجد في هذه الوصية حرص المحبس على عدم إدخال أبناء البنت في الحبس، وتوضيح ذلك بالألفاظ[4].

---

(١) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٦، ص١٦٩.

(٢) مؤسس إحدى البيوت المشهورة بالعلم في سبتة، وهو بيت ينتمي إلى عرب الصدف، وقد اشتهر من هذا البيت حمود بن خلف صاحب الأحباس المذكورة في هذا العقد، ويوسف بن حمود بن خلف الذي ولي قضاء سبتة نيفاً وعشرين سنة، ولد سنة ٣٥٧هـ وتوفي سنة ٤٢٨هـ، (انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج٢، ص٦٤٢).

(٣) القاضي عياض، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ص١٩٤- ١٩٥.

(٤) الحبس المعقب تفترق أحكامه باختلاف ألفاظه، وله خمسة ألفاظ: الولد، والعقب، والبنون، والذرية، والنسل؛ فإذا قال: "حبست على ولدي وولد ولدي" أو "على أولادي أو أولاد أولادي"، فذهب جماعة من الشيوخ الأندلسين- كابن سهل وابن زرب- إلى أن ولد بنات المحبس يدخلون فيها على مذهب مالك بظاهر الألفاظ؛ لأن لفظ الولد يعم الذكر والأنثى، وكان ابن زرب- (محمد بن يبقي بن زرب قاضي الجماعة بقرطبة، سمع عن قاسم بن أصبغ وغيره، كان فقيهاً نبيلاً جليلًا، له كتاب في الفقه الخصال، توفي أوائل الدولة العامرية، انظر: النباهي، المرقبة العليا، ص٧٧- ٧٩)- يفتي في قول المحبس: "على ولدي" بدخول ولد البنات؛ (انظر: ابن سهل، ديوان الأحكام، ص٤٥٠)، لكن في هذه الوصية نجد المحبس يحدد أسماء أبنائه وبناته (مريم وفاطمة) في الحبس، ويذكر أن عقب ابنتها لا يدخلون في الحبس بلفظ صريح. (انظر: القاضي عياض، مذاهب الحكام، ص١٩٧).

٢) أحباس الفقراء واليتامى والمساكين:

قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[(١)]، فقد حث الله تعالى في هذه الآية وغيرها من آيات القرآن على الصدقة، وخاصة الأحباس باعتبارها من الصدقات الجارية أو عمل خيري يعبر عنه كتضامن اجتماعي، وليس من الغريب أن نجد معلومات وإشارات ألحت إلى أحباس أوقفتها المرأة المرابطية على الفقراء والمساكين، فقد أشار الونشريسي إلى امرأة بقرطبة حبست نصف دار لها على الفقراء[(٢)].

٣) أحباس المساجد:

اعتنى سلاطين المرابطين بالمساجد عناية فائقة منذ اللحظات الأولى لقيام دولتهم، فأخذوا يشجعون على بناء المساجد، وأنفقوا أموالا طائلة في ترميمها، ولم تكن المرأة المرابطية أقل حماسًا من الرجال في تشجيع حركة بناء المساجد وترميمها، فقد ساعدت الحرة حواء في إصلاح مسجد بلنسية[(٣)].

٤) أحباس المواسم الدينية:

تأثرت دولة المرابطين بعادات المجتمعات المجاورة وأعرافها، كغيرها من الدول، فنحن نجد أن الاحتفال بالمولد النبوي وإن كان بدعة محدثة في الدين، إلا أننا نجد بعض أفراد المجتمع المرابطي وخاصة المرأة المرابطية أصبحوا يحتفلون به، ويعبرون عن فرحتهم بهذا الاحتفال بطرق مختلفة، كان من بينها وقف الأوقاف على هذه المواسم الدينية[(٤)]؛ فقد ذكر ابن رشد بأن امرأة من غرناطة قد تصدقت بموضع على ليلة المولد الشريف بحيث يزرع ذلك الموضع، ويؤخذ قمحة ويعمل به في تلك الليلة المذكورة فيجمع الفقراء عليه[(٥)].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٢.

(٢) المعيار المعرب، ج٧، ص١٣٠.

(٣) ابن رشد الجد، المسائل، ج١، ص١٢٢.

(٤) عبدالقادر ربوح، الأحباس ودورها في المجتمع الأندلسي مابين القرن الرابع والتاسع، رسالة مقدمة لنيل الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية، ٢٠٠٦م، ص١٥٠.

(٥) الفتاوى، ج٧، ص١١٤.

ثالثًا: الزكاة:

الزكاة هي أحد أركان الإسلام، وقد حدد الشرع مصارفها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١)، ولما كان المجتمع المرابطي مجتمعًا مسلمًا ومتمسكًا بأحكام الدين فإن الزكاة كانت تصرف على مستحقيها مهما كانت، حيث نجد أن المرأة المرابطية بما تمتعت به من وعي ديني أولاً، ومشاركة اجتماعية ثانيًا، قد حرصت على إخراج زكاة حليها، فقد ذكرت كتب النوازل عن بعض من النساء اللائي يسألن عن زكاة الحلي، فقد أشار ابن رشد إلى امرأة سألت عن الزكاة في أنواع الذهب وطريقة إخراج الزكاة منه(٢).

رابعًا: إعتاق الرقيق:

عرف عن دولة المرابطين كثرة الحروب في عصرهم وكانت بابًا من أبواب تدفق العبيد والجواري إلى الدولة، ولم يغفل المرابطون عن تشريع الإسلام الذي يحث على عتق العبيد وتحريرهم، واعدًا إياهم بالجزاء العظيم في الأخرى، ومن هنا عمل الكثير منهم على إعتاق الرقيق، طلبًا للأجر، وقد أسهمت المرأة المرابطية في إعتاق الرقيق خاصة العبيد الذين هم تحت تصرفها، فهذه حواء بنت تاشفين تعتق جميع رقيقها لوجه الله(٣)، كذلك أشار ابن رشد إلى سيدة عقدت لمملوكتها عتقًا وشرطت في العقد أنها إن أبقت لا عتق لها(٤).

خلاصة القول: نجد أن جهود المرأة المرابطية في العمل الخيري والنشاط الاجتماعي كانت وفيرة وكثيرة، وإن اقتصرت على مبادرات فردية، ولم نقرأ أو نسمع أخبارًا عن مؤسسات أو جمعيات خيرية كانت تنظم هذه الأعمال في تلك الفترة..

---

(١) سورة، التوبة، آية: ٦٠.

(٢) الفتاوى، ج١، ص٥٠٣- ٥٠٤.

(٣) ابن رشد الجد، المسائل، ج٢، ص١٠٧٧- ١٠٧٨.

(٤) الفتاوى، ج١، ص٣٥٢.

مشاركتها في الحياة العامة:

من خلال النظر إلى وضع المرأة المرابطية في مجتمعها يتأكد لنا أنها قامت بأدوار فعالة في مجتمعها، فقد كانت الزوجة والشريك في تكوين واستمرار الأسرة، والأم المربية للناشئة والمعلمة الأولى للأبناء، وهي الراعية لأبنائها التي ترعى شؤون الأسرة الاقتصادية والاحتياجات المنزلية، وهي منسقة العلاقات العامة للأسرة؛ هذه الأدوار كلها تمثل الإطار العام لمشاركة المرأة العامة في المجتمع أيًّا كان وضعها ومكانتها، وقد قامت بجميع هذه الأدوار من خلال ما تمليه عليها تعاليم الدين أو ما يفرضه عليها المجتمع، ومن هنا يتجلى دور المرأة المرابطية في التأثير الهام والفاعل في بيئتها الخاصة والعامة.

ويمكننا الوقوف إذن على مشاركة المرأة المرابطية في الحياة العامة من خلال عدة محاور؛ منها:

- مشاركة المرأة الأم.
- مشاركة المرأة في النظام الأسري والحياة العائلية.
- مشاركة المرأة في مظاهر الزواج.
- مشاركة المرأة في الأعياد والجنائز.
- مشاركتها في الأزمات.

١) مشاركة المرأة الأم:

الأم لها دور كبير في تربية الأبناء؛ حيث يقع على عاتقها الجزء الأكبر من التربية، بحكم طبيعتها التي تتميز بها من عطف وحنان.

ولأهمية دور الأم في تربية الأبناء قدمت الشريعة الإسلامية النساء على الرجال في الرعاية، وذلك بسبب قدرة الأم على تربيتهم؛ وهذا ما أكده قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (**المرأة أحق بولدها ما لم تزوج**)[1].

كما تنفرد الأم بمرحلة لا يشاركها فيها أحد؛ وهي مرحلة الحمل؛ قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل، المسند، (٢٠٤/٢)، ص٥٣٣.

الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾[1].

ولا يخفى علينا كم هي مهمه فترة الحمل حيث يتكون الجنين في بطن أمه، وتأثر بمؤثرات كثيرة منها التغذية[2]، فكانت المرأة المرابطية تهتم بصحتها وقت الحمل، وكان الزوج كذلك يبذل قصارى جهده لتلبية رغبات زوجته[3]، خاصة في إحضار أنواع الطعام التي تشتهيها الزوجة وقت الحمل، فقد حرص أبو عبدالله الدقاق[4] على إحضار اللحم المطبوخ والثريد والجبنة عندما اشتهت ذلك زوجته وقت حملها[5].

وعندما تحين فترة الولادة كانت بعض النساء تعاني عسر الولادة؛ مما يدفع بعضهن إلى اللجوء إلى الخرافات لتخفيف آلامهن، ومن ذلك ما ذكره ابن الأحمر عندما تحدث عن يوسف بن تاشفين: "وكانت الحوامل بمراكش إذا عسرت عليهن الولادة يأخذن سراويله ويجعلنها في أرجلهن فيلدن من حينه"[6].

وبعد مرحلة الولادة والآلام التي تمر بها الأم تبدأ بالاهتمام بطفلها منذ اللحظة ، فتكون أمه مرضعة، ومربية، وحاضنة له، أو قد تستأجر الأسرة مرضعة وحاضنة لابنها في حال تعذر على الأم الاهتمام بهذا الطفل بسبب مرضها أو وفاتها[7].

وبعدما يكبر الطفل يقع على عاتق الأم المرابطية تربيته تربية صالحة وتنشئته تنشئة

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١٥.

(٢) ابن رشد الحفيد أبو الوليد محمد بن أبي القاسم أحمد القرطبي، الكليات في الطب مع معجم بالمصطلحات الطبية والعربية، تحقيق محمد عابد الجابري، مركز الدراسات العربية، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٤٦٥.

(٣) بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص٣٣.

(٤) أبو عبدالله محمد الدقاق، من أهل سجلماسة، وكان من كبار الصوفية، كان من أهل الورع والتواضع، له طريقة يختص بها في التصوف، من أصحاب أبي عبدالله الأصم، توفي ٥٤٢هـ. (انظر: ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج١، ص٢٥٩).

(٥) ابن الشراط أبو عبدالله محمد بن عيشون الشراط، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق زهراء النظام، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ص٢٧٠.

(٦) إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٩م، ص٣٠.

(٧) ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد، المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من أحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م، ج١، ص٤٨٩.

صحيحة، فنحن عندما نقرأ في تاريخ الدولة المرابطية نجدها تزخر بالكثير من الرجال الذين كان لهم دور كبير فيما وصلت له الدولة من تقدم وعظمة[1]، وكان للمرأة الأم دور كبير في تربيتهم.

كذلك كان يقع على عاتق الأم المرابطية توفير متطلبات ابنائها خاصة اذا كان زوجها غائب او متوفى، فهذا أبو العباس السبتي[2] نشأ يتيم الأب وأرادت أمه أن تعلمه صنعة يستعين بها على صعوبات الحياة، فحملته إلى أحد القزازين ليتعلم منه، لكنه هرب عنه والتحق بأبي عبدالله الفخار، فمنعته من ذلك، ولم يتمكن من تحقيق مبتغاه إلا بعد أن وعدها أبو عبدالله بتسديد ما كان يحصل عليه الابن من حرفته[3]، فنجد الأم هنا قد تتخلى عن تعليم أبنائها بسبب الحاجة إلى المال.

٢) مشاركة المرأة في النظام الأسري والحياة العائلية:

لقد حظيت النساء في العصر المرابطي بمكانة كبيرة- كما مر معنا في فصول سابقة- فالأسس المتينة التي وضعها الإسلام لتكوين أسرة مثالية وقوية كانت تأكيدًا على العلاقات الاجتماعية العامة التي انتشرت في المجتمع المرابطي؛ ومن هنا جاءت الخطوات الأولى لمشاركة المرأة المرابطية في الحياة العامة وانطلاقًا من أسرتها، فالأسس السليمة للزواج والضمانات التي شرعها الإسلام كانت اللبنة الأولى لانطلاق المرأة المرابطية في الحياة العامة عارفة حقوقها وواجباتها الزوجية والأسرية، وكما رأينا أن نظرة المجتمع للمرأة من حيث نباهتها وذكائها أو من حيث مصاهرة البيوتات الطيبة المنبت، كان لها دور كبير في مشاركة المرأة في الحياة العامة، ومن حيث اهتمامها وحرصها على الظهور بمظهر الزوجة الفاضلة، الذي شكل قاعدة لموقف الشرائح الاجتماعية تجاه المرأة لاختيارها زوجةً أو لا.

---

(١) سعدون عباس، دولة المرابطين، ص٣٨- ٣٩.

(٢) أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي، ولد بسبتة سنة ٥٢٤هـ، شيخه أبو عبدالله الفخار صاحب الشيخ الفقيه أبي الفضل عياض اليحصبي، كان جميل الصورة أبيض اللون، حسن الثياب، فصيح اللسان مفوهًا، حليمًا، صبورًا، نزل مراكش، واختلف فيه أهلها فمنهم من يراه وليًا، ومنهم من يكفره، ومنهم من يبدعه، كان يجلس في أمكنة الجلوس من الأسواق والطرق فيحض الناس على الصدقات، فتنهال عليه الصدقات فيفرقها على المساكين وينصرف، توفي بمراكش سنة ٦٠١هـ. (انظر: ابن الزيات، التشوف، ص ٤٥٢).

(٣) المصدر السابق: ص٤٥٩.

وقد كان للمرأة مشاركات في أسرتها، حيث كانت تقوم المرأة المرابطية بأشغال متعددة، وغالبًا ما اقترن ذكرها بالرجل، فمثلما كانت للرجل مهام خارج الأسرة فالمرأة المرابطية لها من المهام ما تقابل مهام الرجل، حيث تقوم بأشغال البيت، وتدبير شؤون الأولاد والتنظيف[1]، أو حتى مساعدة زوجها في توفير مصدر عيش للأبناء[2]، حيث يذكر ابن الزيات إلى أن المرأة كانت تقوم بعمل الغزل من أجل مساعدة زوجها[3].

وتشير أيضًا إحدى نوازل ابن رشد إلى وجود الحاضنة أو المربية التي كانت تحصل على أجرة معينة يتفق عليها نظير قيامها بهذا العمل[4]، فنساء هذه الطبقة كانت تشارك الرجل في العمل وتساعد في تأمين رزق العائلة وكثيرًا ما عاشت ظروفًا صعبة كما نستشفه من الحديث عن أبناء هذه الطبقة في كتب النوازل.

أما المرأة المرابطية التي كان لديها ثروة فقد كانت تتصرف فيها حيث شاءت، فقد تدفع مالها إلى زوجها ليتصرف به، أو تتصدق بجزء منه على أحد أقربائها[5]، وبهذا فقد شاركت زوجها وعائلتها بمالها.

٣) مشاركة المرأة في مظاهر الزواج:

ومن خلال الزواج ظهرت بعض النساء اللواتي كان لهن دور الخاطبات تعبيرًا عن المشاركة في الزواج، فكتب النوازل تمدنا بمعلومات كثيرة عن دور الخاطبات التي تكون صلة الوصل بين الرجل والمرأة حتى عقد النكاح، ويكون ولي الأمر هو المسؤول عن ذلك إلا إذا لم يكن للبنت ولي أمر، فتتوجه الخاطبة بسؤالها وتعرض عليها أمر الخطبة والمهر[6].

---

(١) دندش، الأندلس في نهاية عصر المرابطين، ص٣١٧.
(٢) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص٤٠٩.
(٣) التشوف، ص١٢٩.
(٤) الفتاوى، ج١، ص ٥٦٠.
(٥) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٩، ص١٦٦.
(٦) ابن سهل، ديوان الأحكام، ص ١٧٥– ٢٢٦.

كذلك كان يتخلل شروط زواج الرجل بالمرأة أن تقوم امرأتان وتدعيان القابلتين باختبار أحوال الفتاة كأحد شروط الزواج[1].

وإضافة إلى مشاركة المرأة المرابطية في مظاهر الزواج كخاطبة أو قابلة، فقد شاركته كراقصة إما تعبيرًا عن الفرح بالرقص أو تكسبًا للعيش وامتهانًا للحرفة[2].

إلا أن المرأة كانت تلاقي منعًا من الفقهاء والعلماء؛ إذ لم يسمح الفقهاء لهن باختلاطهن مع الرجال، وحاول البعض منعهن من المشاركة في الأفراح وذلك من اجل حمايتها[3].

كما يظهر لنا أيضًا في كثير من كتب النوازل في عصر المرابطين أن دور المرأة المرابطية؛ كأم كان هامًّا ومؤثرًا في إتمام مراسم الزواج، فكانت الأم تقوم بتجهيز ابنتها، وكثير من الأمهات اضطررن إلى بيع ما يملكن لتجهيز بناتهن[4]، كذلك ترد في نوازل ابن رشد أيضًا نازلة نحلت أم ابنتها بمال عند عقد نكاحها، والرواية تقول: إن امرأة نحلت ابنتها مالاً عند زواجها، وبعدها طالبها الزوج بميراث الابنة من أبيها، فقالت الأم له: هو ما نحلتك به[5]، ومن هنا نقرأ إشارة لمشاركة الأم ابنتها أثناء الزواج ولتوطيد علاقة طيبة مع الزوج.

٤) مشاركة المرأة في الأعياد والجنائز:

كان الناس في عصر المرابطين يخرجون في الأعياد رجالاً ونساءً وأطفالاً إلى المساجد للصلاة[6]، ولم يمنع الفقهاء المرأة من الخروج يوم العيد للمصلى حيث إن هذا الأمر قد حث الشرع عليه.

كما كانت النساء تخرجن إلى المتنزهات أوقات الأعياد، وقد يؤدي ذلك إلى تعرضهن للمضايقة والاعتداء عليهن من قبل بعض الرجال، فأحداث قرطبة سنة ٥١٤هـ[7] بدأت

---

(١) بوتشيش، المغرب والأندلس، ص ٢٥.

(٢) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٣، ص٥٠٢.

(٣) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ٢٧.

(٤) ابن سهل، ديوان الأحكام، ص٢٠٦.

(٥) الفتاوى، ج٣، ص ١٠٥٣.

(٦) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص٥٠٢.

(٧) النويري، نهاية الأرب، ج٢٤، ص١٥١.

بسبب اعتداء عبد من عبيد المرابطين على امرأة خرجت للتنزه في عيد الأضحى، فمد يده إليها، فتطور الأمر إلى أحداث خطيرة[١]؛ لذلك نجد حرص الفقهاء على نهي الشباب عن الجلوس في الطرقات؛ لأن في ذلك اعتراضًا لهن[٢]، كذلك عندما منع ابن عبدون من اختلاط الرجال بالنساء في العيد[٣] ما هو إلا دليل على أن المرأة المرابطية كانت عنصراً فعالاً في كثير من مناحي الحياة العامة؛ فمناسبات الأعياد لم تكن تخلو من النساء.

ولا يخفى علينا أيضاً مشاركة المرأة المسلمة نساء النصارى في بعض من مظاهر احتفالاتهن الدينية، وهذه المشاركة جاءت تعبيراً ونتيجة للاختلاط الذي كان له دور كبير في تشكيل عادات جديدة للمرابطين القادمين من الصحراء وتغيير في بعض العادات الاجتماعية والتي تعد المرأة جزءاً هامًّا فيها، مما جعل الكثير من النساء المسلمات يرتدن الكنائس بصحبة صديقاتهن النصرانيات[٤]، ربما للتفرج على الاحتفالات الدينية والمواكب التي تجري فيها بمناسبة الأعياد أو مرافقة صديقاتهن النصرانيات؛ لذلك نرى ابن عبدون يشدد في منع النساء المسلمات من دخول الكنائس المشنوعة حفاظًا على أعراضهن؛ فإن القسيسين فسقة زناة؛ كما يرى[٥].

وكذلك كانت المرأة المرابطية تحرص على الاستعداد لآخرتها ، فقد كانت بعض النساء تجهز أكفانها قبل وفاتها؛ ومن ذلك خبر امرأة هيأت كفنها قبل وفاتها[٦]،كما حرصت أيضاً في الوصايا على إنفاق جزء من أموالها للمساكين والفقراء[٧].

أما في حال وفاة أحد أقارب المرأة المرابطية كانت بعضهن تذهب لتشيع جنازته، فتذكر إحدى النوازل أن الحرة حواء خرجت تتبع نعش زوجها[٨]، وتضيف نازلة أخرى أن المرأة كانت

---

(١) المصدر السابق: ج٢٤، ص١٥١.

(٢) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص٤٥.

(٣) المصدر السابق: ص٤٧.

(٤) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص ١٤٨.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٨.

(٦) ابن الزيات، التشوف، ص٧٢.

(٧) ابن رشد الجد، الفتاوى، ج٤، ص٦٧٨.

(٨) ابن رشد الجد، المسائل، ج٢، ص١٨٩.

أحياناً تقف على شفا قبر زوجها عند دفنه(1)، وقد أنكر عليها العلماء ذلك(2)؛ لأن الإسلام منع زيارة القبور للنساء واتباع الجنائز.

٥) مشاركتها في الأزمات:

إلى جانب إسهامات المرأة في تأسيس دولة المرابطين نجد أنها تقف وقفة مشرفة في خضم الأزمات التي تعرضت لها الدولة، فنجدها أثناء الحروب تحمل السلاح وتخوض ميدان المعارك من أجل الدفاع عن الدولة؛ مثل فانو بنت عمر التي قاتلت جيوش الموحدين(3).

وفي حال تعرض الدولة للهزيمة نجدها تحاول جاهدة أن تنقذ أسرتها وأفراد عائلتها من الأسر، كما قامت بذلك ابنة الوزير ينتان(4).

والحقيقة أن هذا النشاط داخل مجتمعها ما هو إلا مشاركة حقيقية للمرأة المرابطية في مختلف مناحي الحياة، ولم تمنعها أي اعتبارات إلا اعتبارات الأخلاق والسمعة الحسنة والأصل النبيل التي تمتعت به وحافظت عليه.

---

(١) المصدر السابق، ج٣، ص٤٥٩.

(٢) الطرطوشي، الحوادث والبدع، ص٣٣٦.

(٣) مجهول، الحلل الموشية، ص١٠٢.

(٤) البيذق، أخبار المهدي، ص٩٢.

-المبحث الثاني: مشاركة المرأة في الحياة الاقتصادية.

بعد قيام دولة المرابطين شهد المغرب الأقصى فترة من الازدهار الاقتصادي، حيث حرص سلاطين المرابطين على النهوض بالدولة في مختلف المجالات: زراعية كانت أو صناعية أو تجارية، وعم الرخاء نتيجة لذلك، وقد عبر ابن أبي زرع عن الرخاء الذي كانت تتمتع به البلاد في عصر المرابطين بقوله: "كانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن... وكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد"[1].

وكان لهذا الازدهار أثره على المرأة في عصر المرابطين، سواء من حيث مشاركتها في تنمية الحياة الاقتصادية؛ أو من حيث مشاركتها في الزراعة والتجارة والصناعة، أو من حيث اعتبارها فردًا من أفراد المجتمع المرابطي الذين استفادوا من هذا التطور الاقتصادي، ويمكن لنا أن نتتبع مشاركة المرأة في الحياة الاقتصادية؛ من خلال ما يلي:

١) مشاركتها في التجارة.

٢) مشاركتها في الزراعة.

٣) مشاركتها في الحرف والصناعات.

مشاركتها في التجارة:

مشاركتها في التجارة:

شهدت دولة المرابطين تطورًا جديدًا في الجوانب الاقتصادية عامة والتجارية خاصة، فقد نشطت التجارة الداخلية والخارجية بعد أن تمكن المرابطون من توحيد المغرب الأقصى ونشر الأمن والاستقرار في ربوعه، وحماية الطرق وتأمين المسالك، حيث أمن التجار على أنفسهم وبضاعتهم، فأقبلوا على أسواق البلاد في ثقة، فكثرت الخيرات في بلدهم وعمرت البلاد[2]، وقد كان قرار المرابطين في إلغاء المكوس[3] في المغرب والأندلس على السواء، من ضمن العوامل

(١) الأنيس المطرب، ص٩٤.

(٢) حسن علي، الحضارة الإسلامية، ص٢٦٦.

(٣) المكوس: جمع مكس، وأصل المكس في اللغة: النقص والظلم، وهي دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الجاهلية، أو دراهم كان يأخذها المصدق بعد فراغه من صداقه. (انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (م ك س)، ج٦، ص٤٢٤٨).

المشجعة التي أدت إلى زيادة الإنتاج في جوانب الميادين الاقتصادية، مما أدى إلى كثرة الإقبال على الشراء(١).

كذلك ازدهرت التجارة وتطورت في عصر المرابطين بعد ضم الأندلس؛ إذ فتحت أسواق الأندلس لمنتجات المغرب وبلدان شمال إفريقيا والعكس بالنسبة للأندلس، وظهرت أسواق ذات شهرة عالية في الأندلس قصدها تجار العالم من كل صوب(٢).

وما يهمنا هنا هو دور المرأة المرابطية ومشاركتها في دفع عجلة الاقتصاد من خلال مشاركتها بالتجارة.

وكما رأينا في الفصول السابقة كان للمرأة المرابطية دور فعال في مجتمعها، فبالإضافة إلى دورها الفعال في أسرتها، من حيث قيامها بأشغال البيت، فقد تعدت ذلك إلى أن كانت ذات دور في اقتصاد الأسرة أو المجتمع، فكانت تشتغل بالتجارة من أجل سد حاجة الأسرة في كثير من الأحيان، فنجدها لأجل أسرتها وعيش أبنائها تشارك زوجها ببعض الأعمال الاقتصادية، حيث كانت تقوم بعملية غزل الصوف وبيعه في الأسواق(٣)، وكما يذكر ابن اللبانة فيما ينقله عنه ابن سعيد أن أمه كانت تبيع اللبن لأجل حياة أبنائها(٤)، كما يذكر البيذق أنه عندما دخل المهدي مدينة صاء(٥) وجد "فلما دخل صاء نظر النساء مزينات محليات يبعن اللبن،

---

(١) اتبع المرابطون نظاماً ماليًّا يعتمد على القواعد الإسلامية من إلغاء الضرائب غير المشروعة التي فرضها السابقون بالمغرب، ومنها إلغاء المكوس، فيذكر ابن الأثير أن يحيى بن عمر قام بإجراءات اقتصادية في سجلماسة ومنها إلغاء المكوس (انظر: الكامل في التاريخ، ج٨، ص٣٣٧)، أما في عهد يوسف بن تاشفين فيذكر ابن أبي زرع الأوضاع الاقتصادية في زمنه بقوله: "ولم يوجد في بلد من بلاده ولا في عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا معونة"، (انظر: الأنيس المطرب، ص٢٧٨)، ولا شك أن لهذه السياسة أثرها على سائر الرعية من التخفيف عن كاهلهم ومضاعفة الإنتاج.

(٢) حمدي عبدالمنعم، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس، ص٣٤٩- ٣٥٠.

(٣) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص٢٤٧.

(٤) ابن اللبانة: هو أبو بكر محمد بن عيسى المشهور بابن اللبانة؛ وسمي بذلك لأن أمه كانت تبيع اللبن، كان شاعرًا، منمق الألفاظ والمعاني، كان وفيًّا للمعتمد بن عباد، وتفجع لدولته حين خلع عن ملكه، حيث قال جملة من القصائد، توفي في ميورقة، سنة ٥٠٧هـ. (انظر: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص٤٠٩- ٤١٠).

(٥) صاء أو وادي صاع: هي قرية ذات نهر وثمار ومزراع، تقع على نهر زاع، وهي مدينة تاوزيرت حاليًّا. (انظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج١، ص١٦١).

فغطى المعصوم وجهه حتى جازهن، وكان الفقيه يحيى حاضراً فقال له الإمام: كيف تترك النساء محليات مزينات كأنهن قد زففن لبعولتهن؟! أما تتقون الله في تغيير المنكر؟! لا سبيل لهم لما يصنعون، فإنما يصنعون أفعال الجاهلية الأولى، وإنما يخالفون الله في أفعالهم، هلا اعتبروا قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[١]، فغير المنكر وأمر بالمعروف وسار"[٢].

فهذا النص يعكس صورة الأسواق في عصر المرابطين واكتظاظ النساء المرابطيات فيها من أجل بيع ما ينتج كاللبن، ويبدو لي أن في هذا النص شيئًا من المبالغة، فكيف تخرج من بيتها من أجل كسب رزقها وتوفير مصدر العيش لأبنائها وهو هدفها الأساسي وسبب خروجها من بيتها، وتكون مع ذلك محلاة مزينة كالعروس المزفوفة لزوجها!

كما كانت المرأة أيضاً تبيع ما تنتجه أرضها من محصولات زراعية، وهذا ما نستشفه من إحدى نوازل ابن الحاج في رجل سلم لامرأة ذهباً في قمح[٣].

وبالإضافة إلى عمل المرأة المرابطية ببيع بعض ما تنتجه هي أو ما تخرجه أرضها من ثمار في الأسواق من أجل أسرتها، كانت أيضاً صاحبة أموال؛ لذلك فقد أوردت كتب الفتاوى نصوصاً في غاية الأهمية، أشارت إلى أن المرأة المرابطية كانت صاحبة أموال كثيرة تتصرف فيها كيف شاءت[٤]، فكانت مالكة لعقارات وأراض[٥]، وكان لها النصيب في ملكية المعادن[٦]، ولم

شاءت[٤]، فكانت مالكة لعقارات وأراض[٥]، وكان لها النصيب في ملكية المعادن[٦]، ولم

تتوقف عند هذا الحد، وإنما كانت تعقد البيوع كما في نازلة خوطب بها ابن رشد الجد في مدينة بلنسية تضمن عقد مبايعة بين امرأتين في ملك وجاء فيها: "اشترت إدلال أم فلان من عائشة بنت فلان جميع الدار التي بحاضرة بلنسية وداخل سورها المحدث وبحومة كذا، ومنتهى حدها كذا، وجميع الجنة التي بخارج مدينة بلنسية بموقع كذا، ومنتهى حدها كذا، بعامة جميع حقوق

---

(١) سورة النور، آية رقم، ٣١.

(٢) أخبار المهدي، ص٢١.

(٣) البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، ج٣، ص٥٧.

(٤) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٩، ص١٦٦.

(٥) المصدر السابق: ج٩، ص١٦٩.

(٦) ابن رشد الجد، الفتاوى، ج٢، ص١٠٦٠

الدار والجنة المبيعتين المحدودتين، وبقاعة ذلك كله وبنيانه وأنقاضه، علو ذلك كله وسفله، وبما في الجنة من ضروب الشجيرات وأنواع المغروسات المثمرة وغير المثمرة..."(١)، ويوضح لنا هذا العقد تصرف المرأة المرابطية بحرية في شؤونها المالية.

وكانت أيضاً تشارك الرجال في التجارة، فقد سئل ابن الحاج في امرأة لها بقرة غابت عن عينها سنة فأشركت رجلاً فيها، وذكرت أنه حقرها في عينها، وبعد مضي شهر جاء بها ومعها عجل، فأجاب ابن الحاج بأن البيع جائز إلا أن تثبت المرأة ما ادعت فيفسد البيع(٢)، كذلك سئل ابن رشد عن رحى بين امرأة ورجل، غابت عنها أعوامًا، فكان الرجل يكريها ويستغلها تلك الأعوام(٣)، وتسلط هذه الفتاوى الضوء على قضية الغش التجاري التي قد تتعرض لها المرأة ولجوء المرأة المرابطية للقضاء من أجل استعادة حقوقها.

كذلك قد تشارك بعض النساء زوجها في الظلم التجاري، وتعمل على مساعدته وتسهيل الأمر عليه، وهذا ما أشار إليه السقطي بقوله: "وأما الجلاسون في الدكاكين للتجارة فقد شاهدت من تحيلهم مراراً بالأسواق؛ وذلك أن الواحد منهم يكتري حانوتاً ويفرشها بالحصور ويقعد عليها فيه، ويشتري السلع التي تباع بالتقاضي وبالتأخير إلى أجل، ويستكثر حتى يملأ حانوته من السلع ويبيع منها ما سهل عليه بيعه، ويعامل ولو بأقل ثمنها حتى تنقلب أعيانًا... ثم يغيب ويوجه إلى أمين السوق من يذكر له أمره ويقول له: "إن الرجل كان جهولاً بالأمور وبرح عليه الدلالون ولم يعرف أسوم السلع... ويرضى التجار بقسمه السلع بأثمانها المسماة، ويبرأ الرجل من الديون وتهون زوجته ذلك على التجار بأن تلزم كراء الحانوت لباقي مدة زواجها، ويخرج الزوج من مغيبه، وقد حصل من أموال الناس على رأس مال عنده؛ فبهذه الحيلة يتجر بها في الحانوت بعد أن يشهر على نفسه بعقد أنه بيده لزوجته المذكورة على وجه السلف من ثياب وأثاث باعتها أو غير ذلك من الوجوه الشرعية"(٤).

(١) الفتاوى، ج٢، ص١٠٧١.
(٢) البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، ج٣، ص١٩٢.
(٣) الفتاوى، ج٣، ص٤٢٩.
(٤) رسالة في آداب الحسبة، ص٥٩- ٦٠.

خلاصة القول: نجد أن المرأة المرابطية أسهمت في دفع عجلة التجارة؛ وذلك من خلال مشاركتها في أمور التجارة البسيطة كبيع ما تنتجه من سلع وبيعها في الأسواق من أجل تغطية احتياج أسرتها؛ فهي بذلك تساعد زوجها في توفير لقمة العيش من جهة وتغطية احتياج الأسواق من جهة أخرى.

مشاركتها في الزراعة:

اهتم المرابطون بالزراعة في عصرهم اهتماماً كبيراً وساعد على ذلك مهارة أهل الأندلس في الفلاحة؛ حيث اشتهرت الأندلس بخصب تربتها وكثرة أنهارها وتنوع تضاريسها ونشاط أهلها[١]، وكان لضم الأندلس إلى المغرب أثره الكبير في استقرار الحالة الأمنية التي تساعد على الإنتاج[٢]، وقد أقبل الناس على شراء الأراضي واستثمارها، كما انتشرت أراضي الأحباس في أرجاء المغرب كله، متخللة الملكيات الزراعية الخاصة[٣]، حتى إن بعض الأسر الأندلسية عملت على شراء الأراضي في المغرب واستثمارها في الزراعة لخبرتهم الطويلة وشجعهم بالطبع على ذلك استقرار الأمن واستتباب حكم الدولة المرابطية[٤].

وكانت الظاهرة السائدة في المغرب خلال عهد المرابطين، أن أصحاب الملكيات الخاصة الصغيرة يقومون بفلاحة أراضيهم ويشاركهم في العمل نساؤهم وأفراد أسرهم[٥]، أما كبار الملاك فكانوا يسكنون المدن، ويتخذون وكلاء للإشراف على أراضيهم.

وكباقي المجتمعات القروية والفلاحية فإن المرأة في عصر المرابطين تبقى جزءاً لا يتجزأ من الأسرة التي تعمل في البيت والأرض، فعندما كان أصحاب الجنان يجتهدون في الزراعة كانت المرأة أيضاً تساعد زوجها في العمل في جنته، فقد ذكر الشعبي أن امرأة من المغرب تدعى فاطمة كانت تخرج مع زوجها وقت العصر لتساعده في قطف التين والعنب[٦].

(١) الحميري، صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، ص١– ٢

(٢) المقري، نفح الطيب، ج١ ص ١٤٧– ١٤٨.

(٣) حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص٤٠٥– ٤٠٦.

(٤) ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، سفر ١، ص ٩٠.

(٥) يحيى أبو المعاطي محمد عباسي، الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس (٢٣٨– ٤٨٨هـ) دراسة تاريخية مقارنة، رسالة مقدمة لنيل الدكتوراه، قسم التاريخ الإسلامي، جامعة القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٣٧٨.

(٦) الشعبي أبو المطرف عبدالرحمن بن قاسم الشعبي المالقي، الأحكام، تحقيق الصادق الحلوى، دار الغرب الإسلامي =

وبالإضافة إلى مساعدة المرأة زوجها في زراعة الأرض أو الإشراف على زراعتها، نجد أن المرأة المرابطية قد ملكت أراضي كثيرة؛ إما عن طريق الميراث، أو الشراء، أو الصداق(١).

وباستقراء كتب الأحكام ونماذج أخرى من كتب الفتاوى والنوازل نجد أن النساء في عصر المرابطين كان بإمكانهن امتلاك الأرض والتصرف فيها، فقد سئل أبو المطرف الشعبي المالقي عن جواز أو عدم جواز صدقة امرأة كانت لها دار وأحقال، تصدقت بهما على ابن لها، فلم يزل الابن يعمر الأحقال والأم ساكنة في الدار حتى يوم وفاتها(٢)، وسئل ابن رشد عن امرأة كانت لها أملاك بجهة من الجهات منزلة في أيام ابن عباد، تصدقت بها على ابن لها، والأملاك بيد غيرها يعتمرها بالإنزال المذكور(٣)، وسئل أيضاً من مدينة شلب فيمن تزوج امرأة على أن ساق إليها نصف بقعة محدودة وتكون بينهما نصفين(٤)، وسئل أيضاً عن رجل تزوج امرأة على أرض مسماة قد عرفتها المرأة، على أنه إن لم يكن فيها وفاء بها، أكمل لها البقية من أرض له أخرى قد عرفتها المرأة أيضاً ووقفت عليها(٥).

وعلى غرار "أحكام الشعبي المالقي" و"فتاوى ابن رشد"، تتضمن "نوازل ابن الحاج" معطيات تؤكد أن المرأة الأندلسية في عصر المرابطين كان لها الحق في امتلاك قطعة أرض زراعية، كما يوضح ذلك رسم إثبات ملكية جاء فيه: "يشهد من يتسمى في هذا الكتاب من الشهود أنهم يعرفون المال العقار الذي لأم ناجية المعروفة بهبتي ابنة محمد بن فرج بحارة يونس المعروفة ببني سالم من قرية مريانة الغافقي من إقليم الشرف كورة إشبيلية، منه فدان بمقربة من دور الحارة المذكورة وبغربها فيه من شجر الزيتون مئة أصل واحدة وخمسة أصول وفي القبلة مال لابن شجرة، وفي الجوف مال للسلطان، وفي الشرق جنان شرقية فيها أصلان من شجر الزيتون ونقيلات زيتون حديثة الغرس..."(٦).

للنشر، بيروت، ١٩٩٢م، ص١٦٦.

(١) دندش، نهاية المرابطين، ص ١٦١.

(٢)الشعبي، الأحكام، ص٢٠.

(٣) الفتاوى، ج١، ص٢٩٣.

(٤)الفتاوى، ج١، ٢٢٤-٢٢٥.

(٥) المصدر السابق: ج١، ص٦٠٨.

(٦) البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، ج٥، ص٢٤٣.

كذلك أظهرت كتب النوازل بعض القضايا التي تواجه المرأة المرابطية المتعلقة بميراث الأملاك الزراعية في الأندلس والمغرب؛ منها:

١) المشاكل بين البنين والبنات:

قد تحدث المشاكل بين البنين والبنات في ميراث الأملاك الزراعية، فقد ذكر ابن سهل أمثلة عن هذه الخلافات؛ منها: خلف رجل بنين وبنات وأرضين وقرى، فتزوج البنون والبنات، وخرج كل واحد إلى داره، وملك البنون جميع العقار، وكانت تحت أيديهم واكتسبوا أرضاً لأنفسهم، وأضافوها إلى ما بين أيديهم من أملاك أبيهم، وكانوا يعطون مقداراً من غلة مواريثهن عن أبيهم، ثم أرادوا قسمة ما خلفه أبوهم فقال البنون: بعض هذه الأملاك من كسبنا، وقالت البنات: بل جميعها موروثة عن أبينا(١).

لم تقتصر نزاعات المرأة المرابطية مع شقيقها على الأملاك الزراعية، بل كانت هذه الخلافات في بعض الأحيان تشمل الشقيقات فيما بينهن تصل إلى القضاء، ومنها: نزاع بين ابنتي إصبع بن خالد في قسمة ميراثهما عن أبيهما في إحدى قرى قرطبة، وقام زوجا المرأتين بالدعوى(٢).

٢) قسمة الجنان:

يحدث الخلاف في قسمة الجنان أحياناً بين الرجل والمرأة عندما يكون بينهما مشاركة، ومن ذلك ما ذكره ابن رشد فقد كانت هناك جنان مشتركة بين رجل وامرأة أسداساً: ثلاثة أسداس ونصف السدس للمرأة، وسدسان ونصف للرجل، وأراد الرجل قسمة الجنان، فقسم بينهما بنصفين وتقارعا على أن يخرج من نصف الرجل نصف السدس الواجب للمرأة، فلما فعلا ذلك كان في أحد النصفين أشجار تين كثيرة جيدة، وفي النصف الآخر أشجار تين غير جيدة، فقال الرجل: لا أرضى هذه القسمة؛ لخروج قرعته في النصف الرديء، وقال للمرأة: خذي نصف دينار من الذهب وأرجعي نصفك، فتزايدا فيه ثم افترقا على غير مفاصلة(٣).

---

(١) ابن سهل، ديوان الأحكام، ص٥٠٤.

(٢) المصدر السابق: ص٦٨٨.

(٣) المعيار المعرب، ج٥، ص٢٠٦.

٣) غصب واستحواذ أملاك المرأة:

وتفيدنا نازلة عند ابن رشد تتلخص بأن هناك حالات غصب واستحواذ قام بها بعض ذوي النفوذ، ومن نماذجها ما حدث للمرأة التي كانت لها أملاك بجهة من جهات منزلة في أيام ابن عباد تصدقت بها على ابن لها والأملاك بيد غيرها، يعتمرها بالإنزال المذكور، ولا تستطيع المرأة منعه منها، ولا أن تخرجها من يده، ولا تقبض شيئاً من كرائها، فقبل ابنها المذكور الصدقة المذكورة، وبقي المعتمر فيه وهي في يده، فلما انقرضت دولة ابن عباد أراد البائع أن يرجع في أملاكه المبيعة، فقال المبتاع: إنما كان هذا الإنزال على فائدة المال لا على رقبة أصله[1].

وعندما نتوقف عند هذه النازلة نجد أن ابن رشد قد انتصر لصاحبة الحق وأفتى بأن المستثمر بالإنزال ليس له الحق في ذلك، سواء كان الإنزال على فائدة المال أو على أصله، والواجب أن ترد للمرأة أملاكها، ولا يحول أحد دونها، لتتمكن من استثمارها بنفسها أو تمضي قدماً في التصدق بها على ابنها[2].

خلاصة القول: نجد أن الميراث أول أسباب الملكية وكانت الأراضي أوضح الموروثات على اعتبار أنها أساس الاقتصاد الزراعي.

كذلك نجد أن الكثير من القضايا الواردة في فتاوى ابن رشد أو أحكام ابن سهل والمالقي، تؤكد أن المرأة كانت صاحبة أراضي زراعية، وكان لها الحق في التصرف المطلق بها، وذلك بأن تتصدق أو تهبها على من أرادت، بالإضافة إلى مشاركة المرأة في أمور فلاحة وزراعة الأرض.

مشاركتها في الحرف والصناعة:

كانت الصناعات والحرف من الأنشطة الهامة التي ازدهرت في عصر المرابطين؛ وذلك نتيجة للتطور الحضاري والعمراني الكبير في هذه الفترة، وقد خلق ذلك حاجات استهلاكية جديدة، فأصبحت الحرف والصناعات مجالاً حيويًّا لجميع فئات المجتمع، ولم تقتصر على الرجال فقط، بل شملت النساء المرابطيات، وإن كان في أغلب الأحيان من الطبقة العامة، فنساء الطبقة الخاصة ليست في حاجة للتكسب عن طريق اشتغالها بالحرف أو ما ينتج من صناعات، إنما كان احترافهن لبعض الحرف كنوع من هواية وتعلم فقط كالنسخ وكتابة الأشعار

---

(١) الفتاوى، ج١، ص٢٩٣.

(٢) ابن رشد الجد، الفتاوى، ج١، ص٢٩٣.

عند بعض الأميرات المرابطيات مثالًا[1].

وعندما نقف على كتب الحسبة والنوازل التي تحدثت عن هذه الفترة، نجد أن المرأة المرابطية زاولت الكثير من الحرف والصناعات؛ إما بدافع مساعدة زوجها في توفير مصدر دخل للأسرة وما تفرضه عليها احتياجات البيت، أو بسبب الحرية الممنوحة لها، إضافة إلى العادات والتقاليد التي اختصت بها المرأة المرابطية؛ إذ تمتعت النساء بالكثير من الحقوق، مثل المشاركة في التعاملات التجارية[2]، وامتلاك الأراضي والعقارات الخاصة وإدارتها وبيعها[3]، وفتح ذلك الباب للكثير من الوظائف المهنية أمام المرأة المرابطية.

كذلك من الأسباب أيضاً ما أوردناه من ازدهار الدولة المرابطية ونهوضها الحضاري الذي تطلب منها الاهتمام بالصناعة والتجارة والزراعة وغيره؛ مما فتح ذلك المجال أمام المرأة للمشاركة في الكثير من الحرف والصناعات، أو العكس حيث أدت الأوضاع السيئة التي مرت بها دولة المرابطين إلى حث الناس أبناءهم على العمل وتعلم الحرف، فنجد الكثير من الأهالي يكلفون نساءهم بالتحرف والتكسب[4]؛ فهذا التحول الكبير جعل كل فئات المجتمع من الطبقات الفقيرة تمتهن حرف الصناعة، وهنا يمكن لنا حقيقة تلمس الأسباب التي جعلت المرأة تمتهن حرف الصناعة والعمل اليدوي.

أما أهم هذه الحرف التي اشتغلت بها المرأة المرابطية، فهي:

رعي الحيوانات: كانت البيئة الأصلية للمرابطين الصحراء، وكان اعتمادهم على الماشية، وبذلك فقد عملت المرأة المرابطية في رعي الماشية، خاصة أن بعضهن كانت لهن ملكية خاصة للحيوانات؛ كما تشير إلى ذلك إحدى النوازل[5].

(١) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج١، ص١٧٣- ١٧٤.

(٢) ابن رشد الجد، الفتاوى، ج٢، ص١٠٧١.

(٣) ابن سهل، ديوان الأحكام، ص٦١٠- ٦١١.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص١٠٦.

(٥) البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، ج٣، ص١٩٢.

التجارة: ذكرنا سابقاً أن المرأة المرابطية عملت بالتجارة؛ إما بامتلاكها الأموال[١]، أو عن طريق بعض ما تنتجه من سلع تقوم ببيعها في الأسواق[٢].

الفلاحة: عملت المرأة أيضاً في الأراضي الزراعية واشتغلت بزراعة الأرض واستخراج ما تحتويه من مختلف المزروعات والثمار؛ فقد أشارت إحدى النوازل إلى مساعدة المرأة المرابطية لزوجها في فلاحة الأرض[٣]، كما أسهمت في تربية دودة القز التي كانت تربي في مزراعهم[٤].

حرف أخرى:

١) **المعلمة**: أدى الازدهار الحضاري والعلمي إلى فتح فرصة أمام المرأة المرابطية في التعلم والتعليم، وهذا ما ذكرناه سابقاً من وجود معلمات، بل نجد أن مِن الرجال مَن أخذوا عنهن دون أدنى حرج[٥].

٢) **الطبيبة**: تقدمت العلوم الطبية فى عصر المرابطين تقدمًا تشهد به الأسماء والأعلام التي تألقت في حضارة الأَنْدَلُس والمغرب، وأشهرها أسرة بني زهر وهم ممن تركوا بصماتهم واضحة فى تاريخ الحضارة الإنسانية، فكان أبو مروان عبدالملك بن أبي العلاء (٤٨٧/٥٥٧هـ) من أعظم أطباء عصره[٦]، وابنه أبو بكر محمد بن أبي مروان (٥٠٧/٥٩٦هـ)[٧]، ولم يقتصر مجال الطب على الرجال فقط، بل نجد أن المرأة تألقت ولمعت في هذا المجال، فقد اشتهرت أم عمرو أخت أبي بكر محمد بن أبي مروان بمهارتها في الطب وكانت متقدمة فيه[٨]، فكانت تعالج في قصور الأمراء والسلاطين وتعالج نساءهم وأطفالهم.

---

(١) البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام ، ج٣، ص ١٢٢- ٤٢٩.

(٢) البيذق، أخبار المهدي، ص٢١.

(٣) أبو مطرف المالقي، الأحكام، ص١٦٦.

(٤) البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، ج٤، ص١٥٤.

(٥) ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق٢، ص٦٥٤.

(٦) المصدر السابق: السفر الخامس، ق٢، ص١٨- ١٩.

(٧) المصدر السابق: السفر السادس، ق١، ص٣٩٨- ٣٩٩.

(٨) المصدر السابق: السفر الثامن، ق٢، ص٤٨٣.

٣) **النساخة**: نجد الكثير من النساء قد اعتمدن مهنة النسخ للحصول على قوتهن ورزقهن؛ فاحترفت مئات من النساء نسخ المصاحف وكتب العبادات التي يكثر الإقبال عليها، وكن يبعنها فيما بعد إلى الوراقين؛ لما يمتزن به من إتقان كبير ومهارة في الكتابة، هذا فضلاً عن أنهن أرخص أجراً[(١)]، ولا شك في أن احتراف الكثير من النساء نسخ المصاحف وكتب العبادات لهو دليل كبير على إقبال المرأة على تعلم الخط والدين وغيره، وأن ذلك لم يقتصر على الطبقات العليا أو الدنيا؛ ودليلنا في ذلك أن الكثير من النساء اتخذن من مهنة النسخ والكتابة حرفة ومهنة يكتسبن منها رزقهن[(٢)].

٤) **القابلة**: يطلق عليها أيضاً الداية، أو الحاضنة؛ وهي المرأة التي ترعى النساء أثناء الحمل والولادة، فقد أورد ابن قزمان ذلك عندما وصف مظاهر الزواج بقوله: "ومشت الإماء أمام الأحرار، وتقدمت الدايات بالأطفال الصغار"[(٣)]، فنجد أن مهنتهن لم تتوقف على الاهتمام بالنساء أثناء الحمل، إنما الاهتمام والعناية أيضاً بالأطفال، وكانت تأخذ أجراً مقابل ذلك؛ فقد ذكر ابن رشد الكثير من النوازل التي تتحدث عن القابلة[(٤)]، كذلك نجد أنه في بعض الأسر تكون الجدة هي الحاضنة، حيث تأخذ الابن من أمه وتحضنه حتى يكبر، أو في حال أن يكون الابن يتيم الوالدين[(٥)].

٥) **الأمينة**: يقصد بها المرأة الصالحة التي يستخدمها القاضي عندما يقع خلاف بين زوجين[(٦)].

٦) **الراقصة**: انتشرت في عصر المرابطين أيضاً الراقصات اللائي كن يغنين ويرقصن في الأعراس لكسب رزقهن؛ وهذا ما نستشفه من رسالة ابن عبدون بقوله: "يجب أن ينهي الراقصات أن يكشفن رؤسهن"[(٧)].

---

(١) دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٣٧٧.

(٢) ابن بشكوال، الصلة، ج٣، ص٩٢٢.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٥٠٢.

(٤) الفتاوى، ج٣، ص٦٨٧.

(٥) القاضي عياض، مذاهب الحكام، ص١٨٣- ١٨٤.

(٦) ابن رشد، الفتاوى، ج٣، ص٤٥٣.

(٧) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص٥١.

٧) **النائحة:** حيث كانت النساء إذا مات لهن زوج أو أب أو أم ، يرتدين لباسًا خشناً، ويلطخن وجوههن بسواد، وكن يخدشن وجوههن وينتفن شعورهن، نائحات مولولات[١]، وقد أفتى السقطي بمنع النوائح، بل أيضاً بمعاقبة من يشجعهن على ذلك؛ لما في ذلك من مخالفة الشريعة[٢]، فنحن لا نستبعد أن بعض النساء كانت تشارك غيرهن مقابل مبلغ من المال، ونستدل على ذلك بنص ابن حزم عندما ذكر بعض الحرف التي كانت النساء تزاولها بقوله: "فكانت هناك الطبيبة والحجامة والماشطة والنائحة والمغنية..."[٣].

أما أهم الصناعات التي كانت المرأة المرابطية تقوم بها؛ فهي:

الغزل والنسيج: حيث كانت تقوم بتحويل المواد الخام إلى ملابس قطنية أو صوفية أو غيرها من أنواع الملابس، وتأخذ أجراً على ذلك؛ فقد أشارت بعض المصادر إلى أن بنات المعتمد بن عباد كن يغزلن الصوف للناس بالأجرة في مدينة أغمات[٤]، بل إن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذي كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه[٥]، وقد وصف المعتمد حالهن بقصيدة مؤلمة وذلك عندما دخلن عليه بالسجن في يوم عيد مرتديات أطمارا رثة، فحزن لذلك وأنشد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا

---

(١) ابن الوزان، وصف إفريقيا، ج١، ص٢٥٨.

(٢) رسالة في آداب الحسبة، ص٦٨.

(٣) طوق الحمامة، ص٣٥.

(٤) أغمات: تقع بأرض المغرب بقرب وادي درعة، وأغمات مدينتان: إحداهما تسمى أغمات هيلانة، والأخرى أغمات وريكة، وأهل أغمات مياسير، ولم يكن في دولة الملثمين أكثر أموالا منهم، كما يوجد بها قبر المعتمد بن عباد. (انظر: الحميري، الروض المعطار، ص٤٦).

(٥) ابن العماد الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد الدمشقي، شذرات اللهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٩م، ج٥، ص٣٨٦.

يطـأن فـي الطـين والأقـدام حافيـة كأنهـا لـم تطـأ مسـكا وكـافورا[1]

كما كانت المرأة المرابطية تقوم بالغزل من أجل صنع بعض الملابس لأفراد أسرتها، ومن ذلك أن امرأة كانت تصنع من صوف بعض الأضاحي عباءة لزوجها[2].

صناعة الخبز: حيث كانت النساء يقمن بعجن الدقيق في بيوتهن ثم يأتي من يحمله إلى الأفران ليقوم الخبازون بخبزه[3].

صناعة اللبن: نظراً لامتلاك المرأة للحيوانات، فإنها كانت تقوم بصنع ما تنتجه هذه الحيوانات، فتصنع اللبن وتبيعه في الأسواق، كما مر معنا سابقاً؛ عندما دخل المهدي إلى قرية صاء ووجد عدداً من النساء يبعن اللبن[4]، وهذا أيضاً سبب تسمية ابن اللبانة؛ حيث سمي بذلك لأن أمه كانت تبيع اللبن فاكتسب لقبه من حرفة أمه[5].

سقاية الماء: كان من ضمن ما تقوم به المرأة من أعمال البيت سقاية الماء، وذلك عندما نزل ابن تومرت بتلمسان وجد النساء يسقين الماء والرجال يتوضؤون[6]، فكان عملها يأتي نتيجة لما يفرض عليها من مسؤوليات البيت غالبًا.

خلاصة القول: نبع اهتمام المرابطين بالمرأة وفتحهم المجال لها في تسيير شؤون الحياة بحكم أنها نصف المجتمع، ينطلق من اقتناعهم التام بما كفلته لها الشريعة الغراء من حقوق، مثلها مثل شقيقها الرجل، وفقاً للحديث النبوي الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن أم سليم: (هن شقائق الرجال)[7].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٢٧٣-٢٧٤.

(٢) ابن الزيات، التشوف، ص١٠٦.

(٣) المصدر السابق: ص١٨١.

(٤) البيذق، أخبار المهدي، ص٢١.

(٥) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص٤٠٩- ٤١٠.

(٦) البيذق، أخبار المهدي، ٢١.

(٧) الإمام أحمد، المسند (٣٧٧/٦)، مسند النساء، رقم ٢٧٦٥٩، ص٢٠١٨.

وكما نرى من خلال قراءتنا للمصادر التي تناولت عصر المرابطين لم يكن عمل المرأة منحصراً بالقيام بالشؤون المنزلية من كنس وطهي وتربية الأطفال، فنحن نجد أنه قد تم للمرأة المرابطية حق الولوج والمشاركة في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والعلمية والسياسية.

الخاتمة

الخاتمة:

الحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا على نعمه الكثيرة، وبعد..

ففي نهاية هذه الدراسة أقف قليلًا لإبراز أهم ما توصلت إليه من نتائج واستنتاجات؛ ومنها:

• أوضحت الدراسة أن لعوامل (الدين- الثقافة- القرب من رجال الدولة- الأعراف والتقاليد- أثر المجتمعات المجاورة)، أثر كبير في تمهيد الطريق أمام المرأة المرابطية لكي تتبوأ مكانة رفيعة في المجتمع المغربي والأندلسي، فكانت أكثر ظهوراً في مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في عصر دولة المرابطين.

• توصلت هذه الدراسة إلى أن النساء في العصر المرابطي كن يشكلن فئة اجتماعية نشطة وفاعلة أثرت في تاريخ دولة المرابطين؛ نظراً لأن المرأة في ذلك العصر وفي تلك الدولة كان لها نفوذ قوي ومشاركة فعالة في كثير من شؤون الحياة.

• يتبين من خلال هذه الدراسة أن المصادر أغفلت الكثير من العادات التي كانت المرأة تتخذها أثناء الاحتفال بالزواج في عهد الدولة المرابطية، سواء كان ذلك عند الطبقة الخاصة أو العامة من الناس، ورغم ذلك فإن الإشارات القليلة أوضحت لنا بعض عادات المرأة في الزواج بالمغرب والأندلس.

• كانت المرأة المرابطية أكثر اهتماماً بلباسها وزينتها، خاصة ما عرفت به من شغفها بأنواع الحلي التي تشير إليها المصادر المختلفة، دالة في ذلك على أنه من زينة المرأة المرابطية، كالخلخال والأقراط والقلائد، ولم تتوقف زينتها عند الحلي، وإنما صنعت وصفات خاصة للاهتمام بجمالها.

• أن قضية انتساب الرجال إلى أمهاتهم ما هي إلا دليل على المكانة الاجتماعية المرموقة التي احتلتها المرأة في عصر المرابطين؛ وهو ما يفسر اعتزاز بعض الرجال بأمهاتهم والانتساب إليهن.

• حياة المرأة المرابطية لم تخل من بعض المشكلات الاجتماعية التي كان لها انعكاسات سلبية على أثر المرأة سواء في أسرتها أو مجتمعها.

• كانت المرأة المرابطية أكثر اهتماماً بلباسها وزينتها، خاصة ما عرفت به من شغفها بأنواع الحلي التي تشير إليها المصادر المختلفة، دالة في ذلك على أنه من زينة المرأة المرابطية، كالخلخال والأقراط والقلائد، ولم تتوقف زينتها عند الحلي، وإنما صنعت وصفات خاصة للاهتمام بجمالها.

• أن قضية انتساب الرجال إلى أمهاتهم ما هي إلا دليل على المكانة الاجتماعية المرموقة التي احتلتها المرأة في عصر المرابطين؛ وهو ما يفسر اعتزاز بعض الرجال بأمهاتهم والانتساب إليهن.

• حياة المرأة المرابطية لم تخل من بعض المشكلات الاجتماعية التي كان لها انعكاسات سلبية على أثر المرأة سواء في أسرتها أو مجتمعها.

• لم تكن مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية فقط، وإنما كان لها مشاركة في الجانب السياسي للدولة، ورغم أن المادة عن ذلك قليلة إلا أن قرب المرأة من السلاطين ومكانتها المرموقة لديهم مكَّنَنَا من معرفة الكثير عن دورها السياسي في الدولة، فقد شاركت في الحكم إلا إنها لم تحكم، كما كان لها كتاب يعملون تحت إمرتها، ولها أيضاً سلطة في عزل القضاة، وأكثر من ذلك، حيث شاركت المرأة المرابطية الرجل في ميدان المعارك، وكانت أكثر استبسالاً، كما أسهمت في فك رقاب الأسرى.

• أن محاولة اتهام المرأة المرابطية وجعلها سببًا رئيسيًّا في سقوط دولة المرابطين ما هو إلا إجحاف بحقها، خاصة أن هذه التهم جاءت من قبل مؤرخين موحدين حاولوا فيها تشويه صورة المرأة المرابطية وجعلها المسؤولة عن انهيار الدولة.

• أسهمت المرأة في الحياة العلمية والأدبية في عصر المرابطين؛ فكانت أديبة وشاعرة وأيضاً معلمة أخذ عنها الرجال، كما نتج عن التغني بفضائلها ظهور أدب المرأة، حيث كانت المرأة المرابطية تفيض على الشعراء بالعطايا لنظمهم فيها، فما قصائد ابن خفاجة والأعمى التطيلي إلا أنموذج على ذلك.

• من كل ما تقدم يتضح لنا أن المرأة المرابطية كان لها دور فعال في أسرتها، حيث كانت تقوم ببعض الأعمال المتعددة بدءاً من رعاية الأبناء إلى مساعدة الزوج في توفير مصدر عيش

لهم، ثم أضافت إلى ذلك مشاركتها بالحياة الاجتماعية والاقتصادية فاشتغلت بالتجارة إما عن طريق عملها ببعض الأعمال البسيطة؛ كغزل النسيج وصنع اللبن وبيعه في الأسواق، أو امتلاكها الأموال والعقارات والجنان.

• جهود المرأة المرابطية في العمل الخيري والنشاط الاجتماعي كانت وفيرة وكثيرة، وإن اقتصرت على مبادرات فردية، ولم نقرأ أو نسمع أخباراً عن مؤسسات أو جمعيات خيرية كانت تنظم هذه الأعمال في تلك الفترة.

• أوضحت لنا القضايا الواردة في فتاوى ابن رشد أو أحكام ابن سهل والمالقي، أن المرأة المرابطية كانت صاحبة أراض زراعية، وكان لها الحق في التصرف المطلق بها، وذلك بأن تتصدق أو تهبها من أرادت.

الملاحق والخرائط

[١]
رسالة ابن أبي الخصال
على لسان من كلفه إلى إحدى سيدات البيت اللمتوني،
وكن يسعين في حاجة الناس، والخطاب إليها بلقب "حرة"(*)

"أطال الله بقاء الحرة العليا، والسيدة العظمى، وحاز لها في الدارين المحل الأسمى، ولا زالت تسدي إحسانا وتولي نُعمى.

كتب عبدها وقد نفذ من العهد المطاع في حمله ما نفذ، وأخذ روع الهجوم والبغتة من نفسه وعياله وضعفة أهله وأطفاله بما أخذ، فكأنهم ما عرفوا مع هذا البؤس نعيمًا، ولا عهدوا إلا ثكلًا دائمًا وحزنًا مقيمًا، وما لي جرم اقترفته، ولا ذنب عرفته، إلا الاجتهاد في النصيحه، والمحافظة على الأعمال الصحيحه، ونفس بماله ومالها- أيدهما الله- جد شحيحه.

وأشكر عندها القائد الأجل أبا حفص(١)- أعزه الله- فإنه تناول أمري تناولا رفيقًا، وكان علي في هذه الحال حنين النفس رقيقًا، وقد نظر في حسابي، واستبطن جميع أسبابي، فلم يجد- بحمد الله- دركا يرده، ولا شيئا ينقده أو يعده، وكتابه ينبئ عن الحقيقه، ويخبر بمأخذي في هذه الطريقه، ولولا أن لي في براءة ساحتي سلوانًا، ومن حسن عهدها وشرف رأيها- أيدها الله- شفعاءَ صدقٍ وأعوانًا، لقضت الروعة علي، وتعبت نفسي- مملوكتها- إلي، وكيف لا تنصدع كبدي وتنفطر، وتجري عبرتي فتمطر، وورائي قرابة وتبع، وبنيات كزغب القطا أربع، وأمهات أولاد ضيع؟ فإلى من يشتكين بمظلمه، وكاسبهن في قعر مظلمه؟ وبمن يهتفن لنصر، وكافلهن في قبضة أسر، وتحت قصر في قصر؟ بل، أَكِلُهُنَّ ونفسي إلى من أخرجنا من الظلمات إلى النور، ونقلنا إلى الظل من الحرور، وشرفني وإياهن بالإسلام، وعرفني بملوكه السادة الأعلام،

(*) أبو عبد الله ابن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال الأندلسي، ص٢٦٤-٢٦٥.

(١) أبو حفص: عمر بن علي بن يوسف بن تاشفين، ولي غرناطة وكان أول ما قام به اطلاق سراح فقهاء جيان الذين قبض عليهم سلفه عامل غرناطة، وكان اهم ما قام به أثناء عمله هو الاشتراك مع اخية ابي بكر بن علي بن يوسف في مهاجمة النصارى الذين استولوا على احد حصون المسلمين، لكن امارته لهذه المدينة لم تستمر الا اربعة اشهر من جمادى الاول حتى رمضان من سنة ٥٢٢هـ، وبعدها عزل عن غرناطة وانتقل الى المغرب، كما عهد اليه بحكم فاس سنة ٥٢٣هـ. (انظر: ابن عذاري، البيان، ج٤، ص٧٥_٧٧_٩٧_٩٩).

وأسلمني إلى الأمير الأجل الهمام، وإلى الملكة التي حازت فخر الأيام، وتأخر عنها من تقدم وتأخر من الكرام.

فعلى الله تعالى أتكل، ثم إلى مجدها أكل من أكل، فكلهن لها رق، وحقها فيهن وعليهن حق، وقد خفت على نفسي من عظيم المشقه، وبعيد الشقه، وضعف جسمي، ودقة جرمي، فإن غلب حذر، ونفذ قدر، فإليها- أيدها الله- النظر، وبالله ثم بها أستدفع فيهن ما أخاف وأحذر، والرغبة في كتب كريمة تصحبني إلى أوليائها- أيدهم الله- ليكونوا لي عزًّا، وأتخذهم معقلا منيعا وحرزًا، وتأمر لي- أيدها الله- بكتابين إلى فلان وفلان، فلي إليهما سبب كريم، وانقطاع قديم، على أنه لا وسيلة أعظم، ولا سلك أنظم، من الاتصال بمجدها، والتمسك بعهدها، والله يصنع لها وعلى يديها في عبدها، بعزته وقدرته".

[٢]
عقد يتضمن شهادة ضرب الزوج زوجته وإصابتها بجروح(*)

"أشهدت فاطمة بنت القاسم على نفسها، وهي مضطجعة الفراش، في صحة من عقلها، وثبات من ذهنها، تشكو ألم جراحات في جسدها، إحداها بمؤخر رأسها، واثنتان منها بجنبها الأيسر تحت مرجع كتفها من الجهة المذكورة، والرابعة بظهرها مائلة إلى الجنب الأيسر، والخامسة برأس منكبها الأيمن، والسادسة تحت إبطها من الجهة اليسرى، تجد منها ألم الموت.

وذكرت لهم أن جانيها عليها والمصيب لها بجميعها زوجها عبد السلام، على وجه الاعتداء منه والعمد والظلم الموجب للقتل، فمتى حدث بها حدث الموت قبل ظهور برئها وإفاقتها من جراحاتها هذه، فإن المطلوب بدمها زوجها المذكور؛ إذ كان هو الجاني لذلك كله عليها على أوجه العمد كما ذكر. شهد على إشهاد فاطمة بجميع ما فيه عنها من أشهدته به وهي بالحالة الموصوفة، وعاين جراحاتها وأن ذلك مما لا يفعل المرء بنفسه في كذا".

(*) ابن الحاج، نوازل ابن الحاج (مخطوط) خ.ع.و.م، رقم ج ٥٥، ص٢٩٩. نقلًا عن بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص١٨٠.

[٣]
نص فتاوى ابن رشد في يمين حواء بنت تاشفين(*)

وكتب إليه، رضي الله عنه، الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، أصلحه الله، من مدينة إشبيلية (أعادها الله) يسأله في يمين حلفت بها زوجه الحرة حواء بنت تاشفين- صانها الله- إثر موت زوجها الأول قبله.

ونصها من أولها الى آخر حرف فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، ما تقول- رضي الله عنك- في امرأة توفي عنها زوجها، وكان ساكنًا معها في دار الإمارة بالبلد الذي توفي فيه، إذ كان أميرًا فيه، فلما وضع في نعشه، وخرج به من دار الإمارة إلى قبره، خرجت تتبع نعشه، فلما فرغ من دفنه، وهي على شفير قبره، قال لها قائل: قومي ارجعي إلى دارك، فقالت مجيبة له: إلى أي دار تعني؟ قال لها: إلى دارك المعروفة، التي خرجت منها، فقالت: ثلث مالي على المساكين صدقة، وصوم سنة يلزمني، ورقيقي أحرار لوجه الله؛ لا رجعت إلى تلك الدار أبدًا، أين الوجوه التي كنت أعرف فيها، وأسكنها معهم؟! ولما كان بعد زمان تزوجها أمير تلك البلدة، الساكن في دار الإمارة، فجبرها على السكنى معه فيها، ولم يوسعها في ذلك عذرًا، وقد كانت أخرجت الثلث من مالها بعد هذه اليمين؛ لحنث آخر لزمها في يمين أخرى قبل سكنى الدار، وزال عن ملكها من كانت تملك من الرقيق، في وقت اليمين المذكورة؟ أجبنا في ذلك موفقًا، مأجورًا، مشكورًا، إن شاء الله تعالى".

فجاوب- أدام الله توفيقه وتسديده- بما هذا نصه:

"تصفحت السؤال الواقع في بطن هذا الكتاب، ووقفت عليه.

ولا حنث على هذه المرأة الحالفة في رجوعها إلى سكنى دار الإمارة مع زوجها الأمير في ذلك البلد؛ لأن الظاهر من أمرها أنها إنما كرهت الرجوع إليها على غير الحال التي كانت عليها مع زوجها المتوفى، وحلفت على ذلك؛ إذ دعاها القائل إليها، حين قال لها: ارجعي إلى دارك، فلا شيء عليها في رجوعها إليها على غير الحال التي كانت عليها مع زوجها المتوفى؛ إذ لم تحلف على ذلك.

(*) ابن رشد الجد، مسائل أبي الوليد بن رشد، ج٢، ص١٠٧٧-١٠٧٨.

هذا الذي أراه وأقول به في ذلك وأتقلده؛ لأن الأيمان إنما تحمل على بساطها، وعلى المعاني المفهومة من قصد الحلف، لا على ما تقتضيه ألفاظها في اللغة؛ وهو أصل مذهب مالك- رحمه الله- من ذلك قوله في رواية أشهب، في الذي سأله النقيب عن امرأته إن كانت حاضرة أم لا، فحلف بالطلاق: إنها الآن في البيت؛ إذ كان تركها فيه، وهي لم تكن في ذلك الحين فيه؛ إذ قد كانت خرجت منه إلى الحجرة، فقال: إنه لا حنث عليه؛ لأن يمينه إنما خرجت على سؤال النقيب إياه عن حضورها.

ومن ذلك أيضا قول ابن القاسم- في الذي خرج ليشتري لأهله لحمًا، فوجد على المجزرة زحامًا، فحلف ألا يشري لأهله ذلك اليوم لحمًا ولا عشاءً، فرجع فعاتبته امرأته، على ذلك، فخرج فوجد لحمًا في غير المجزرة، فاشتراه: أنه لاحنث عليه؛ إذ كانت يمينه لكراهة الزحام في المجزرة.

وأهل العراق يخالفون في ذلك، ويرون الحالف حانثًا بما لفظ به في يمينه، ولا يعتبرون في ذلك بنية، ولا بساط، ولا معنى.

وذلك خطأ بين في الفتوى؛ لأن الأحكام إنما هي لمعاني الألفاظ المعتبرة المفهومة منها، دون ظواهرها.

ولو اتبعت ظواهرها دون معانيها المفهومة منها في كل موضع لعاد الإسلام كفرًا والدين لعبًا، قال الله عز وجل: ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾[1]، فكان في ذلك وفي ظاهره أمرًا، والمراد به النهي والوعيد؛ إذ هو المفهوم منه، ومثله قوله عز وجل لإبليس: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ﴾[2]، ومن هذا المعنى قوله عز وجل في قصة شعيب، وما ذكره فيها من قول قومه له: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[3]؛ لأن ظاهره المدح والثناء، ومرادهم به ضد ذلك من السب والاستهزاء، ومن مثل هذا كثير في هذا القرآن والسنن المتواترة والآثار. وبالله تعالى التوفيق".

---

(١) سورة الزمر، آية رقم ١٥.

(٢) سورة الإسراء، آية رقم ٦٤.

(٣) سورة هود، آية رقم ٨٧.

[٤]
نص فتاوى ابن رشد في نساء المفقودين في معركة كتندة(*)

"وما تقول وفقك الله؛ ما الصحيح عندك في نساء من فقد بوقعة كتندة(١)؛ كم يضرب لهن من الأجل؟ وكيف إن طلقت امرأة منهن بشرطها في المغيب، كم تعتد؟ وإن كان في شرطها: "بعد أن تحلف" فطلقت نفسها، في موضع لا حاكم فيه، وتزوجت دون أن تحلف؟ بين لنا جميع ذلك.

"أما من فقد بوقعة كتندة فالذي أراه في ذلك وأعتقده مما قيل فيه: أن يتلوم لامرأته من يوم ترفع أمرها سنة كاملة، يبحث فيها عن أمره، فإن لم يوقع له على خبر اعتدت امرأته، وتزوجت إن شاءت، وقسم ماله بين ورثته.

وإن كان لها شرط من المغيب، فأخذت بشرطها، وطلقت نفسها، نفذ ذلك من فعلها، وإن لم يكن في البلد حاكم، وعدتها ثلاثة أقراء إن كانت من أهل الحيض، أو ثلاثة أشهر، إن كانت يائسة عن المحيض".

(*) ابن رشد الجد، مسائل أبي الوليد ابن رشد، ج٢، ص ١٢٤٤-١٢٤٦.

(١) موقعة كتندة أو قتندة: شن ألفونسو المحارب هجومه على مدن الثغر الأعلى في الأندلس؛ مما أدى إلى سقوط مدن مهمة، ووصلت هذه الأنباء إلى أمير المسلمين علي بن يوسف، فكتب إلى أخيه الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين والي إشبيلية يأمر بتسيير حملة لقتال ألفونسو، فتقدم إبراهيم بحشود قوات المرابطين نحو قلعة دروقة المنيعة، وتم الاشتباك مع قوات النصارى في ظاهر بلدة كتندة سنة (٥١٤هـ/١١٢٠م)، وقد انتهت المعركة بهزيمة المرابطين وانسحب إبراهيم وفلول جيشه إلى بلنسية، واستشهد عدد كبير من كبار العلماء والفقهاء، في مقدمتهم العلامة أبو علي الصدفي وأبو عبدالله بن الفراء قاضي المرية. (انظر: محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين، ص١٠٣-١٠٤).

[٥]
أبيات من قصيدة الأعمى التطيلي يمدح بها (الحرة حواء)(*)

أمـا رأيـت نـدى حـواء كيـف دنـا ... بالغيـث إذ كـاد يـأتي دونـه العطـبُ
دنيـا ولا تـرف ديـن ولا قشـف ... ملـك ولا سـرف درك ولا طلـبُ
بـر ولا سـقم عـيش ولا هـرم ... جـد ولا نصـب ورد ولا قـربُ(١)
رد غمـرة ترتمـي مـن كـل ناحيـة ... عبابهـا الفضـة البيضـاء والـذهبُ
مليكـة لا يـوازي قـدرها ملـك ... كالشمس تصغر عن مقدارها الشهبُ
وهضـبة طالمـا لاذوا بجانبهـا ... فمـا لهـم لـم يقولـوا معقـل أشـبُ(٢)
أنثـى سـما باسـمها النـادي وكـم ذكـر ... يـدعى كـأن اسـمه مـن لؤمـه لقـبُ
وقلمـا نقـص التأنيـث صـاحبه ... إذا تـذكرت الأفعـال والنصـبُ(٣)
والحيـة الصـل أدهـى كلمـا انبعثـت ... مـن أن تمارسـها الأرمـاح والقضـبُ(٤)
وهـذه الكعبـة استولت علـى شـرف ... فذبـذبت دونهـا الأوثـان والصـلبُ
ينميـك كـل بعيـد الشـأو فائتـه ... لـه البسـالة أم والسـماح أبُ
مـن كـل منصـلت يسـعى بمنصـلت ... والمـوت بينهمـا ينـدى ويلتهـبُ
إذا رضـوا فـارجهم فـي كـل نائبـة ... وكـن علـى حـذر مـنهم إذا غضـبوا
إذا دعـوا قامـت الهيجـا علـى قـدم ... كأنمـا تنتمـي فـيهم وتنتسـبُ
هـم ثبتـوا الـدين إذ ضـاقت مذاهبـه ... بـأنفس صـيغ منهـا الـدين والحسـبُ

(*) الأعمى التطيلي أحمد بن عبدالله، ديوان الأعمى التطيلي ومجموعة من موشحاته، ص١٦-١٧.

(١) القرب: سير الليل لورد الغد، والمعنى أن الورد لا يكلف صاحبه مشقة.

(٢) الأشب: الممتنع.

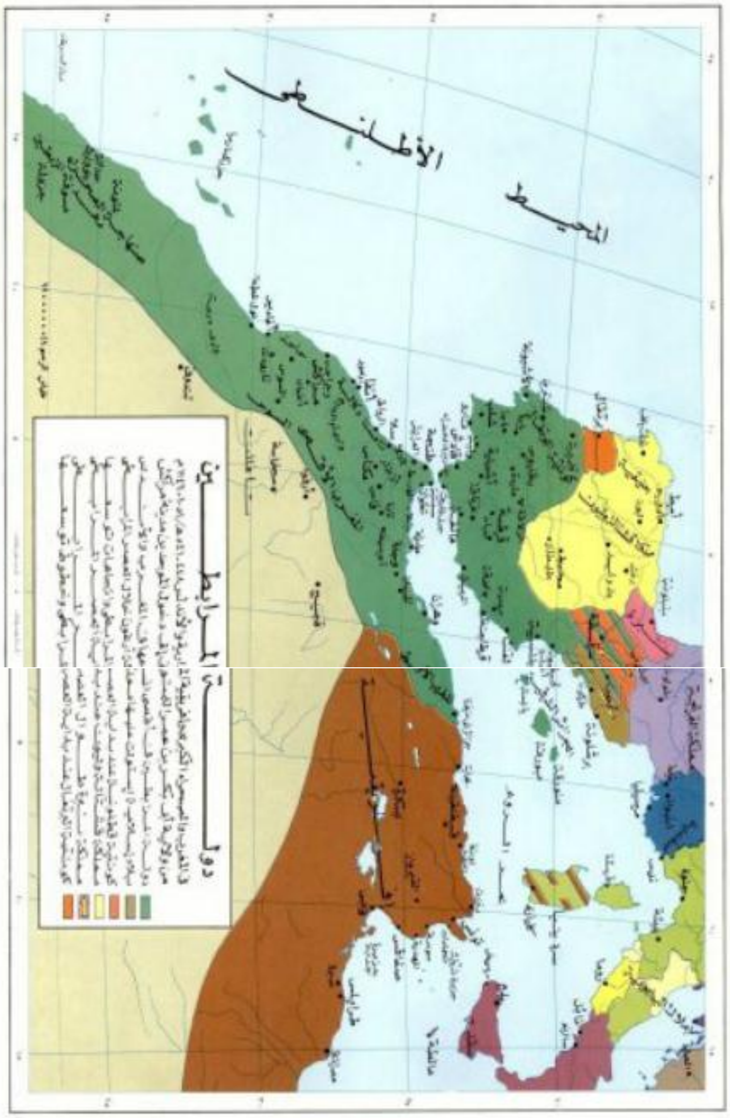
(٣) النصب: الأصول، جمع نصاب.

(٤) الرمح والقضيب: مذكران، ولكنهما يعجزان عن ممارسة الحية الصل وهي مؤنثة.

أيـــام جبريـــل داعـــيهم إذا نزلـــوا   وعزرائيـــل راعـــيهم إذا ركبـــوا
حتـى اسـتقر الهـدى فـي عقـر دارهـمُ   وأيقـن العجـم أن القـادة العـربُ
هـم أورثـوك العـلا واسـتخلفوك علـى   آياتهـا وحـذا الأعقـاب والعقـبُ
أهللـت بـالحرة العليـا إلـى أمـل   لمثلـه كانـت الأشـعار تنتخـبُ
وشـمت بـرق نـداها طـيّ سـورتها   فاقتـادني رغـب واعتـادني رهـبُ
والمـرء لـيس لـه نفـع ولا ضـرر   كالنـار لـيس لهـا ضـوء ولا لهـبُ
بنـى لـك ابـن علـي بيـت مكرمـة   لـه العـوالي عمـاد والظبـا طنـبُ
ولاك أبهـج فخـر تفخـرين بـه   إذا انتـدى للفخـار السـادة النجـبُ
يـا أخـت خيـر ملـوك الأرض قاطبـة   وإن أعـدوا وإن أسـموا وإن نسـبوا
محمـد وأبـو بكـر وخيـرهمُ   يحيـى وحسـبك عـزا كلمـا حسـبوا
ثلاثـة هـم مـراد النـاس كلهـمُ   كالـدهر: مـاض وموجـود ومرتقـبُ
حـواء يـا خيـر مـن يسـعى علـى قـدم   ولسـت عبـدك إن لـم أقـض مـا يجبُ
إليـك أهـديت ممـا حاكـه خلـدي   فخـرًا يجـد وتبلـى هـذه الحقـبُ
وافتـك سـود خطـوط كلمـا احتضـرت   ألقـت مقالـدها الأشـعار والخطـبُ
قـد عـم بـرك أهـل الأرض قاطبـة   فكيـف أخـرج عنـه جـارك الجنـبُ

خريطة
تبين حدود الدولة المرابطية في المغرب والأندلس

(المرجع: أطلس تاريخ الإسلام، د/حسين مؤنس، ص١٧٤)



فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية المطبوعة:

ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٩).

- تحفة القادم، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م.
- التكملة لكتاب الصلة، المطبعة الشرقية، الجزائر، ١٩٦٩م.
- الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م، ط٢.
- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م.

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

- الكامل في التاريخ، تحقيق محمد بن يوسف الدقاق، دار الكتاب العلمية، لبنان، ١٩٨٣م.

ابن الأحمر: إسماعيل بن يوسف (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م).

- بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٩م.

الإدريسي: أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن إدريس (ت نحو ٥٦٠هـ/١١٦٤م).

- المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، لندن، ١٩٨٣م.

الأزدي: أبو داود سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥هـ).

- سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، دمشق، ٢٠٠٩م.

الألبيري: إبراهيم بن مسعود (ت ٤٦٠هـ/١٠٦٨م).

- ديوان أبي إسحاق الألبيري، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩١م.

ابن أبي أصيبعة: أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي (٦٦٨هـ/١٢٦٩م).

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٩م.

الباجي: أبو الوليد سليمان بن خلف الأندلسي (ت ٤٧٤هـ/١٠٨٢م).

- النصيحة الولدية، وصية الشيخ أبي الوليد الباجي لولديه، تحقيق إبراهيم عبدالمجيد، دار الثقافة، بيروت، ٢٠٠٩م.
- فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام، تحقيق محمد أبو الأجفان، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٢م.

البرزلي: أبو القاسم بن أحمد البلوي (ت أول القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي).

- جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م.

ابن بسام: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م).

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.

ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالله (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م).

- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٩٠م.

البكري: أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م).

- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٩م.

البلفيقي: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (من رجال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي).

- المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الإبياري، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٨٥م.

ابن بلقين: عبدالله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيري (ت آخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي).

- التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة المعروف بمذكرات الأمير عبدالله، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف مصر، ١٩٥٥م.

البيذق: أبو بكر بن علي الصنهاجي (عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي).

- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧١م.

التادلي: أبو يعقوب يوسف بن يحيى ابن الزيات (ت٦٢٧هـ/١٢٢٩م أو ٦٢٨هـ/١٢٣٠م).

● التشوف إلى أخبار رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ط٢.

الترمذي: الحافظ أبو عيسى محمد (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م).

● الجامع الكبير، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦م.

التطيلي: أبو جعفر أحمد بن عبدالله (ت٥٢٥هـ/١١٣٠م).

● ديوان الأعمى التطيلي ومجموعة من موشحاته، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩م.

الثعالبي: أبو منصور عبدالملك النيسابوري (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م).

● يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ط١.

ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي (ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م).

● طوق الحمامة في الألفة والألاف، مكتبة عرفة، دمشق، ١٩٩٧م.

الحضرمي: أبوبكر محمد بن الحسن المرادي (ت ٤٨٩هـ/١٠٩٥م).

● السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتاب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.

ابن حمديس: عبدالجبار بن أبي بكر بن محمد الأزدي (ت ٥٢٧هـ/ ١١٣٣م).

● ديوان ابن حمديس، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

الحميدي: أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت نحو ٧٢٧هـ/١٣٢٦م).

● جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.

الحميري: أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت نحو ٧٢٧هـ/١٣٢٦م).

● الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مطبعة بيروت، ١٩٨٩م.

ابن حنبل: الإمام أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/٨٥٥م).

- مسند الإمام الحافظ أبي عبدالله أحمد بن حنبل، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٩٩٨م.

ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد الإشبيلي (ت ٥٢٨هـ/١١٣٨م).

- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق حسين يوسف، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٩م.

الخصاف: أبو بكر أحمد بن عمر الشيباني (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م).

- أحكام الأوقاف، مطبعة ديوان عموم الأوقاف المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م.

ابن أبي الخصال: أبو عبدالله محمد بن مسعود (ت ٥٤٠هـ/١١٤٦م).

- رسائل ابن أبي الخصال، تحقيق محمد الداية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.

ابن الخطيب: لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م).

- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٤م.
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك الكلام، القسم الثاني، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٨٧م.

ابن خفاجة: إبراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله الهواري (ت٥٣٣هـ/ ١١٣٧م).

- ديوان ابن خفاجة الأندلسي، المطبعة الخاصة بجمعية المعارف، مصر، ١٩٨٦م.

ابن خلدون: أبو زيد عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م).

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار ابن حزم للطباعة، لبنان، ٢٠٠٣م.

ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م).

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م.

ابن أبي دينار: محمد بن القاسم الرعيني القيرواني (كان حيا سنة ١٠٩٢هـ/١٦٨١م).

- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ١٩٨٦م.

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م).

- العبر في خبر من عبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتاب العلمية، لبنان، ١٩٨٥م.

ابن رشد الجد: أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م).

- مسائل أبي الوليد ابن رشد الجد، تحقيق محمد الحبيب، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.
- المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من أحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
- فتاوى ابن رشد، تحقيق المختار بن الطاهر، دار الغرب الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٧م.

الرصاع: أبو عبدالله محمد الأنصاري (ت ٨٩٤هـ /١٤٨٩م).

- شروح ابن عرفة الموسوم الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام عرفة، تحقيق محمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

ابن أبي زرع: أبو الحسن علي بن عبدالله (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م).

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبدالوهاب منصور، المطبعة المالكية، الرباط، ١٩٩٩م، ط٢.

أبو زكريا: يحيى بن عمر الأندلسي (ت٢٨٩هـ/٩٠١م).

- أحكام السوق، تحقيق إسماعيل خالدي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠١١م.

ابن زهر: أبو مروان عبدالملك بن زهر الأيادي (ت ٥٥٧هـ/١١٦٢م).

- التيسير الجامع في المداواة والتدبير، تحقيق أحمد مزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م.

ابن زيدون: أحمد بن عبدالله المخزومي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧١م).

- ديوان ابن زيدون، تحقيق محمد الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠م.

ابن سعد: محمد بن سعد الهاشمي (٢٣٠هـ/٨٤٤م).

- الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عطا، دار الكتاب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

ابن سعيد: أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م).

- رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٨٧م، ط١.
- المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م.

السقطي: أبو عبدالله محمد بن أبي محمد المالقي الأندلسي (ت في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي).

- رسالة في آداب الحسبة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٥م.

ابن سهل: أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي (ت٤٨٦هـ/١٠٩٣م).

- الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام (الأحكام الكبرى)، تحقيق يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٧م.

السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م).

- نزهة الجلساء في أشعار النساء، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٩م.

ابن الشراط: أبي عبدالله محمد بن عيشون (ت ١١٠٩هـ/١٦٩٧م).

- الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق زهراء النظام، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧م.

الشعبي: أبو مطرف عبدالرحمن بن القاسم المالقي (ت ٤٩٧هـ/١١٠٣م).

- الإحكام، تحقيق الصادق الحلوى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م.

الضبي: أبو جعفر أحمد بن يحيى (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م).

- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م.

الطرطوشي: أبو بكر محمد بن الوليد (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م).

- الحوادث والبدع، تحقيق عبدالمجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م، ط١.

ابن عبدالملك المراكشي: أبو عبدالله محمد بن عبدالملك (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٣م).

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية

المملكة المغربية، ١٩٨٤م.

ابن عبدون: محمد بن أحمد التجيبي (من أهل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي).

- رسالة في القضاء والحسبة، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العالمي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٩م.

ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (ت بعد ٧١٢هـ/١٣١٢م).

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.

عياض: القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م).

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق سعيد أعراب، دار المنصور، الرباط، ١٩٨٦م.
- مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تحقيق محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م.

ابن فرحون: أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م).

- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٧م.

ابن القاضي: أبو العباس أحمد بن محمد ابن أبي العافية المكناسي (ت ١٠٢٥هـ/١٦١٦م).

- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٣م.

ابن قزمان: أبو بكر بن عيسى بن عبدالملك (ت ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م).

- ديوان ابن قزمان نصا ولغة وعروضا، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٨٠م.

ابن القطان: أبو محمد حسن بن علي (ت في حدود منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي).

- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م.

ابن الكردبوس: أبو مروان عبدالملك التوزي (عاش في النصف الثاني من القرن السادس الهجري

/ الثاني عشر الميلادي).

- تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١م.

مجهول: (من أهل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي).

- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الرباط، ١٩٧٩م، ط١.

مجهول: (كان موجودا سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م).

- مفاخر البربر، تحقيق عبدالقادر بوباية، دار رقراق للطباعة، الرباط، ٢٠٠٥م.

المراكشي: محيي الدين عبدالواحد بن علي التميمي (ت٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م).

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٨م.

المقري: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م).

- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق إبراهيم الإبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.

ابن المناصف: محمد بن عيسى الأزدي (ت ٦٢٠هـ/١٢٢٣م).

- تنبيه الحكام في سيرة القضاة وقبول الشهادات وتنفيذ الأحكام والحسبة، دار العلوم، بيروت، ٢٠٠٠م.

ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م).

- لسان العرب، دار المعرفة، لبنان، ١٩٧٠م.

النباهي: أبو الحسن علي بن عبدالله المالقي الأندلسي (كان موجودا سنة ٧٩٣هـ/١٣٩٠م).

- تاريخ قضاة الأندلس المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٥م، ط١.

النويري: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٧٢م).

- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد علي بيضون، دار الكتاب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.

الوزان: الحسن بن محمد الفاسي (ت نحو ٩٥٧هـ/١٥٥٠م).

- وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م، ط٢.

الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م).

- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م.

ياقوت: أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).

- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٨٩م.

ثانيا: المراجع العربية : .

إبراهيم: رجب وآخرون.

- المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

بلغيث: محمد الأمين.

- دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، دار التنوير، الجزائر، ٢٠٠٦م.

بوتشيش: إبراهيم القادري.

- المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع- الذهنيات- الأولياء)، دار الوفاء، بيروت، ٢٠٠٠م.
- مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣م.

الجريري: اعتدال.

- المرأة في الحياة العامة، دار عالم الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠٠٦م.

الحسن: محمود.

- أزياء المجتمع الأندلسي من سنة ٩٢هـ إلى سنة ٦٢٥هـ، مجلة كلية الآداب، جامعة

ديالى، كلية التربية، قسم التاريخ، العدد ١٠٢، ١٩٩٨م.

حسن: علي حسن.

- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م.

حسين: حمدي عبدالمنعم محمد.

- التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٨م.

الخطيب: عمر عودة.

- لمحات في الثقافة الاسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩م.

أبو خليل: شوقي.

- أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢م.

أبا الخيل: محمد إبراهيم صالح.

- جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين والموحدين (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م-٦٤٠هـ/١٢٤٢م)دار أصداء المجتمع، القصيم، ١٩٩٨م.

دندش: عصمت عبداللطيف.

- الأندلس في نهاية عصر المرابطين ومستهل عصر الموحدين عصر الطوائف الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.

السائح: الحسن.

- الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.

سالم: سحر السيد عبدالعزيز.

- من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م..

السحيباني: حمد بن صالح.

- الضعف المعنوي وأثره في سقوط عصر ملوك الطوائف أنموذجا دراسة تاريخية تحليلية، مجلة البيان، الرياض، ٢٠٠٢م.
- الاتجاة الفكري لدعوة ابن تومرت، مجلة جامعة الإمام، عدد٦، محرم، ١٤١٣هـ.

السلاوي: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣١٥هـ/١٨٧٩م).

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٨٩م.

سيسالم: عصام.

- جزر الأندلس المنسية.. التاريخ الإسلامي لجزر البليار (٨٩هـ/٦٨٥م- ٧٠٨هـ/ ١٢٨٧م)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.

طه: عبدالواحد ذنون.

- تراث وشخصيات من الأندلس، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٩م، ط١.

عباس: إحسان.

- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٧م، ط١.

عباس: سعدون.

- دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٨م.

عنان: محمد عبدالله.

- دولة الإسلام في الأندلس، قسم دول الطوائف ، وعصر المرابطين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م.

أبو الفضل: محمد.

- تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٩٨م.

فؤاد: أحمد.

- أضواء على الثقافة الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٠م.

كحالة: عمر رضا.

- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٩٨٩م.

محمود: حسن أحمد.

- قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م.

مخلوف: محمد بن محمد.

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩م.

مصطفي: إبراهيم وآخرون.

- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ط٣.

أبو مصطفي: كمال السيد.

- جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٨٦م.

الملا: عبدالله.

- المدخل إلى الثقافة الإسلامية، دار الطليعة للطباعة، ١٩٩٨م.

مكي: الطاهر أحمد.

- دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧م.

المنوفي: محمد.

- تاريخ الوراقة المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، ١٩٩١م.

مؤنس: حسين.

- موسوعة تاريخ الأندلس- تاريخ وفكر وحضارة وتراث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٦م، ط١.
- سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧م.

ثالثا: الرسائل الجامعية غير المنشورة.

باجنيد: إلهام عبدالله.

- أثر العرف في العرف ومتعلقاتها من أحكام فقة الأسرة، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا، فرع الفقة والأصول، ٢٠٠٣م.

ربوح: عبدالقادر.

- الأحباس ودورها في المجتمع الأندلسي ما بين القرن الرابع والتاسع، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستر، جامعة الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية، ٢٠٠٦م.

العقيلي: فوزية عبدالله.

- الرؤية الذاتية في شعر المرأة الأندلسية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي، قسم الدراسات العليا، جامعة أم القرى بمكة، كلية اللغة العربية، ٢٠٠٠م.

أبو المعاطي: يحي محمد.

- الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس (٢٣٨هـ_٤٨٨هـ) دراسة تاريخية مقارنة، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة، جامعة القاهرة، قسم التاريخ الإسلامي، ٢٠٠٠م.

فهرس الموضوعات

اللّٰہ غالب